رواية

جاسم سلمان

مَخطُوطَةُ ابْنِ بَطُّوطَة السِّرِّيَّة

سِفر الخلود

دار الوتد
DAR AL WATAD
Qatar - قطر

الرافدين

مَخْطُوطَةُ

ابْنِ بَطُّوطَةَ السِّرِّيَّةَ

سِـــفر الخلـــود

مخطوطة ابن بطوطة السرية

سِفر الخلود

جاسم سلمان

Ibn Battouta's Secret Manuscript

Book of Eternity

By Jassem Salman

الطبعة الأولى: يناير ــ كانون الثاني، 2023 (1000 نسخة)

Copyrights@Dar Al-Rafidain2023

بغداد ــ العراق/ شارع المتنبي عمارة الكاهجي
تلفون: +9647811005860/+9647714440520
www.daralrafidain.com
info@daralrafidain.com
daralrafidain@yahoo.com
Dar ALRafidain دار الرافدين
daralrafidain
dar.alrafidain
dar_alrafidain
daralrafidain دار الرافدين

DAR AL WATAD
Phone: +974 44 792946
info@daralwatad.com

تنبيه: إن جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبّر عن رأي كاتبها، ولا تعبّر بالضرورة عن رأي الناشر.

ISBN: 978 - 9922 - 691 - 00 - 8

مخطوطة ابن بطوطة السرية

سفر الخلود

جاسم سلمان

DAR AL WATAD
Qatar - قطر

www.daralrafidain.com

[وكان الإنسان أكثر شيء جدلا]

54 سورة الكهف

«تعرفون الحق.. والحق يحرركم»

ـ يوحنا.. الإصحاح الثامن

الإهداء:

إلى كل من لم يؤمن بي.. آمنت أنكم سر إلهامي وتغلبي على ذاتي.

إلى كل من زرع الآلام في دروب الحياة، فحصدناها بمناجل الصبر..

إلى تعبي السرمدي.. متى سنمل ونتخلى عن بعضنا؟

الثابت الوحيد: التغيير

هرقليطس

كل هذه الأعوام في سجن اختياري، أو مجبراً على أن يجلس مئات السنين يتنقل من جسد شخص إلى شخص آخر، عاش ابن بطوطة الحقيقي متنقلا بين العواصم والمدن والبلاد، ومن ثم تم سجنه بالقرب من دمشق داخل شخص، وانتهت مهمته الموكلة إليه، وطلب منه ولي نعمته، وأميره الحقيقي، والمالك له، أن يقبع ويكن ويسكن في صحاري الشام وتدمر، ويجد له جسد إنسان يعيش داخله، ليعتاش معه ويكمل حياته.

وما أقسى أن تعيش مسجوناً، لتخرج من سجنك في جسد إلى سجن الحياة الكبير، والأكثر قسوة عندما تحس بأنك هارب ومحروس في السجن من الحياة، تجلس في مكان له أسوار، أو حواجز، تحرسك من المتاعب، والضيم والمآسي، وهذا ما وجده فعلاً عندما أخرجوه مرغماً بعد أكثر من سبعمائة عام وانكشف أمره وسره.

لم يخرج من قمقمه إلا بعد أن أجبره شيوخ الدين على الخروج بالرقية والآيات الخارقة، ولم يعثر عليه إلا صدفة، بعد أن حاول أن يلهو قليلا، وربما قد أفاق من غيبوبته أو أصابه الخرف، أو الملل، ولعله صدّق أن الزمن عاد به إلى الوراء حيث الولاة والدويلات، والحروب والغزو والسبي والنخاسة، فانطلى عليه الأمر، وتزحزح من مكانه، فترنح وسقط في خير أعماله أو شرها.

تلبّس ابن بطوطة في راع يلهو بنايه، فعبث صوته بذاكرته وبعثر حزنه المكدس، فنفض الغبار المتراكم عليه، حتى قام الراعي يرقص ويطوف حول نفسه كالأفعى، يحاول بلا دراية إخراج مابه من شهوات ورغبات مكبوتة، ويتجلى كصوفي زاهد يتحد ويجاهد مع الطبيعة والعالم الخارجي،

يقفز على أطراف أصابعه، ويثب ثم يعاود الدوران، حتى داخ وسقط مغشياً عليه بعد محاولات مضنية أن يبتعد عما بداخله ويطير ليجد أنه كل ما ابتعد اقترب أكثر من داخله، وعندما أحس أنه في جحيم الذات، وجد فردوسه.

عند سقوطه ارتطم رأسه بصخرة مدببة، فخرقت عرقاً في جبهته، حتى تفجر كالينبوع، فسالت دماؤه على وجهه، وانصبت حتى شربها الرمل، ومص عرقه، وكادت الصحراء أن تأكل لحمه وتبتلعه.

أفاق من غيبوبته، وغادر من يسكن بداخله بعد مدة طويلة قاربت على الشهر، فوجد نفسه في وسط مبنى يشبه كل شيء إلا المستشفى، وهو لا يعرف ماذا يعني المكان الذي يجلس فيه، ولا هذه المعدات البالية، والأسرّة الصدئة، وبقايا بياض الأغطية من كثرة الأوساخ، والأرضيات المهترئة، والفوضى العارمة وازدحام الناس الذين يكتمون الصرخات والعويل، حتى تحولوا إلى بكم.

اعتاد على الصمت والأنين بعدما حذروه من رفع الصوت، فكل من يعمل هنا هو مخبر، وعين لمجلس ولي الأمر أو الأمير في ولايتي البادية أو البركة، وقد سمع هذه الأسماء تتردد ولا يعرف عنها شيئاً، فهو شاب بسيط هارب من التجنيد الإجباري، ولم يصدر له أهله هوية ولا يوجد أي شيء له مسجل بأي قيد، وأهله يتنقلون بين الشام والعراق، مع أغنامهم الكثيرة، وإبلهم وكلابهم وحميرهم، يدفعون الرشى للجنود الجوعى، فيمارسون الرعي بالمناطق المحرمة مغضوض الطرف عنهم.

لم يعتد على صخب المدينة ولا أصوات السيارات القديمة المتداخلة جهاتها، ولم يزر المدينة إلا نادرا وهو صغير ليقلعوا ضروسه عندما اشتد به الألم، وعندما أصابته الزائدة، فلا يتوفر بالقرى التي يمرون بها أطباء ومستشفيات كبيرة، لكنه في كل الأحوال لم يعتد على هذه المناظر، من رجال للحسبة، وأسلحة كثيرة يحملها رجال كل منهم يربي شعره، ويطلق لحيته حتى تكاد تصل الأرض، والنساء يتشحن بالسواد، والرجال الذين لم يكن لهم أعمال سوى الجلوس على المقاهي، وسماع الأغاني، صاروا بلا شوارب، وبلحى، بعدما كانوا بلا شيء، ويتساءل ما الذي تغير، ولا أحد يجيبه، وهو شبه غائب عن الوعي، ويتخبطه شيطانه أو قرينه، فلا يكاد يستطيع السير على رجليه، ولو بمساعدة من حوله، وعند الساحة الكبيرة يرى أجساد رجال معلقين، بلا رؤوس، فيقف لينظر إلى المشهد المخيف، ومن معه يصرخون من شدة الفزع، وكل من في السيارة مكشوفة الغطاء،فاغري الأفواه، من الصدمة،

ويستغربون من مناظر الموت في كل مكان، وتغير شكل المدينة، وقدوم حكام جدد.

هل هم في حلم أم هذا هو الواقع، يحاول أحد الرجال مدفوعا بفضوله، وجهله، الوقوف لمعرفة ما يحصل، لكن الناس البسطاء نصحوه أن يغادر، قبل أن يتعرض للتفتيش، والمساءلة، وقبل أن يعاود محرك السيارة العمل وتدور عجلاتها، يقفز الراعي إلى الشارع الذي أصبح لونه رمادياً من عوامل الزمن، ويعيد نفس الرقصات التي كان يمارسها لوحده في الصحراء، فيركض إليه الأطفال معجبين بدورانه حول نفسه، ويتحول ثوبه إلى تنورة صوفي لولا ضيقها، ولا يتجرأ أحد من العامة أن يقترب منه خوفا من الاعتقال، وينتبه الرجال المدججون بالسلاح والقنابل، فيهرعون إليه، ليعتقلوه ويقتادونه إلى مبنى الإمارة في وسط السوق، ولا أحد يمكنه فتح فمه أو الاعتراض.

أكوام من اللحم والشحم تفصل بين المجلوبين إلى المقر، وبين الأمير، فيرفع وجهه بلحيته التي يقطر منها الدهن وفيها قليل من بقايا الخبز المنقوع بالإدام، وفمه مليء بلسان خروف يبدو طويلا.

لم تطل المحاكمة رغم كثرة المحكومين، وبين حين وآخر يتم جلب من يقال عنهم مجرمين ويجب إقامة الحد عليهم، فمنهم من تم ضبطه يشرب السجائر، وآخرون لم يقفلوا أبواب المحلات وقت الصلاة، وآخر اصطحب امرأة في سيارة الأجرة ولم يكن معها محرم، وجاء دور المجنون الذي أسموه «أبو وشة» لأنه كان يمارس الصوفية وهي ممنوعة، وتعتبر ضلالة، فاستعجب الأمير ومعه مساعدوه ورجاله من حوله، فأمر أن يفك عنه القيد، ويقترب منه، وقبل أن يأذن له بالحديث، هجم الراعي على الوليمة، وانهمك يسد جوعه منذ أيام، ويأكل عنه، وعن الذي يسكن فيه، وهجم عليه الجنود بأعقاب البواريد يضربونه لكي يتوقف، فاستغرب مما يحملون، وكأنه غائب عن الوعي وليس من هذا الزمن، وقال في داخله، أين السيوف، وأين السبايا، ولماذا لا يرتدي كبيرهم الحرير، وتهفو وفق رأسه مروحة؟

صاح بهم كبيرهم أن يتركوه فهو غريب جائع، فاستغرب الراعي كيف ينادونه غريباً، ولم يكن يعرف أنهم يسمون كل فقير غريباً، وكل ضال حسب رأيهم غريب، وهم لم يعرفوا قصته بعد، ولم يفهموا من يكون، وقد يعلقونه بعد القتل تعزيرا في السوق ليكون عبرة لمن اعتبر، فقد أمروا الأصدقاء بقتل رفاقهم، ليكون حجم الألم أكبر، لأنهم رفضوا تكفير رفاق آخرين، ويسمعون الشعر، أو الأغاني، فظن الراعي أنه فعلا غريب عن هذه الديار، وظن ابن

بطوطة الذي بداخله أنه قد يكون في زمن ما قبل الإسلام، فكل عمره الذي قضاه من المغرب إلى أقاصي المشرق، ومن الصين إلى الأندلس لم يصادف من يقتلون الأطفال أو الشباب لأنهم يحبون حتى أبي النواس أو الحلاج، ويقمعون من يسمع عزف زرياب أو الموصلي، رغم اختلاف طوائفهم أو دياناتهم.

- **ما قصة هذا الغريب؟**

رد كبير رجال الشرطة:

- **قبضنا عليه بالجرم المشهود، يمارس الصوفية، في وضح النهار، وفي قلب ساحة السوق.**

التفت رجل يرتدي بنطالا وقميصا، ولا يرتدي زياً بدويا، وكانت تهمته التدخين، وقال قبل أن يستأذن:

- **يبدو أنه مريض، ويرقص من الألم، أو مرض نفسي.**

رد الأمير:

- **من أنت حتى تتحدث قبل أن أسمح لك.**
- **خفت من إصدار الحكم على بريء، وأنا طبيب مختص.**
- **من أين أنت، ولماذا تحلق لحيتك وشاربك، ألا تعلم إنها مخالفة؟!**
- **أنا عجوز في السبعين من عمري، ومن أهل هذه المنطقة، وطبيب الفقراء، فقد نذرت بقية عمري لمساعدتهم، ولا تستغرب شكلي وهيأتي، فقد عدت إلى دياري وعشيرتي، بعد سنوات قضيتها في الدراسة، والعمل بالخارج.**
- **أها.. أنت من هنا؟**
- **نعم.. وأنتم الغرباء سترحلون يوما، كما رحل الذين من قبلكم.**
- **كيف تجرؤ أن تقولها في وجهي، نحن عائدون لتطبيق الحق.**

- الدين أبسط وأجمل من ذلك بكثير، وليس لدي ما أخسره لأقول الواقع والحقيقة.
- هل ترانا غير أكفاء للسيطرة على الواقع، ونكون الحقيقة؟
- موضوعكم أكبر مني ومن تفسيراتي، ويبدو أنك رجل عالم، والدين يأمرنا بالعدل في الحكم، فلا يظلم هذا الفتى.

من واقع الخبرة دغدغ الطبيب مشاعر الأمير المغلفة بالجبروت والقسوة، فأراد أن يشتهر صيته بأنه صاحب علم، فأمر بعرض المقبوض عليهم على رجال المناصحة، ولكن الطبيب رفض لأنه لا يشكو من شيء، وبالنسبة للتدخين فقد دلهم على العلب التي يخبئها في سقيفة بيته، فأتلفوها أمام عينيه، وأطلقوا سراحه، وجلس أمام عيادته يقدم المساعدات والنصائح للمرضى المراجعين، قبل أن يستلم أمر إعادة فتح العيادة الصغيرة، بعد أن كان يعمل جراحا في أكبر مستشفيات العالم، وفقد ابنه الذي جاء لزيارة بلاد أبيه فقتل في قصف عشوائي، ولم يعد له أحد بعد وفاة زوجته إلا كلبه الذي يعيش معه في بيته الكبير، ولا يريد أن يعرف عنه أحد شيئا، لكي لا يمنع من تربية الكلب لعدم دخول الملائكة البيت بسببه.

لا يخفى عن هذه العصبة الحاكمة شيء، فهم يتعاملون مع الجن، ويتلصصون حتى على المرأة وزوجها، وتصلهم التقارير عن البادية وأهلها إذا حل الربيع، وسمنت الأغنام، وزاد السمن لدى العجائز والأموال من بيع الخراف والصوف، فيرسلون الجباة لجمع الخراج، ويطبقون الضرائب على التجار في كل مكان، ويعيدون عقارب الساعة إلى الوراء.

وفي ليل داهم، كان الأمير يريد التسلية، فأمر بإحضار الطبيب، ومعه مريضه الذي كان يعالجه، فلم تغب عن باله تلك الحادثة، وأراد أن يعرف عن الصوفية أكثر، ويقرب الرجل العالم منه.

بعد ساعات وجيزة، وصل الطبيب معززا مكرماً، على غير عادة استجلاب المطلوبين، فأجلسه وأكرم موضعه، وأجلس الراعي على الأرض، لأنه يعرف أنه لا يجيد الجلوس مع الكبار.

- **أخبرني أيها الطبيب، ما قصة هذا الشاب؟**
- **قصته محيرة، ربما الضربة التي في أسفل رأسه قد غيبت عقله، وأفقدته توازنه.**
- **هل هو مجنون؟**
- **الغريب في أمره، أنه يغيب عن الوعي، ويهذي بأشياء غير مفهومة.**
- **ماذا يقول؟**
- **يقول إنه مر بهذه الديار قبل سنوات طويلة، وكان هنا أمير يدعى مهنا، ويتهم بيبرس بالخيانة، واليهود أيضا، ويقول إن ابن تيمية مسجون.**

سمع الأمير اسم ابن تيمية، وجن جنونه، ماذا يقول عن الشيخ، سأقطع رأسه.

- **مهلاً إنه مريض.**
- **وما دخل راع أمي بهذه القصص.**
- **من يكون وابن من هو؟**
- **إن جئت للحقيقة فهو يتنقل بين الشام والعراق، بلا أي هوية من الدولتين، والآن حكمتم أنتم، فلا يملك في عهد دولتكم أي تعريف.**

- **من أي العشائر، فنحن لا نعترف بدول العسكر؟**
- **إنه من طي.**

هنا عاد ابن بطوطة للحديث:

- **نعم طي، لقد جئنا لمحاربة الصليبين والمغول.**
- **وما دخل شيخ الإسلام بك أيها الوغد؟**

قالها له أحد المتملقين من كبار رجال الأمير، فرد عليه:

- **إنه شيخي، ولقد تركت ولدي بدمشق وأوصيت زوجتي أن تجعله من تلامتذه عندما يخرج من السجن، أما زال مسجونا؟**

اقتادوا الراعي إلى زنزانة خشبية في قصر تم الاستيلاء عليه، وبات مقراً لكبار القادة، وعليها جلاد ضخم يبدو كجندي مغولي، وكانت هيأته تشبه ما اعتاد عليه المماليك من حلق حواجب الجنود ورؤوسهم.

ومن شدة غضب الأمير، أمر بإلقاء الطبيب في الزنزانة، وترك للجلاد حرية التصرف بهما، والتسلية بتعذيبهمافي الليل، فلا ينكر أحد أي اتهام، حتى يقتله، فيبقى وحده بلا مساجين.

لم يصدر عليهم حكم، فلا مانع أن يبقوا في السجن، حتى يتذكرهم، أو يصدر أمراً يلغي أمره السابق، وربما أحس بأنه بحاجة إلى مشورة الطبيب، ولكن جبروته يمنعه من التنازل عن كبريائه، ويعترف بصدق الرجل، حينما قال له إنه لا علاقة له بابن تيمية، فهو لم يُفت بقتل المسلمين، والأبرياء كما يدعون، بل شجع على قتال المعتدين، والغاصبين، وكان يحث الناس على الجهاد ضد الغزاة، ولم يأمر أو يكتب في أي شيء من كتبه عن قتل غير المسلمين، بل إنه قارع قائد المغول «قازان» بالحجة، وعندما اقتنع، وعاد عن غزو دمشق، وفك الأسرى، رفض شيخ الإسلام أن يعود دون الذميين من أهل الكتاب، وطالب أن يعتبر المغول كل أهل دمشق سواسية في السراء والضراء.

في الزنزانة، أراد الجلاد التسلية، فعرّى الراعي، ليبدأ بجلده، والطبيب يتألم، وسالت دموعه في مجرى تجاعيد وجهه. وتذكر ولده، فنزع قمصيه، ورمى بنفسه فوق الراعي، ليتشارك معه الجلدات.

زادت فرحة الجلاد بوجود ضحيتين، وبدأ صراخ يتعالى من قلب الراعي وجوفه:

- **لا تجلدني، وأنا الكريم ابن الكرام، خادم الدين والدولة، أهذا جزائي؟**

أسكته الجلاد، بعد أن حشى لفافة قطن انتزعها من الأكياس الكثيرة المجلوبة من محاصيل الفلاحين، ودسها بقوة في فمه، وقال له:

- **إسكت يا عدو اللّه، وخذ جزاءك أضعافاً مضاعفة.**

صرخ الطبيب عالياً، سريعا فليس لديه وقت، قبل أن تنزل عليه جلدة من سوط لا يرحم، فينشغل في التأوه.

- **كل شيء ضدكم هو صاف وحقيقي وثابت، وأنتم الأعداء الملوثون المزيفون المتحولون الزائلون لا محالة مهما طال الزمن.**

توقف الجلاد فجأة، ثم ذهب ليمارس عمله في مكان آخر، يجلد السبايا المتمنعات عن قبول القادة، أما ابن بطوطة فابتلع القطن الذي نسيه الجلاد في فمه، ليستطيع التحدث، وقد عاد إلى صحوه:

- **ما الذي جعلك ترمي بنفسك إلى التهلكة أيها الطبيب؟ وأنت كنت عزيزا، غير مجبور على تحمل ما مر بي.**
- **تتحدث بلغة غير لهجتنا، فمن أين لك هذه البلاغة أيها الأمي.**
- **أنا لست أمياً، بل قاض، ورحالة.**
- **ماذا تقول، عرفت أن اسمك محمد، وأنك راعٍ ابن راع، ومن بدو هذه الديار.**
- **أنا بربري.**
- **من أين لك هذا الكلام، يبدو أني في آخر عمري سوف أصدق الخرافات وقد تلبسك جن أو أنك مجنون.**
- **لا هذي ولا تلك، أنا أعقل منك، ولست بدوياً، لكني أعرف سكان هذه الديار القدماء، وأعرف الكثير الكثير،**

حتى أكثر منك وأنت الذي يقولون عنك العالم الخبير.

- **كيف تكون كذلك؟ وقد كنت مع أهلك الذين جاؤوا بك إلى هنا، وقد أصابك نزيف من سقوطك على صخرة.**
- **لن تصدقني، ولن يصدقوني أيضا، فأنا جن ابن بطوطة الرحالة العربي، كنت ساكنا فيه، وتلبسته في بيت ابنة جبرين، فكنت متلبساً بها، مرسلا من المغول، وأسلمت على يديه، ومنذ طفولته وأنا معه، وأنا من دفعه للارتحالات، والكثير من الزيجات، وحياكة الاتفاقات، والوظائف، وسهلت له مع أبناء قومي كثيرا من الأمور، وبت أتنقل من شخص لآخر لكي أحفظ تاريخه، وتلبست في الراعي لكي أعيش، لكني أحببت هذا الأمر، وأصبت بالحنين للماضي عندما جئت هذه البلاد، وأحسست أن هؤلاء القوم سيعيدوني إلى عصر ابن بطوطة.**
- **أنت لست الراعي، بل من تلبس به؟**
- **صحيح أنا أتحدث بصوته، وأريد منك مساعدتي للخروج من هنا، فهؤلاء القوم لديهم جن مارد، يسيطر على هذه الديار، يدعي جوزيف وهو يهودي ظالم، وقد سجنني بسحر أسود داخله.**
- **لماذا جئت إلي، فأنا لا أؤمن بالخرافات، ولا ما تقومون به، بل لا أؤمن أصلاً؟**
- **لم آت بمزاجي، فقد جلبني إليكم وقوع الراعي، وخروج هؤلاء، فأنا قبل ابن بطوطة كنت أقبع في ذاتي، وأهيم بعد سنين الهوان، واستبشرت خيراً بالمماليك وحلفهم مع العرب، وعودة الروح لجسد هذه الأرض، ولم الشمل المبعثر، وعندما عاد التقهقر رجعت إلى إنزوائي.**

يسكت، ويعاود ابن بطوطة الكلام بعد أن انتبه لقول الطبيب أنه لا يؤمن أصلاً.

- **تعال.. كيف لا تؤمن.. الذي أعرفه أن كل العرب**

مسلمين؟ وأنت من هذه الديار؟ واسمك محمد أيضا مثل اسمي، فهلا حللت لي هذا اللغز؟

- **صحيح لكني لا أؤمن، أنا رجل علماني، ليبرالي، بغض النظر عن التعاريف الكثيرة، فقد كنت شيوعياً، وعدلت عن هذا الطريق إلى الرأسمالية عندما كنت أعيش في بريطانيا، ولا أؤمن بصلاح الدين ولا خرابه.**
- **أحتاج إلى زمن معقول لأفهم هذه المصطلحات، فلقد عرفت على مر السنين حالات زندقة، وردة كثيرة، حتى عند أهل العلم والفلسفة، وشهدت حروبا كثيرة في الفلسفة، لكن كلمة شيوعي أظن كل الظن أنك أخطأت فيها وزدت حرف الواو، ولو أنهم كانوا في زمن غابر، مجرد حركة سياسية ودينية.**
- **لا لا لقد ذهب عقلك إلى بعيد، الشيوعية شيء آخر، عشنا في بلادنا العربية بعد سقوط الخلافة نتأرجح بينها وبين الرأسمالية المتوحشة، والعرب كما تعرف يا ولدي تابعون بلا حضارة، فأراد الثوريون الخروج عن المألوف، فضاعت أحلامنا، وتلقفها هؤلاء المتشحون بالسواد، وأعدموا الألوان وأعادونا للأبيض والأسود.**
- **صدقت، فلقد صدمت بما هو حاصل، ولكن دعنا نراقب عن كثب في سجننا هذا ما يحصل، ونحن محروسون بهم من أي فوضى من الخارج، يبدو أنك رجل واع، وسأطلعك على كنوز تزيح عن كاهلك هذا الشقاء وهذا الهم المتراكم.**
- **والله ما خبرت لدى الرعيان سوى رائحة الصنان، والجهل.**

عاد الراعي إلى وعيه، وسمع شتيمة العجوز غير الآبه، ولم يكن يعرف عن مصيبته شيئاً، وأنه يحمل تاريخا في داخله، ولم يكن الطبيب يؤمن بوجود شخصين في شخص، ولم يصدق بوجود الجن أصلا، فحسب أنه أمام بدوي بسيط، خياله واسع من كثرة الجلوس لوحده في الصحاري.

في الليل، لم يستطع النوم من شدة قرصات البعوض، وتجمعها على الجروح وآثار الندبات بسبب ضرب الجلاد الصعلوك الذي لم يكن يجد له

عملا، فوجدوا في ضخامته مصدر رعب للأهالي، فجعلوه حارساً للسجن.

اغتسل بعرقه المالح، الذي جمّع قطراته، ليستطيع فرك أسنانه بشيء من التراب والماء، فقد اعتاد كل عمره على تنظيفها قبل النوم، ومع مرور الأيام اعتاد جسده الأبيض على تلبد البعوض عليه حتى يشبع وتنفجر مؤخرته، والراعي ينام ملء عينيه ماعدا الأفكار والأحلام التي تراوده فيصحو شخصا آخرا، بين حين وآخر، وتتبدل الأشخاص، ويتغير الصوت نوعا ما، فقد تآلف الطبيب مع الشخصين اللذين معه، وأصبح يميز بينهما، مثلما يميز الأهل التوأمان المتشابهان طبق الأصل.

اقتربا من بعض، وأصبح يتسلى بسماع قصص الشاب، ويستمع منه إلى أخبار رحلاته، وأيقن كل اليقين أن هناك شيئا ما حدث له، وأخذ يحاول تصديق ما يحصل أمامه، كأنه فيلم مر عليه في سينمات أوروبا والقاهرة وبيروت.

مصحوبا بالدهشة، ومجبرا على تقبل هذا الواقع، أخذ الطبيب يسمع ويدون ما عنده، عندما تأكد أن ما يصب على أذنيه أعتى من صوت الانفجارات بالخارج، وأن هذا الراعي حكيم بالفطرة، أو أن حكمة ليست بشرية تكسو عقله، خصوصاً عندما قال إن المساجين أصبحوا متحررين من كل شيء في الخارج، وحريتهم محروسة، فهذا كلام لا يقوله إلا فلاسفة، وأحس لوهلة أنه أمام شخص فيه من روح المنهل والمصب ذاته الذي أنتجه الفارابي وابن رشد وسقراط وأرسطو وأفلوطين، وسارتر وفوكو وطاغور.

في كل ليلة، عندما ينام الجلاد والسجانون، يهز الكهل جذع الراعي لتتساقط الحكمة على أرضه الجدباء، فينقله من قفار مجدبة إلى مروج الحكمة والتاريخ، ويطوف به طواف الغارقين بالحلم في سماء فاصلة بين العالم والمستحيل.

- **يا ولدي لقد بت أصدق حقيقتك، لكن هل تعلم أنك ترتكب جرماً بتعذيب هذا الفتى، فهو يحس بأن به شيئاً، وتغيب عندما يأتي صحوه، وتعذبه، فهل يحس بك؟**
- **أنا مجبر على ذلك، فقد كنت أتلبس الناس، ولا يشعرون، وليس لي حيلة للعيش إلا بهذه الطريقة.**
- **هل تستطيع أن تخرج وتسكن بمن تشاء، وتظهر بأي**

هيئة تريدها؟

- **لا ليست بهذه السهولة، إنني أضعف مما تتخيل، وقدراتي مغامرة مستحيلة، وقد انكشف أمري لك، لأني ربما أكون في آخر عمري، ونحن نموت مثلكم، ولكن أعمارنا تختلف عنكم.**
- **كيف استطعت العيش كل هذه السنوات مخلصا لقضية ليست قضيتك، وتتقمص بأشخاص أنت مغترب بهم، وتتحمل كل هذه المصاعب وهذه المعاناة، أصدقني القول، وبلا مواربة أو تهرب.**
- **بالتأمل.**
- **مثلما أهرب أنا من كل شيء وأتصبر بالنسيان!**

وثق الجني اليائس بالرجل العجوز، وأراد تسليم العهدة لرجل يستطيع تدوين ما سيرويه له، وكأنه يتمرد أو يتجرأ بكشف المستور، ففاض كيل الزمن بحال هذه البلاد، فهي من فشل إلى فشل، وتعيد ترتيب فوضاها وضياعها من جديد، لكن بأشكال مختلفة.

- **قلت لي إن لديك كنزاً في جعبتك، فمتى ستقوله لي؟**
- **هل تطيق صبرا أن تجلس أياما طويلة تستمع لقصص طويلة.**
- **وما فائدة الاستماع؟**
- **كل شيء بفائدة، أتظن أن كل شيء معلوم لكم، فهذا غرور الإنسان، وما أوتيتم من العلم إلا قليلا.**
- **ماذا ستعطيني؟**
- **قل ماذا سآخذ منك؟ أنا لا أريد إلا أن تدون ما أقول، وحدسي يقول إن سجننا سيطول.**
- **ليس في العمر متسع، ولا بالبال مرتع لخيالاتك.**
- **اقبض عقلك، ولا تكن كابن جزي عندما اجتزأ ولم يضبط ما دوّنه عني، في منتصف القرن السابع الهجري بالأندلس، ولا كابن خلدون عندما استهزأ بي.**
- **أنا مغرم بابن خلدون.**
- **سنأتي عليه، وهو فيلسوف نسكنه أيضا، فالجنون**

مرتبط بالجن.

- **معنى كلامك أن العقل بشري وفقدانه شيطاني.**

اتفق الاثنان، ونقصهما شيئان، القرطاس والقلم، فحن عليهما أحد الجنود غير المؤمنين، والذي تجند بحثا عن التسلية باعتقال من كانوا يستهزأون به، ويريد صنع بطولات في مدينته الصغيرة، ليذيع صيته بين قومه، وتعجب به الفتيات اللاتي كن يبحثن عن الوسيمين، ولا يعرنه اهتماما.

مع وصول الورق والقلم، استحضر الطبيب ابن بطوطة في داخل الراعي، وبين شك ويقين، لم يصدق ما يسمع، ولكن اعتبر نفسه عاقلا، ملتزما بعهده في أمانة التدوين، ويدوّن كل ليلة على ما يملى عليه، إلى أن يحين الفرج، الذي يراه قريباً، وابن بطوطة يراه بعيداً، ولا يستعجله، بل يمتطي صهوة الصبر الطويل.

وبدأت رحلة الكتابة والانتقال من العصر الحديث إلى الماضي عبر بوابة سحرية عجائبية...

الطفولة وبلوغ المأرب

طنجة عام 718هـ، 1319 م

كان يا ما كان في قديم الزمان، وفائت العصر والأوان، هناك في أقصى نقطة من غرب العالم القديم، في طنجة حيث دولة المرينيين، وازدهار العلم، والتمسك بالدين، وعلو شأن المكان.

تموج في طنجة عند الظهيرة رائحة البحر، المختلطة بعبق الأزهار، والأعشاب والأشجار، ورائحة عرق المتزاحمين في أسواقها الضيقة.

يلهو الأطفال في الأزقة مثل الفراش، يحدق الطفل محمد بن عبدالله بالأجواء، يحس بأن روحه مقبوضة، ورجلاه مربوطتان، ويحلم بأن يخرج من هذا السجن، إلى رحابة العالم، واكتشاف الإنسانية، والبلدان، والعدم.

يناديه الصبية لممارسة اللعب، يكورون القماش، ويركلونه بأرجلهم، ولا يلتفت لهم، ويجعل شطر وجهه نحو الشرق.

يربت أحدهم على كتفه، ويرفع رأسه، ليجد أباه واقفاً بطوله الفارع، وهيبته المستمدة من تقاسيم وجهه الحادة، وجفاف العاطفة، والجدية الدائمة.

- **لماذا أنت شارد الذهن، ولماذا لا تلعب مع أصدقائك؟**
- **لا أحب اللعب، ولا يشدني.**
- **ما الذي يشدك؟**
- **لا أعلم.**
- **أجواء الربيع في طنجة، لا مثيل لها، ورائحة البحر تنعش الروح، عندما أفرغ من قضايا التجار والعباد، هذا الأسبوع، سأصحبك أنت وأمك نحو البحر، في مضيق طارق، أو نحو المحيط.**
- **لا أحب البحر ولا أحب رائحته.**
- **في دمك تسري روح ابن البيد، وعمق الإخلاص، وقلق السمو.**

يسبح الطفل في برزخ من خيالات بريئة ومختلفة، تجعله يحس بأنه غريب على الاستقرار، وبعيد كل البعد عن محيطه، ويجدوه الأمل في الخروج إلى حريته، حيث لا حدود، ولا مكان أو زمان، متحرراً من كل شيء، إلا أحلامه، فيتخذ من هذه الأحلام، معراجا لإيجاد ذاته.

يعود إلى شروده، ويستمر الصبية بمناداته، ويغيب والده في سراب الطريق المتعرج، وينقطع ظلاله خلف جدران الأزقة.

- **يا ابن بطوطة، ألا تسمعنا.**

يصمت، يفكر، كعادته ويزن كلامه، قبل أن يرميه في الهواء:

- **اسمي محمد بن عبد اللّه.**
- **نعرف اسمك وأمك وأبيك، وكل شيء عنك، قم والعب معنا، أم أنك تحس بأنك أكبر منا.**

لم يكونوا يعلمون أنه بلغ الخامسة عشر من العمر، ولكن دلال عائلته، والنعيم الذي يعيش فيه، والهناء، يجعله يبدو أصغر، وحتى ولو كان بعضهم أصغر منه، فهناك من يكبرونه بكثير، ولا يعتبر الصبي رجلا، حتى يبلغ سن الرشد، ويتم تزويجه، والاعتماد عليه.

ومن حبه للخروج من حياته المحدودة إلى رحاب اللّه الواسعة، يريد أن ينحت من هذا اللقب علامة فارقة في صفحات التاريخ، ويدرك تماما أن اللقب الرنان سيبلغ الأفق، ويملأ الدنيا، إلا طنجة ابنة البحر، وجارية المحيط، وحارسة المضيق.

يقضي بعض الوقت أحيانا مع الصبية على شاطىء البحر، يحاول أن يقيم علاقة مع نوارسه، ويتعطر من رطوبته، وزفارة أسماكه، يتآلف مع أمواجه التي يقنع نفسه جاهداً أن يركبها يوما ما، ويمخر عبابها.

يعود ملطخا بالطين الرائب، وبقايا رمل الساحل، وملحه، وتستقبله والدته بالأحضان، فهي تغدق عليه بالحنان، والاحتواء، ولكنه يعاملها مثلما يتعامل مع وطنه، فكل ما زادت باحتوائه، أحس برغبة في الانعتاق، والطيران، تتحسس شعره، وتنفض عنه الأوساخ، وتقبله بتحنان منقطع النظير، وتشم رائحته، وتفرك أنفها في ثيابه، وتبتلع ملوحته المؤقتة، كأنه عسل وسكر على قلبها،

فيفر من بين يديها كالعصفور المبلل، ويقذف كلماته باتجاهها ويتركها وراءه وهو يعدو نحو أسطوان البيت الكبير:

- **أماه لقد كبرت، أنا أصبحت رجلا، وما زلتم تنظرون إلي بأني صبي صغير.**
- **ما هو الدليل؟**

تقولها وهي تعرف أنه قد بلغ، وقد أصبح صوته خشناً، وله رائحة الرجال، ونبت شاربه على أرض وجهه.

- **انظري، لقد اختط شاربي، وقد بلغت.**
- **إن كنت بلغت، وتعرف معنى البلوغ، فيجب علينا تزويجك، ولكنك تبقى بعيوننا طفلا صغيرا، ولم يشتد عظمك، وما زال جسدك طريا.**
- **إن كنت تعنين الهرب من دروس الفقه ودروب الأجداد، فهذا لأني لا أجد الحال المرسوم لي مناسباً، ولا أرى نفسي يوما ما قاضياً يلف العمامة، ويرتدي العباءة، مكبلاً بهما، في حضرة العامة، يحكم ويتحكم، أنا أحب إطلاق أرجلي، وأمتطي صهوة الميادين، والجبال والهضاب والسواحل.**
- **لا تشبه أعمامك ولا والدك، ولا قومك، لكني أعلم يا ابني، وفلذة كبدي، وقطعة من جوفي، وكل مهجتي، أنه من شابه أباه فما ظلم، وسلك القضاة، يجعلك من علية القوم، وسادتهم، وأنت منهم، وهذا إرثك ومجدك، وعلم ينتفع به.**
- **صرت تتحدثين مثل أبي، من عاشر قوماً لعشرين عاماً صار منهم.**
- **أنت مثل أبيك، في الخطابة، والبلاغة، جوابك حاضر على طرف لسانك، ينزلق مثل الندى على أوراق البرتقال الملساء.**
- **قول سديد، خير من مجاراة ثقيلة، تسقم الروح، وتربط العزم، وتثبط العزائم، فقد اعتدت أن أقول ما يجب،**

وأسكت عما لا أحب، وأمسك بما هو لي يحتسب، وإني يوما ما مفارق هذه الحياة الجامدة، بلا رجعة.

- **تتركني وأنا أمك، أخالك تمزح، وأحب مزاحك الذي يشبه الجد، وذمك المراد به المدح، فجدية والدك، تثير الرتابة في المنزل، وتجعلنا كطلاب الدرس، نتكلم عندما يأذن لنا الشيخ، ونسكت عندما يأمرنا، وننصرف حين ينتهي من الإملاء علينا.**
- **هذا كلام، ينتظر أن يغدو فعلا، وفعل حل وقته، ولا يطويه نسيان، أو يحتجزه مكان أو إنسان، وأمر مقضي، وحياة لا فتوى لقاض بها.**
- **أأنت جاد؟**
- **جاد في ماذا؟ أنا ما زلت أتحسس طريقي، لا أعرف ماذا أفعل، وماذا أكون، ولكن كل ما أعرفه، أريد أن أكون أنا، لا أنتم.**

لم تفهم الأم مغزى الكلام، وتحسبه تقلبات البلوغ، وصراع الفتى اليافع، والتحول بين الطفولة والرجولة، وهو يقف في منطقة العمر الفاصلة بينهما.

تركته يدلف إلى الحمام الأندلسي من رخام صخور أوروبا، وراح يغيب جسده، وصوته خلف البخار الذي احتل الزوايا.

رائحة صنائع يد «بطوطة» تعم أرجاء المنزل، وتلوح للمارين، وكأنها تناديهم، فهي تبدو بدينة، ذات مشية بالعرض، من حبها لصنع ما لذ وطاب من أطعمة ومأكولات، وحب عبد اللّه اللواتي لها لأنها تأسر بطنه، وتدفىء فراشه، وتريح مزاجه السلطوي بالمسايرة، والقبول بلا رفض، حتى الموت.

وجبة العشاء دسمة، فهناك اللحم مع الجزر والفلفل الأخضر، والطماطم، المجتمعة في حساء واحد داخل صحون الفخار، مع أرغفة الخبز التي تصنعها بيديها الكبيرتين، لتكون وجبتها أشبه بوليمة شهية مصغرة، من الثريد الذي تعلمته من جارتها العربية،ابنة جبرين.

صوت الصمت، يطبق على المنزل الكبير، فلا صوت إلا صرير الأبواب التي تلعب بها رياح «الشرقي» وغبارها المسافر من الصحراء الكبرى إلى أقصى الغرب، ليحط رحاله في البحر الأبيض، وسواد المحيط المخيف، وردات فعل

الريح المقاومة لعناق الأمواج العالية، مما يزيد من كآبة الليل، المختلط مع ماء البحر، ويصبغ جدران السماء.

يصعد محمد إلى السطح، ليعد نقيق الضفادع، ويطل على شرفة منزل الجيران، فيلمح ابنة جبرين، الجارة التي في منتصف الثلاثينات، تسحب شعرها وراءها، وهو يكاد يكنس الأرض، ويغطيها بالكامل، كأنها حورية بحر، لا امرأة.

لم يكن يتعمّد النظر، ولا مسترقا للسمع، ولا يجيد التلصص، فكشف نفسه بسرعة، بفضوله واندفاعه المعتادين، فاقترب أكثر، وقفز لا شعورياً، مسحورا ومغطى على عينيه من سحر ما رأى، إلى داخل فناء بيت الجارة، ففض صراخها بكارة صمت الليل، وكسر جموده، ودغدغت ملامح الحسن العربي الأصلي، ملامح البلوغ، وعناصر الذكورة في عروقه، فالتهب جسده، وارتفعت حرارة دمه، حتى بلغ الضغط حداً كبيراً، وتبلل من عرقه المتصبب كالعجل الخارج من بقعة ماء، وكان وجلاً، ومبتهلاً، وهو ينفخ، ويزفر بقوة.

- **أووووواه يا ويلتي منك وعليك، من أنت أيها الفتى، وما الذي رمى بك إليّ؟**
- **أ.. أ.. أنا لم أقصد، ولن أؤذيك.**

حياؤه المختلط بفضوله، يصنع التناقض في شخصيته، والبراءة تكسو وجهه، فلا قناعاً يتلون به، ولا حيلة أو خبثا، يحمله، فكل ما دفعه أن غشاه السحر، وسارت رجلاه، بلا حذر أو خوف.

تلطم المرأة على وجهها، وتلتفت ميمنة وميسرة، تحس أنها مكشوفة للعالم، ولا ستر يحميها، ويواريها، وفي الوقت ذاته، لم تغطي رأسها، ولم يدق قلبها من الخوف، بل أحسن بغرابة الأمر، والمفاجأة، وغير المتوقع، وهو شعور كان يملأ المكان في هذا الوقت من الليل.

- **من أنت؟من رماك علي في هذا المساء القمري كالنهار؟**
- **أنا لأول مرة أشاهد مثلك.**
- **شاهدت نساء كثيرات، ولكنك استغربت أن هيئتي مختلفة عنكم؟**
- **والله لا أعرف إلا شكل أمي وعماتي وخالاتي، وبنات**

الحي من عمري، قبل أن يمنعني أبي من اللعب معهن.
- بريء جدا، وتبدو صغيرا، فما الذي دفعك لغزو بيتي، واقتحام خلوتي، وشق ستري؟!
- لم أكن أقصد، وسأرحل بصمت؟ خطأ اقترفته، وسأصوم وأتصدق ليغفر اللّه ذنبي.
- ما شاء اللّه، وماذا تسمي انتهاك حرمة منزل امرأة في ربع الليل، هل أنت سارق؟ وأكاد أجزم وأنا ابنة أبي، أن لباسك ومنطقك ليسا للص، ولا أنت بعابر سبيل.
- لا سارق ولا مارق، ولا عندي إلا حماقة صبي، حسبك شيء من الخيال أو الجن، ودفعه سيلان لعاب روحه، وفضول عقله.
- بلاغتك نادرة، ولسانك طليق، مثل الشعراء وأبناء البدو، فقل لي بربك من أين أنت، وهل أنت غريب على هذه الديار؟
- لا.. بل من قلبها، ومن أصلها، وفصلها، وأرفع أهلها.
- لسانك عربي، وشعرك أملح، وعيناك مدورتان، ولهن زوايا، وسحنتك بربرية، وتقول لي من فصل وأصل، ولا أقصد أنهم غير ذلك، ولكن ربما أنت مهجن ومختلط النسب، عربي بأمازيغي.
- بل على العكس أنا أمازيغي من الأم والأب، والظهر والبطن، وابن طنجة من سالف الأمد.
- ويحك، من أين لك هذه الفصاحة؟!
- أنت غريبة عن هذه الديار، فعيناك أكبر من أعين من كل ما رأيت، كأنها أعين حصان متوحش، أو غزال شارد، وشعرك كالليل، وطويل ومنسدل مثل رؤوس الذرة، أنت عربية، ولكن لمَ تسكنين في هذا الحي؟
- ألم أقل لك أنت فصيح، وابن بيت علم، فكيف عرفت أني عربية الأصل؟
- قرأت كثيرا من الشعر في مكتبة أبي، وبعضا من الكتب والمراجع التي تصف نساء العرب وملهمات الشعراء، والسلاطين، وأنت سريعة البديهة، وعندك بصيرة أبناء

الصحراء.

- **من أنت ومن أهلك؟**
- **أنا ابن جيرانك، محمد بن عبدالله اللواتي.**
- **احلف بربك، أنك ابن بطوطة والقاضي عبدالله.**
- **والله وبالله وتالله.**
- **لذلك لم يجزع قلبي منك، ولم أفزع، ولن أهزع، وقلت في نفسي ما هذا الصبي عظيم المنشأ، المتقد مثل سهيل في كبد السماء، وكالفرقد.**
- **أنت تصفين نفسك، يا....**
- **ألا تعرف اسم جارتكم؟**
- **أعرف أن هذا بيت ابنة جبرين، وذاك كل ما أعرفه، ولكن لم أسمع أمي قط تنطق اسمك، أو تتحدث بخير أو شر عنك.**
- **بوركت من أم، ومن جيرة، ومن مقامة، فلم أسمع يوما لها صوتاً عاليا، ولا هرجاً بالياً، ولا لها، ولزوجها الرجل الصالح الأمين مثيل، ولا شبيه، ولا من يقابله بالوزن، والمنطق، والعلم، والنبل، والمروءة.**
- **لقد قلت فوق ما نستحق، وأقل ماعندك من أخلاق، وكرم، وطيبة.**

أحاديث الفتى، والجارة، منهمرة مثل سح مطر أشبه بسيل شتوي، حتى اقترب منتصف الليل، وهبط النسيم، وخشي أن يفتقده أبواه، وكرر الاعتذار، واعتراه الندم على التعدي على حرمة الجار، وانسل بهدوء، ثم لم تر ولم تسمع إلا حقحقة رجليه باتجاه الجدار، مع وداع على أمل مسامرة جديدة مع الجارة، التي لم يعرف اسمها، ولماذا تعيش وحدها، وبذكائه المتقد عرف أنها ليست من هذه الديار، فلكنتها مختلفة عن أهل طنجة، ويلفها الكثير من الغموض والغرابة، وقد يعتريها الجدل.

لم يشتد عوده ليستطيع صعود الجدار، وامتطاء السقف العالي، فاتخذ من سلم في الجوار، مساعدا له على بلوغ غايته، وقلبه يكاد يسقط بين رجليه، خشية أن يسمعه أو يعرف بفعلته أحد، أو يراه أباه الذي يهوى الجلوس فوق السطوح كل ليلة، يتفكر، ويغمر عائلته الصغيرة، بشيء من الحنان الصامت، والاهتمام غير المعلن، فيقضي معهم وقت السمر، وينزل إلى حجرته، يقرأ

قليلا في أمهات الكتب، وخصوصا الفقه، والتراث، وبعض العلوم، قبل أن يسلم عينيه للنوم، والاستقياظ على أصوات الديكة، وأحيانا كثيرة، ينام على السطح، لكن يخشى أن تطوفه صلاة الفجر، ويغط في نوم عميق في الهواء العليل، ولا يوقظه إلا شعاع الشمس المصوب نحو عينيه.

على هوينى مثلما يمشي الوجي الوحل، خشية إحداث صوت، يفضحه، ويكشف سره، انسل مثل الشعر من عجين متخمر، حتى وصل إلى داره، وفي طريقه إليها، تلصص على أبويه، فرأى أمه تتوسد ذراع القاضي، الذي يبدو كجبل من حنان، على غير ما اعتاد أن يراه ويراه الآخرون، فقطع الطريق أمام ظمأ عينيه، ومضى وغار في سريره، يفرك المخدة ويقلب اللحاف، ونسي أن يمر على ما تركته له أمه من طعام، وحمد اللّه أنهم لم يبحثوا عنه، وربما شوق الزوجين لبعضهما أنساهما ابنهما.

غرق الشاب الوجل، الواقف على قلقه، في نومه، ليفتح باب الأحلام على مصراعيه، في الوصول إلى حياته التي يحلم أن يعيشها، وهو مدرك تمام الإدراك أن الحياة ليست التي نعيشها في الواقع، بل ما نتخيله، ونحلم أن نعيشه، وهو ما زال في طور التخيل.

ما إن وصلت شمس الصباح الباردة ناعمة الملمس والضوء، حتى ينهض الأب، فيصرخ بصوت مثقل من كثرة النوم:

- **قومي يا امرأة، بسببك فاتتنا صلاة الفجر، يا اللّه، إنه الشروق.**

وبصوت أنثوي فيه إبراز لخضوع المرأة لرجلها:

- **الذنب ذنبي يا سيدي، لقد أسهرتك، وأتعبتك، ولكن مجالستك، وصحبتك لا أملها، لو سهرت العمر كله، تحت رجليك، وبين يديك، ومعك.**
- **دعك من كلام الليل، ولنتكلم بلغة النهار، والصباح، فلتذهبي غير مأمور عليك، وليستقيظ ابنك المتمرد، وليصلّ كل منا لوحده، فاتتنا صلاة الفجر ولا جماعة لنا الآن، ولتجهزي لنا الإفطار، وليذهب معي، لدي الكثير من العمل، ولقد بدت عليه ملامح الشباب، والعنفوان، وثورة الروح والدم، وعلينا أن نشرف على ما يشب**

عليه، لأن من شب على شيء، شاب عليه، وليتعلم ما اتخذه أباه وأجداده من صنيع ومهنة، وعمل.

ما إن تفتحت عينا الأم وقالت جملتها، حتى هرعت كحمامة تفز من عشها، وقد تركت الباب وراءها، بسرعة، والزوج مستلق على سرير الحرير، وريش النعام، كأنه ملك يعتلي عرشه، تحاول أن تستعجل نفسها، وتتدارك التأخير، فتحضر له ملابسه، وعباءته، وتحممه بنفسها، ومن ثم تجلب الإفطار، مما لذ وطاب، من أجبان الأبقار، والأغنام، وبقية خيرات مزارع طنجة الخضراء الغنّاء.

بخدر ونصف صحو، يقوم الأب، ليوقظ ابنه، كي يبدأ المسيرة معه، وقبل كل ذلك، ليتناول الإفطار معه، فابنه أحب الناس إلى قلبه، ويحن عليه مثل أسد على شبله، ولو كتم ما كتم من مشاعر، فعاطفة الأبوة غالبة وظاهرة.

يشد الأب من أزر ابنه، ويقنعه بأن يعود إلى دروس الفقه، ويأخذه معه، ليحضر الجلسات، ويسمع الأحاديث وخصوصا من الضيوف والتلاميذ القادمين إلى مجلس والده من داخل طنجة وخارجها، يتعلمون، ويتبادلون الأحاديث، والأخبار.

داوم الفتى على حضور جلسات الفقه المالكي، والتصق بوالده كظل فارع، والأب في كامل سعادته، وهو يكمل رسم خريطة حياة الابن اليافع، ومرت الأيام المعتادة، يسلمها النهار لليل، ويسلم الليل يوما جديدا للصباح.

وصل إلى المدينة تاجر قادم من دمشق، فكسر الملل والرتابة في مجلس القاضي، والكلام المعتاد، وما إن وصل وانتهت مرحلة العناق، والترحيب الحار، حتى بادره القاضي بالأسئلة، وكأنه يداعب مخيلة ومشاعر ابن بطوطة، ويعزف على الوتر الذي يحبه، ويريد أن يؤنسه، ويمتعه:

- **مرحبا بك يا عطيل.**
- **شكرا أيها القاضي، ما زلت تناديني بهذا الاسم، على الرغم من أن اسمي الحقيقي مسعود بن جابر.**
- **من شدة حبك ألمزك وأغمزك، واللمز والغمز محرم، كما تعلم، فهل تحللني.**
- **محلل لك، ومسموح، ومحمود.**
- **حدثنا عن أخبار أسفارك، وتجارتك، ومن أين جئت هذه**

المرة.

- **الأحاديث كثيرة، ونحن جيران، سأزورك وتزورني، ونتبادل القصص، وتسمع ما يسرك، ويبهرك، على العادة والأحاديث الباهتة التي في طنجة وهي نفسها، كالأيام والليالي.**
- **لا تريد أن تحكي لنا، ومستعجل، يبدو أنك مشتاق لابنة جبرين.**

رن الاسم في أذن الشاب، مثلما يرن قضيب الحديد على الأرض، واشتعل الفضول بداخله، وأحس أن عطيلا، يمارس فن التشويق.

يعود عطيل إلى الكلام والتفاخر بتجارته، وملء حياة الناس بأخباره، ويحدث الجمع ممن حضروا مجلس القاضي، عن تجارته، وعن دمشق التي فيها الكثير من التجار العرب القادمين من المغرب، وعشاق الشرق، ودمشق التي تبادلهم الحب بالحب.

- **نسيت أن أعرف بشريكي في الرحلة وضيفكما، محمد الشامي، من دمشق، وحنا بن عبدالله من بيت المقدس.**
- **حللتم أهلا، ونزلتم سهلا وجبلا وبحراً، هل يتحدثان العربية؟**
- **ههه أضحتكني أيها القاضي.**
- **ولِمَ الضحك؟**
- **أهل بيت المقدس، ودمشق والمشرق يظنون مثلما نظن عنهم، فالكل يسأل هل تتحدثون العربية؟ نعم إنهم أعراب أقحاح.**
- **اعذرني مع كثرة علمي، ومعرفتي بالقادم والذاهب مشرقي ومغربي، وأعرابي وبربري وأعجمي، وزنجي وأبيض، إلا أنني أجهل البلدان، ولا أحب الأسفار، والارتحال، والاغتراب.**
- **معك حق، وهذه طبائع الشعوب، فنحن العرب، أهل رحيل، ونزول، ولا ننتمي إلى أرض معينة، إلا ما بها حياتنا، وعيشنا.**

- **كل من يتحدث العربية ودينه الإسلام، انصهر في حضارة العرب، ولكن تبقى جينات الأصل والمنبت، ونحن البربر، نحب ديارنا، ونختلط ببعضنا، وتغيرت هذه الطبائع، وانصهرنا معكم وتقبلناكم، بعد أن نعم اللّه علينا بالإسلام، وصرنا مجتمعا واحدا، متجانساً، مثل الفيسفساء، ولقد أسكنتك بجانبي، وليس في حي العرب، لشدة حبي لك، ولكن لم أستطع أن أجعلك تتخذ بربرية زوجاً لك.**
- **ما أقوى ذاكرتك يا أبا محمد، هذا الكلام قديم مستجد، وإخوتنا ممتدة عمرا، لكن أنا مقصر لكثرة أسفاري، وقد شب ولدك، ولم أره قبل اليوم.**
- **بالفعل أيها العربي الفطين، هذا ابني محمد.**

يعدل التاجر العربي الشغوف بالارتحال، من جلسته، ويلف وجهه، حيث يجلس ابن بطوطة، ومن الوهلة الأولى، يلمح بريق عينيه، كشهاب في ليلة ظلماء، ويدرك أن هذا الصبي سيكون ذا شأن، وعلم، وجاه، ومع التفاتة الوجه، واعتدال الصبي المتربي على أدب الكلام، واحترام الآخر، وإجادة التحاور:

- **أهلا بك يا بني، وسعدت لرؤيتك رجلا، يافعاً، وذا حضور، في دار والده.**
- **سلمت أيها العم، والجار، وصديق الأب، وبمقامه.**
- **دمت، وأكرمت، على هذا الأدب الجم، والخلق الحسن، فأنت ابن أبيك، صاحب المنزلة العالية، والنفس السامية، عن كل زلل، وغل.**

يتفق الصديقان القديمان على أن يولم القاضي، لجاره، وشريكيه، وليمة، ولكل واحد منهم خروفا، تقديراً له، وأن يجمع القضاة، والأعيان من عرب وبربر، على شرفهم في بيته الواسع، وينفض المجلس قبيل صلاة الظهر، على أن تبدأ جلسات الأحكام بين المختاصمين، والفصل في قضايا أخرى من بعد صلاة العصر، ويحضر الابن دروس الفقه والتوحيد لدى شيخ المدينة.

في صلاة الظهر، يقرأ الإمام بسره، ووراءه المصلون الذين يكتظ به الجامع الكبير، يغوص محمد بينهم، وتتلاصق الأكتاف بالأكتاف، بورع، وصمت

الخشوع، ويسرح خياله، في ما ذكره التجار، عن الأمصار، والحكايا عن البلدان، وأهاليها، فيحس بأن قبساً من حنين، يتقد به، ويحثه على التخيل، والتوق لأن يكون يوما ما، جوالاً مثلهم، لا تحده جدران، ولا أزقة، ولا بلاد أو عباد.

يحاوطه وسواسه، وقرينه، ويجعله يقطع التفكير بشغفه السرمدي، إلى التفكير بالجارة، التي زارها بلا موعد قبل مدة.

في طريق العودة إلى المنزل، بعد الصلاة، يجرجر الأب، ابنه بالكلام، ويعرض عليه مرافقة التجار، في المرة القادمة، فيكاد يسقط الابن مغشياً عليه، من المفاجأة، وتنشرح أساريره، ويبتهج، كأنه ابتلع قمرا، من شدة الابتهاج، وتغير المزاج.

لم يلاحظ الصبي على نفسه، ولا أي أحد من حوله أنه قد طرأ شيء عليه، وأن زيارته لبيت ابنة جيرين ستغيره للأبد، وتفتح شهية قلبه على الخروج عن المألوف، وسيصبح بدوياً طيلة العمر بلا بيت ولا أرض محددة ولا أوطان معلومة، ولا زوجة يسكن إليها، وقد حل قوم به، اختاروه عنوة، ووجدوا به ما يريدون، وقد وجد الذي تلبس فيه جنونا يلبي أحلامه بالسفر والطواف في البلاد.

يعرف الأب، بخبرة السنين، والعلم، ومعاشرة الناس، كيف يقرأ من حوله، ويعزف على أوتار ما يحبون.

تسخن الرؤوس من حرارة الظهيرة، وتزكم الأنوف، رائحة زفرة البحر السابحة في الأنحاء، مما يجعل الهرولة، والمشي السريع، أفضل حل للوصول إلى المنزل، حيث الظل، والخضرة، والماء المبرد في الفخار، والغداء الدسم الذي تعده الزوجة الماهرة.

ما إن وصلا حتى استلقيا، وراحا، يترعان من الماء المبرد، تبريداً للعروق التي سخنت، والجلد الذي يكاد يذوب ويحترق.

وبعد وجبة الغداء التي تجعل متناويلها سكارى، وخائري القوى، طلب القاضي من زوجته أن تستعين بإخوتها، لذبح الأغنام، وبزوجات إخوته، ونساء الحي، لتجهيز الوليمة، على أن يأخذ قيلولته المعتادة، قبيل العصر، ويعزم خاصته، ممن يؤدون معه الصلاة، عند الخروج من المسجد.

عينا ابن بطوطة، على خصومة مع النوم، والراحة، فالقلق المحتدم، مثل موج البحر في حالة المد، يدفعه التفكير، والأخبار التي تثير الشهية، وتهيّج الوجدان.

عقد العزم أن ينتظر والده، ويكون ذا التزام، والتصاق بأبيه، ليكسب وده، ومباركته لأحلامه الناشئة، من دون أن يفكر كيف ومتى، وماذا سيفعل، وقد ضربت برأسه مثل الجنون، أن يخرج للعالم، بحثاً عن نفسه، ولا يهم إلى أين.

لمعت في رأسه فكرة جبارة، أن يضرب علاقة صداقة مع كلا الزوجين الجارين العربيين، وهو يعرف من خلال قراءاته، بأن العرب، أهل كرم، ومروءة، وارتحال دائم، خصوصا البدو منهم، ويدرك كل الإدراك أن الجار هو من البدو الرحل، لا أهل الحاضرة، ويضيق صدره من الجلوس بين الجدران، والمدن المكتظة بالبشر، وسيول الزحام المنهمر.

توقظ الأم الأب مع صوت المؤذن، ينادي لصلاة العصر، فيقوم بنشاط وحيوية، يركل الطرقات، وأزقة طنجة الضيقة، والمتعرجة، يصعد قليلا، فالمسجد على تلة مرصوفة، بجوار المنزل، يأخذ نفساً عميقا من الهواء الطلق، ويجدد روحه، يدلف مسرعاً ويغوص في صفوف المصلين، ليلحق بآخر ركعة، فقد أقاموا الصلاة، ولم ينتظروا أن يؤمهم، وربما لأن القراءة في صلاة العصر ليست جهرا، لم ينتظروا أن يريحهم صوته الجميل في الترتيل.

لم ينتظر كثيرأ، فقد دعا القوم، على شرف الضيوف، وبعث إلى بقية القضاة، وأهله لتناول العشاء، وخرج إلى الفناء، حيث سوق الماشية، ليختار بنفسه الخراف السمينة، المناسبة.

وبما أنه قاض متمرس، فهو ضليع بعلم الفراسة، وقراءة الوجوه، ومعرفة الجيد من السيء، والتاجر الحسن، من الذي يغش الناس، وكذلك يعرف كيفية التعامل، ويجيد المفاصلة، والإقناع، واصطياد الفرص، مثلما يباغت الخصوم، والمتحاكمين، ويفصل بالحق في كل قضية.

استأجر غلامين لإتمام عملية ذبح الخراف الثلاثة، لكل ضيف خروف يقدمه أمامه، فهذا كرم طنجة وأهلها، ولا جدال أو غبار عليه.

أرسل لبيت أهله الكبير، كل احتياجات إعداد طواجن اللحم، ليقوم الخدام، بعمل ما يلزم، وتشرف الزوجة مع بقية النسوة، على كل شيء، وفعلا لم

يدخرن جهدا، فقد قمن بجلب روث البقر والأغنام من الزرائب، ليشعلن به المواقد، فجمره يبقى متقدا، ومحمراً لفترات مع الأخشاب والفحم المخزن، حتى أصبحت مترعة، كبحر أحمر، بعد حشوها بكل ما يجعلها تعدل عن قولها المعتاد: هل من مزيد.

عاد القاضي إلى دار القضاء، واستملت النساء زمام الأمر، وذهب التاجران إلى النزل التي تقع في قلب السوق القديم، الذي قام شريكهما، باستئجار مبيت لهم، ومن يعد لهما المأكل والمشرب، ويغسل لهما ما يرتدون، وبعد أخذ قسط وفير من الراحة والقيلولة، اعتمدا على نفسيهما، بالبحث عن حمام أندلسي، ينفض عنهما غبار وأوساخ الرحلة الطويلة من المشرق إلى المغرب، وما تكدس فوق الجلد وتراكم من طبقات من السمار، والجلد الميت.

ما إن وطأت أقدامهما الحمام، حتى غاب كل منهما عن الآخر في سديم البخار، وتشجعا على التعري، والدخول في العرك والفرك، والتدليك، لجسديهما، كأنها عملية حفر، وتنقيب في الأعضاء، ومن شدة الغسل، والخضوع للتبخير، حتى يلين الجلد، يكاد كل منهما أن يختنق، ومن ثم ينتقلان إلى الاستحمام، وأجران المياه الحارة بانتظارهما، ومن ثم يجلسان على البلاط في فناء واسع، يلف كل منهما رداء الحمام الأبيض.

وحلقا المهمل من لحيتيهما، وعانتيهما وما تحت إبطيهما، وخرجا مثلما ولدتهما أمهاتهما، وقد تفتحت ألوان بشرتيهما، وتنقت الأجسام، وخفت أرواحهما، وأحسا كأنهما يريدان الطيران، واشترا لنفسيهما، جلابيب أندلسية طويلة، وعمائم ملونة، وراحا يتمشيان في المدينة يتعرفان عليها عن كثب.

السوق دائري وهو في قلب المدينة، على غير شاكلة سوق دمشق في الأطراف، والمدينة صغيرة، ويحتضنها البحر كما يلف أو يحمي الرجل ابنته، أو معشوقته.

وجد الرجلان طنجة تجلس القرفصاء بين البحر الأبيض، والمحيط الشاسع العميق، وفي خاصرتها مضيق جبل طارق، وقفا ينظران إليه، يسترجعان ذاكرة بني أمية في دمشق، وعبد الرحمن الداخل، وقبلهم طارق بن زياد ابن هذه الأرض، وهؤلاء القوم، الفاتح والقائد، وكل ما في طنجة يتذكره، ويحفظ اسمه، حتى الجبل، وإن غاب ولم يعد من الشام التي جاء منها.

صديقهما عطيل، عاد إلى بيته، يحمله شوقه إلى زوجته التي غاب عنها أشهرا عدة، تاركا إياها لوحدها، ولو أنها تحب الخلوة، والسلوى بين نفائس

الكتب والمخطوطات، لكنها تشتاق إلى أهلها الذين تركتهم في الشرق، وتحتلها مشاعر الوحشة، وهي الغريبة في هذه المدينة الأليفة، والمعتادة على أن يحج إليها الغرباء من كل حدب وصوب، ويمرون مرور الكرام، ومنهم من يتخذها وطناً، ومستقرا، وبين أهلها الأصيلين، والقدماء.

يطرق الباب على وقع وإيقاعات لحن موشح أندلسي تحبه، فتذهب مهرولة، لتحظى به من على الباب، فلا تريد أن تضيع لحظة من دونه، وتعرف أنه تعمد ذلك، ويستطيع فتح الباب، بمفتاحه، وتفعل له ما يريد، وهي بكامل زينتها، وحضورها البهي، وقد سلمت نفسها لشوقها، وهو مستسلم لحنينه.

وقد كانت صباحا قد استقبلته على حين غفلة من أمرها، فقد وصل فجرا، وتسلل إلى فراشها، فوجده بارداً، وخاليا منها، ولكنه مليء برائحتها، العالقة بأنفه منذ أن فارقها قبل أشهر.

في قلب البيت، تسبح بين الورق، وتغرق في الحبر، وقد هم إليها يتدفق، حتى تلقفته، وانصهرت به، حتى اختلطت ضلوعهما ببعضها، وكأنها تريد العودة لضلعه الأعوج، كما جاءت حواء من آدم.

لم تصدق عيناها، وراحت تبكي، واسبتشرت بالصبي المتلعثم الذي زارها على غير عمد، بأنه بشارة خير، فلم تستقيظ شمس الفجر، حتى عاد حبيبها الغائب، وشمسه التي لم تغب عن عالم داخلها الكبير.

نفض حضوره غبار الغياب الطويل المر، وأزاح مرارته بقبلة، لم ترو الظمأ له، ولكنها بللت روحها، وراحت عينيها تضحكان بشدة، وينسكب الدمع الجميل، وقلبها يعزف بشدة، مثل طول المسافات التي كانت تفصل بينهما، وبحكم الوحدة التي كانت تسجنها.

- **عمت مساء يا جورية القلب، ونجواه، أردت أن تفتحي لي الباب، وأن أخرجك من خلوتك، إلى خلوتي.**
- **أدرك شغبك يا أميري، لقد اشتقت لك، وأسابق ظللي وخطاي إليك.**
- **لماذا تأخرت في ديوان القاضي؟**
- **لقد فتح أحاديثاً كثيرة على غير عادته، وأصر على إقامة عشاء على شرفنا، وهذا الكرم جزء من عاداته الطيبة، وجزء من طيبة هذا المكان الذي أحبه، فهم**

يقيمون العلاقات، ويتقبلون الآخرين، بسلام، ومحبة، وبصدور رحبة، كهذه المدينة التي تفتح ذراعيها للسلام، والناس،وتجعل أسوارها، تخضع لهم، وأبوابها مشرعة، وهي تقع في زاوية العالم، على غير المدن التي مررنا بها، دمشق، وبغداد، وبيت المقدس، والإسكندرية، وغيرها من مراكز العالم التي نعرفها.

- **بالفعل، صدقت، وأنت الصادق، الواثق، الحاذق، يا من سرقت قلبي، وأنا التي أسرق ولا أسرق.**
- **دعينا من كل شيء، ولأقول لك أن وجهك كان يطاردني في كل مدينة ومكان تمر به قوافلي، وأنك أجمل ما مررت به في حياتي، فأنت المحطة التي تختصر كل محطات أسفاري، وأنا بدونك أفقد وجودي.**
- **وأنت كذلك يا هبة الارتحالات، ونداء الأمنيات الصامتة.**

حالة الحب التي يعيشها عطيل وابنة جبرين، مختلفة، واستثنائية، فهو الذي عرفها، ابنة عز وجاه من أهالي الصحراء المستقرين والقادمين من شبه الجزيرة العربية، واستوطنوا بغداد، وهربوا منها إلى دمشق، بعد أن عاثت المكائد، والمفاسد بها، ولم يعد للنخبة، وأهل الخاصة والجاه والعز، أية حظوظ، ولم يعقد الحظ حلفاً معهم بأن يبقى أحد من رجالهم، بل قتلهم المغول.

نزعت عنه رداءه، وجهزت الماء الساخن، ورفعت رجليه العريضتين، وهو صاحب القامة والهامة والضخامة، وبغنج أنثوي، ادعت ثقلها، ونجحت في وضعها في الإناء، وبذراعين عاريين، فهي ترتدي قميصا، من الحرير المغربي مذهبي الأطراف، وشعر كالليل، ينسدل على جسدها، ووجه كبدر منتصف الشهر.

بعد أن ارتمت أرجل الزوج في الإناء تناثر منه الماء، وفي الغرفة التي تقضي وقتها فيها، مرمية بفوضى مرتبة، أوراق المخطوطات، وكتب مبعثرة في الزوايا، وعلى الأرائك، لم تأبه لو أصاب كنزوها التي لا تقدر بثمن، نصيب من المياه، فهي تغيب في برزخ الشوق المعتق، وفاقدة للوعي مؤقتاً.

كانت هذه الكتب، التي نجت من نهب المغول لمكتبات بغداد العتيقة، فكل مكان يمرون به، يحيلونه من جنة، إلى ماهو أسوأ من جهنم.

خرج عطيل من حرم بيته، يحمل جسده، بوهن طفيف، وكسل لذيذ، وترك روحه وراءه، وقد حل الظلام، وكسى الدجى وجه المدينة، وصبغ سماءها، ففكر في الرجوع، ليتعذر بالتعب، ووعثاء السفر، لكن باغته صوت محمد، يستعجله، ويخبره أن الجمع ينتظره، وقطع فكرته الخجولة، فلا يريد أن يحل متأخراً على الحاضرين.

خلف الباب الموارب، تقف الزوجة تودع عيناها رجلها وحبيبها، وسمعت صوت ابن بطوطة، ولم يغادر أذنها، ابتسمت، وهي خلف الباب الخشبي العالي، المزين بشيء من الحديد الملون بالأزرق، على الأطراف، وقفل ذهبي، ومن شق الباب تسرق النظر بعينها الكبيرة، والجار يصافح الفتى صاحب البشائر، ويداهما تتعانقان، بلا انفكاك، وراحا يبتعدان عن باب البيت.

لحظة وصوله، رحب كل من يعرفه، ومن لا يعرفه به، أشد وأعنف الترحيب، وشدوه إلى العشاء، لأنهم يعرفون عادة القاضي وأعيان المدينة، فطنجة كلها، تنام مبكراً، ليست كالقاهرة أو دمشق، وفي منتصف الليل وربعه، يهدأ كل صوت، ولا يبقى إلا حفيف أشجارها، وضجر محيطها.

بعد العشاء، أراد أبو محمد أن يتسامر الأحباء، والأصدقاء، فكسر القاعدة والروتين اليومي، وأعلن أنه باق في مجلسه، حتى قيام الليل:

- **اليوم على شرف ضيوفنا، نفتي لكم بأن السهر محمود، لهذا الليل فقط.**

ليرد عليه ابنه محمد:

- **أدام اللّه عمر والدي القاضي السمح، والطيب المتغافل.**

وبفطنة وحكمة الكبار، قال الأب:

- **نصف الحكمة في أن تكون متغافلا، لا مغفلا، وما يفصلهما شعرة، وأخشى أن تكون الشعرة لدى ولدي الغالي مقطوعة.**

تعالت الضحكات والقهقهات، وتبادلوا حلو الأحاديث، وسمعوا أخبار الأمصار، واستمعوا إلى قصص وأهوال لم ترد على مسمع أي منهم، وما وصل إليه

حال المسلمين، من فقر، وتشرذم، لدرجة هانت عليهم أحوالهم الصعبة، مقارنة بالبلاد الأخرى.

كعادة القاضي، من كثرة جلساته، فقد اعتاد السماع، والإنصات الطويل، ولا ينطق إلا بسؤال أو جواب، ومن ثم حكم، فأطلق أسئلته على الحاضرين، من ضيوف المتسامرين، فذي بدء كان مع الجار عطيل، فقال له:

- **أما تحدثنا عن أحوال المشرق؟!**
- **كل خير، فقد استعادت المدن هيبتها، بعد خروج المغول، والصليبين، والفقر منتشر، ولكن كما يقول أهل بيروت وطرابلس، سنحيا من العدم.**
- **وماذا عن دمشق، وعلمائها، وبغداد أيضا؟**
- **دمشق عامرة، ويزدهر العلم والتجارة فيها، ويعم السلام أرجاءها، وبارك اللّه فيها بدعوة نبينا صلى اللّه عليه وسلم، أما بغداد فبعد خرابها على يد هولاكو، فقد تناثر أهلها في البقاع، ولكن هيبتها، بلا تكلف، وادعاء، تستمدها من تاريخ العراق وعظمته.**

وبعد صمت قصير، يذكر التاجر الدمشقي محمد الشامي أشياء مهمة:

- **عمرت دمشق بمن جاؤوا إليها من تجار، وفقهاء، وعلماء، وأهل عمران، وأهل علوم الدنيا.**

انشرحت أسارير الحاضرين، واسترسل الدمشقي بالحديث، وباغته ابن بطوطة بسؤال:

- **من يحكم دمشق، وما طبيعة أهلها، وما حال الإسلام فيها؟**
- **لقد أعطيتني ثلاثة أسئلة دفعة واحدة يا بني، وكلها كبيرة وتحتاج إلى شرح وتضمين، ولك ما تفضلت به، وللسامعين، فدمشق الآن تحت حكم المماليك، الذين هبوا لنصرتها من بعد كسر المغول، ولم يقصر الناصر محمد الذي استنجد به، شيخنا الإمام تقي الدين ابن تيمية، وهب لنصرة الإسلام والمسلمين.**

يقاطعه القاضي، برنين اسم ابن تيمية الذي بلغ الأقاصي، ووصل المغرب:

- **سمعت عن هذا الشيخ فحدثنا عنه، أثابكم اللّه.**
- **إنه شيخ الإسلام، والذي حماها من غزو التتار، وطاف في شوارعها يستنجد أهلها للدفاع عنها، وأفتى بالجهاد ضدهم، بالنفس والأموال في سبيل اللّه، فاستنفر سواد الناس، وحموا أبواب دمشق، وأغلق الحانات ومكامن الفساد،ووقف مع الرعية يدافعون عن العرض والمال والأرض وحده وقد تركه ولاة الأمر والفقهاءإلى سلطان المغول «قازان» ليعلنوا له الولاء، خشية منه، وخذلانا منهم.**
- **وكيف استطاع الذود عن المدينة أمام سيل جيوش المغول؟**
- **استعد، واستعان باللّه، وراسل قازان، وأقنعه بالحجة والمنطق، وقبلها قال له**

«لو لم يبق في القلعة إلا حجر واحد، فلا أسلمن ذلك الحجر إن استطعت»

وأكمل سرده:

- **حتى إن عاد المغول ليحرقوا ويدمروا الديار، وقد اتخذ أنموذجاً، مما فعله أهل المنصورة في مصر بالتسلح بالحراب والسيوف، والحجارة، والزيت المغلي الذي يصبونه على رجال الصليبيين.**
- **هل حماها بذلك؟**
- **بل خرج إلى سلطان التتار المسلم قازان، وفاوضه مع القضاة والأئمة الذين جلبهم معه، وذكر له:**

«إنك تزعم أنك مسلم، ومعك قاض وإمام وشيخ ومؤذنون على ما بلغنا، وأبوك وجدك كانا كافرين، وما عملا الذي عملت، عاهدا فأوفيا، وأنت عاهدت فغدرت، وقلت فما وفيت، وجرت»

... وبقي الشيخ يناطح ويقارع السلطان، حتى تراجع، وعاد ضميره إلى العمل والحياة، وعاد إليه حياؤه بترك المسلمين وشأنهم، ليحسن إسلامه،

ويسحب جيوشه الغائرة، الغازية، ويعود إلى بلاده، مكتفياً بحمل إرث أهله وقومه المرير، ويترك للتاريخ محاسبتهم، وللآخرة حسابه.

وبعد ذكر الحادثة كما جاءت، ووقعت، دخل على خط الجدال، والسرد، التاجر المقدسي حنا:

- **لقد فتك الصيليبون والمغول بالمشرق، شر الفتك والتدمير، وانضم لهم للأسف من بلاد العرب مسلمون ومسيحيون، وغيرهم من الطوائف ممن خاف، أو كان مهيأ للخيانة، من حشاشين وضالين وحرافشة، وداهن، واشترك، وباع أهله ونفسه، وخان دينه وأرضه.**

وسط ذهول المستمعين وشغفهم، وأولهم ابن بطوطة، حيث كانوا فاغري الأفواه من الذهول، اعتدل القاضي بجلسته، وقد شده الحديث الشيق، والحدث الجلل، فأعاد تعديل جبته والأقروف، ومن فوقه العمامة، وراح يزيد من أسئلته:

- **وهل للمغول والصليبين بقايا؟**
- **ورد عليه التاجر حنا:**
- **الخيانة باقية ما بقي البشر، وأذيالهم وأذنابهم موجودون،وديارنا بدأت تتعافى منهم، بعد نصر اللّه على يد الناصر صلاح الدين، وقطز.**
- **ما هو حال ابن تيمية الآن؟**

فأجاب «عطيل» مسعود ابن جابر قائلا:

- **يسرك حاله، فلقد فرحت به كل البلاد، من حمص وحماة وسائر مدن الشام، وذاع صيته، وانتشر علمه، ولعلمكم لقد نجح الشيخ في فك أسر المسيحيين واليهود الذين كانوا لدى جند قازان، فكلهم من أهل الشام ومن أهل الذمة، وعاد أدراجه، وترك الشام بأسرها، وسكن مصر بجوار سلطانها.**
- **يا لها من كرامات يا ابن جابر.**
- **صدقت واللّه، ووقف بعد ذلك لكل التجاوزات،**

والتعديات على الإسلام والسنة.

- **سمعنا عن حربه وسجنه، ولقد أخبرني من يأتي من أهل الشام، عن أخباره، وفتاويه، ونحن المالكيون، نحبه، ونجل علماء المشرق.**

لم يجد ابن ابطوطة أجمل وأكثر فائدة من هذا المجلس وهذا الحديث، وارتفع منسوب الشغف بداخله، واشتعل الفضول، وعيناه تلمعان، وترنوان نحو الشرق وسحره.

وما أن انتهت القصص والعبر، حان وقت السمر، والتندر، فقد تخلى القاضي عن وقاره مؤقتا، وبدا يمازح صديقه القديم وجاره العزيز، بأحاديث لم يحظ بسماعها الجلاس، ولو أن هدوء الليل، وهيبة القضاة، تجعل الصمت سيد المكان والجلسة.

- **قل لنا يا عطيل، لماذا أطلت الغياب علينا، ولو أنك تأخرت قليلا، لأفتينا بطلاق أختنا منك، فلا يجوز أن يغيب الزوج أكثر من ستة أشهر.**
- **أعلم واللّه، ولقد تركتها لوحدها، وما صبرني وجعلني أطمئن، أنها بجوار رجل جليل، وفي كنف عزيز.**
- **وهل تطيق فراقها أيها الرجل؟ وأنت الذي نازعت وحاربت لأخذها، وهربت بها إلى المغرب؟**
- **لا واللّه، لكن شغف التجارة، والسفر، وظروف البلاد والعباد، جعلتني لا أستطيع العودة مسرعا، فالقتل والنهب منتشران، ولا أستطيع المغامرة بالذهاب والعودة أكثر من مرة، وتكاليف السفر ومشقته عالية، فلم أقو على تحمل التكلفة لوحدي، فانتظرت حتى تشاركت أنا والتاجران الشاميان، في قافلة واحدة، ومعها العتاد والحماية اللازمة، من الرجال الأشداء، والذين يشتغلون في بيع أنفسهم لحماية القوافل، ومحاربة اللصوص، وقطاع الطرق، وما أكثرهم هذه الأيام، فلقد قتلوا العشرات منذ أن خرجنا من دمشق ووصلنا القدس، مرورا بغزة والقاهرة، وطرابلس وصفاقس، وتلمسان، حتى وصلنا أقصى المغرب.**

- **كان اللّه في عون العباد، والبلاد، وكان اللّه معنا في أيام الشدائد، لنتجاز الأهوال والمكائد، ولنبقى على حالنا، فنحن في استقرار، وراحة بال، على عكسكم يامن تخاطرون بأرواحكم، وتغامرون بأموالكم.**
- **ثلثا الرزق في التجارة، ولا يجني المال إلا من يكابد.**
- **ستر اللّه أعلى درجات الرزق، والحمد للّه مستورة، بيت وولد، وزوج صالح، أحس بأني أملك الدنيا، وما علي إلا ردائي هذا وبعض ملابس، وبعض قطع ذهبية، وزينة أم محمد.**
- **أغناك اللّه وكفاك من حلاله وخيره، وبفضله عن سواه.**

بعد السهرة المتخمة بالأطعمة، وجلسة السمر الطويلة، لم يشأ التجار أن يغادروا من دون أن يتفقوا، على الخروج برحلة صيد، في ريف طنجة وغاباتها، ترفيها عن النفوس، وللأنس والمتعة.

ولم تعتد طنجة على السهر، واحتفاء بضيوفها، سهر الرجال والنساء، كل في مجلسه، حتى منتصف الليل، في مجلس القاضي العامر، ونسوا أنفسهم، وأعمالهم، ومواعيد نومهم الثابتة.

نامت المدينة وأكمل الأزواج المشتاقون سهراتهم فوق السطوح، بحثا عن الهواء العليل، والهروب إلى أعماق الأحضان، والخلوات الحلال.

هطل نور الشمس على أرجاء وأزقة المدينة، وشرعت أبوابها لاستقبال النهار والزائرين، والمتجولين.

لم يبخل الضيوف بالإلحاح، على القاضي، بأن يسمح لهم، باصطحاب الابن، في رحلة الصيد في ربوع وغابات طنجة، للتعرف عليها عن كثب، ومصافحة شواطئها وتضاريسها المتناقضة، بين سهل وجبل، وبحر ومحيط، وغابات، ووديان.

واجهتهم الهبوب، قبل أن يغوروا ويغوصوا في خضرتها، وكثافة الأشجار، ليبحثوا عما يمتعهم من مطاردة الحيوانات والطيور، وهم الصيادون المهرة، المعتادون على مصادقة النبال، وملازمتها لهم، مكرهين لا أبطال، حيث يبقوا متسلحين بها، وكأنها جزء منهم، أياما طويلة، ليحموا أرواحهم، من قاطعي الطرق واللصوص، وفي الحروب الصغيرة السريعة.

كان ابن بطوطة يسرح، يمتطي صهوة السحاب، لأول مرة يخرج لأماكن جديدة في طنجة المستلقية على زاوية العالم، ويكتشف أن العالم أكبر من بيت ومجلس والده، وأوسع من ساحات طنجة، وأحيائها، وهذا ما يصبو إليه، ويدغدغ ما في باله من أحلام مستقبلية، لم يصل إليها، ولم يكن بعد، قد عرف ما يريد، بل إنه في تيه، ومصارعة داخلية للأحلام، والأفكار، يراهق، ويرهق نفسه ومن حوله، بعدم الاستقرار، وفي طور التشكل، هو وشخصيته، وما سيكون عليه.

- **يا محمد، أناديك ألا تسمع، من أين لنا أن نصل إلى أكثر المناطق وفرة للقنص والصيد؟**

لم يسمع نداء مسعود بن جابر، فراح يقطع عودا من شجرة اعترضت طريقهم، ليغزها في كتفه من الخلف، ولكن أمه الحنون كانت لهم بالمرصاد، فقد جعلته يرتدي أثقل الثياب، وهو رداء من وبر الماعز، الذي يشبه ما ينسجونه لبيوت الشعر، فلا يمر منها هواء المحيط الكثيف، ولا المطر الغزير، فكيف بعود رفيع، ولكنه عاد من سبات الأحلام، لينتبه لهم، ويخبرهم بأنه لا يعرف شيئا، ولا يصلح لأن يكون دليلا، بل هو رفيق يريد الاستمتاع بصحبتهم، وكسر الرتابة، بنزهة معهم.

لمطاردة الأرانب السريعة، والغزلان الشاردة، كشرود ابن بطوطة، جرت أرجل الصيادين الهواة، إلى عمق الغابة، والضياع المؤقت، فدخلوا إلى سديم أخضر، غير منقطع النظير، ويخالطه لفيف من أشجار الزيتون البري، وأرضيات الوديان وبطون الهضاب، مرصوفة بالحشائش، ومعشوشبة، لدرجة أنك تضيع جهاتك، فكل المدى حولهم، متشابه، ومتشابك.

راحت أيدي الرفاق تنطلق، وتتفحص الأشجار، بحثا عن أغصان مهترئة أو يابسة، لكي يوقدوا ناراً، ويقوموا بشواء ما لديهم من أرانب، وحمام بري، ليتناولوا الغداء سريعا، ومن ثم ينطلقون نحو الشمال الغربي، ليعانقوا المحيط الذي سمعوا به طوال حياتهم، باستثناء التاجر عطيل، فقد ركب مرارا أمواج المحيط الهندي في طريق تجارته من بحر العرب إلى الهند والسند، وهو الصديق المقرب من القاضي وبلاطات الأمراء، يقص عليهم ما يمر به من أهوال، وأخبار، في البلاد والأمصار.

مع العصر، ونزول الشمس إلى ما فوق قمم الأشجار، كان عليهم الخروج، قبل أن يهبط الليل، ووجدوا أنفسهم، يدورون كالجذامى في المكان ذاته، ومن هنا بادر حنا المقدسي بالقول:

- **يا محمد أنت ابن المكان، هل تدلنا على طريق الخروج.**
- **والله أنا مثلكم لم أصل بحياتي لهذه المناطق، فلقد أخذنا السحر، وجر أقدامنا إلى مناطق بعيدة عما أعرف، ولكن لا تقلقوا، سنساير الطبيعة، ونمسك بشاطىء المحيط ونرتفع إلى الأعلى، حتى نصل حدود المدينة شمالا.**
- **هذا أمر جيد، لو كانت المسافة قريبة، ولكن يا ولدي الأمر سيستغرق وقتا أطول، فلو وجدنا أحداً، يحفظ تضاريس المنطقة، ويكون من أهلها، ويعيدنا إلى طريقنا، فهو طريق يختصر علينا المسافة من المنتصف.**
- **دعونا نخرج من الغابة، إلى الوديان، فمن عادات البربر الرعي بالسهول، وعند المغيب، حتماً سنجد من رعاة الأغنام والحيوانات، العائدين إلى قراهم.**
- **إذن لتكن وجهتنا نحو السهول والوديان، وليس إلى الشاطئ، لنؤجل زيارة المحيط، ورغم إني شغوف بمشاهدته، ورؤية أمواجه السوداء العالية، وزبده الكثيف.**

يدخل بن جابر على خط النقاش:

- **زبده كثيف كأنه حليب ناقة بعد ولادة في موسم ربيع، بل أكثر بكثير جدا.**

يرد ابن بطوطة بدهشة من الوصف:

- **لدينا هنا إبل، ولكن حسب ما قرأت وعرفت أنها تختلف عن إبل العرب، وليس سائداً عندنا حلبها، بل يستخدمها القرويون، وأهل الجبال، بالأسفار، والقبائل والتجار الذين يقطعون الصحراء الجنوبية، للوصول إلى مدن إفريقيا.**

التاجر الدمشقي كان الأقل حظاً من نصيب النقاشات طوال الرحلة، فلم يجد ما يشده في طنجة عن الجزيرة العربية وبغداد وبلاد الشام، ولم يجذبه إلا مكانتها، كأنها عشيقة للبحر، والمحيط معاً، لا يفصلها عنهما، إلا المضيق، مع بلاد يحن إليها، وكأن الحنين بدمه، يجره إلى الأمويين والأندلس، وسحرها، وأهلها، ويبحث عن وجه الشبه بينها وبين دمشق، وكلاهما عاصمتان ونواتان باقيتان من خلافة بني أمية.

تتضح عبقرية ابن بطوطة لابن مسعود ومن معه، ويتعرفون أكثر على شخصيته التي تتكيف مع الأمكنة، والأشخاص بسرعة، فعلى الرغم من الأسفار الكثيرة، والرحلات الطويلة، والتجارة على مدى عقدين من الزمن، لم يقس أحد منهم الوقت مع المسافة، وكم يحتاجون للعودة، والشمس قاب قوسين أو أدنى من الغروب، لكن الصبي الأصغر سناً، قام باحتساب المدة، مستنداً على الفراسة، وبعض معلومات من الحساب تعلمها من الدراسة في كنف والده، فلا يمكن الوصول إلى المدنية قبل حلول الظلام، ولا يمكن ضمان السير ليلا بشكل صحيح، حتى لو مروا على القرى المجاورة، واستطاع أن يتحدث مع أهلها بلغتهم، والمبيت عندهم، أو أن يستوقف أي من الرعاة في البراري، ويطلب منه أن يدلهم على الطرق السالكة، والاتجاهات الصحيحة.

استقر الجمع على رأي ابن بطوطة، وهو اتخاذ المحيط دليلا، والسير للأعلى، لحين حلول الظلام، والمبيت على موسيقى هدير موجه، أكثر أمانا، ونجاعة.

أرادوا استكشاف المنطقة ما دام أنهم تائهون في المدى، لا يعرفون أين هم، وأي جهة يجعلون وجوههم متجهة إليها.

خروج بعودة، خير من غياب دائم، على أمل أن يعودوا مع الصباح الباكر، فلذلك كانوا متقبلين الضياع والغياب المؤقت، ففرشوا في الأرض ما لديهم من فراش، ومن ثم جمعوا ما افترشوه أرضاً، بعد أن وجدوا أنهم في مكان ربما يكون غير آمن.

ووسط الجدل المشتعل، واختلاف الآراء، لمحوا راعياً يجر أذيال العودة إلى بلدته، ويعتلي حمارا شبه رمادي، قد سقط شعر بطنه وظهره، من كثرة ما يترنح الراعي برجليه وهو يعتلي ظهره، ومن شدة حمل الأمتعة لسنوات على ظهره المحدودب.

وخلف الحمار قطيع لا بأس به من الأغنام والماعز، المتمردة، فهي تمشي وتتلفت حول الأشجار التي تصادفها وتسحبِ ما تيسر من ورقها، على عكس

الأغنام التي تسير بنظام، وتدني رأسها، وكأنها عمياء خلف كبش كبير حول عنقه جرس، مستمر بالرنين، مع تحرك رأسه، وتتبع الرنين، لا الطريق.

كان التحرك باتجاه صوت الجرس، وثغاء الخراف الصغيرة، ونباح كلاب حراسة الأغنام من الذئاب والضباع في الليل، والثعالب وابن آوى في كل وقت، واعترضوا طريقه غير البعيدة عنه، وعرف أنهم غرباء، وأصحاب جاه ومقدرة، من الهيئة البهية، والهيبة.

توقف هو وقطيعه، وتقدم الرجال للحديث معه، وابن بطوطة آثر الصمت، لأنه يعرف أن سكان القرى قليل منهم يتحدث العربية، وترك رفاق الرحلة، يتكشفون ذلك، ويجربون حظوظهم.

وبعد أن عجز الطرفان على إيجاد سبل للحوار، تدخل الفتى، وكأنهم نسوا أنه أمازيغي الأصل، وظنوا أنه مثلهم لا يجيد إلا العربية، وحنا يجيد السريانية، والكردية، وابن مسعود يجيد الفارسية أيضا.

المفاجأة الأْقرب إلى الانذهال لا الصدمة، من الراعي والتجار، حيث كان ابن بطوطة يسمع ويتحاور مع الراعي، وينقل لرفاقه ما يقول.

فهم التائهون أنهم على مقربة من قرية الراعي، وأن استنتاج ابن بطوطة صحيح، فالطريق وعرة، وتحتاج إلى ما يقرب من نصف يوم، فقد جرتهم أرجلهم المعتادة على المشي الطويل، إلى مسافات ليست بالبسيطة، يدفعهم الشغف، وسحر الطبيعة الخلابة.

بكرم البسطاء، عرض عليهم الذهاب معه، واستضافتهم في قريته المتواضعة، وأقنع ابن بطوطة، بأنه لا جدوى لسلك الطريق البحرية أو محاذاة الشاطىء، لأن الأمر موحش في الليل، ولا يمكن النوم في الخلاء.

قبل مغيب الشمس، وصلوا إلى القرية، ووجدوا وجوها غير التي توقعوها، فهم لم يزوروا قرية بربرية، ولم يشاهدوا بيوت الطين بقباب كثيرة، ومكسوة بالجص، ودروبا مرصوفة بالأحجار، بشكل جميل، ولو كانت فقيرة وبسيطة، فإنها تشد وتعجب الناظرين.

بابتسامات مزروعة بعناية على وجوههم السمراء، استقبل الأهالي الزوار، وكأنهم يصافحون القادمين بقلوبهم لا بأيديهم، وبريق عيونهم الدائرية الصغيرة، يشي بسعادتهم، من قدوم الغرباء، وعلى ما يبدو أن الطبيعة الصعبة، ومنازلهم النائية، تجعلهم لا يقابلون إلا بعضهم.

السكان يعرفون العرب جيدا، ولديهم قدرة عجائبية على فهم الأمكنة، والتكيف مع الصحاري جنوباً، والمحيط الذي يحرس مناطقهم، والغابات التي تجاور سهولهم، ويتعايشون مع العرب، والطوارق، والزنوج، لكن لا يذوبون أو تنصهر عاداتهم، أو عرقهم المتأصل في جذور المغرب العربي، منذ قديم الأزل، ولا يوجد لهم أي وجود في مناطق أخرى من العالم، حتى بعد دخولهم الإسلام، فلم يهاجر أحد منهم نحو الشرق، ولم تحصل هجرات متبادلة، كحال العرب الذين انتشروا، شرقا، وغربا، ويوجدون من قبل الإسلام، في أماكن خارج جزيرة العرب.

وصل الضيوف إلى بيت الراعي الفقير، الذي أكرم حضورهم، وجعل زوجته توقد النار، ليتصاعد الدخان من قبل الكوخ الطيني، وسهروا على أصوات الأواني المتزاحمة، والمحتكة ببعضها في المكان الصغير بمساحته، الكبير ببركة اللّه، ليحسوا برحابة المكان، واحتفاء أهله.

في جلسة السمر البسيطة، افترشوا بساطا محاكاً من القطن، فرشته زوجة الراعي التي لم تنبس بكلمة طوال الليل، حتى مع زوجها ومع محمد ابن بطوطة، فقد كانت رفيعة لدرجة وصغيرة عمر، وتكور ابنها الصغير خلف ظهرها، الذي لم يسمع له صوت أيضا، وتحمله معها وهي تقوم بأعمال البيت.

عندما حل وقت النوم، كان الكرى قد بلغ مبلغه منهم، وهم يتلحفون السماء في فناء المنزل، لعدم سعة منزل المضيف، ومع بزوغ الفجر، وقبل إطلالة الشمس، انتعلوا أحذيتهم، وامتطوا صهوة الحنين وغرسوا أرجلهم في طين الأرض، وأخذوا شيئا من الذكريات الجميلة عن القرية اليتيمة المتآلفة مع غابات الأشجار، والوديان، والهضاب المنتشرة كحب الشباب في وجه ابن بطوطة الفتى الأغر.

اصطحبهم الراعي، ودلهم على الطريق، ووجدوا أنه سهل، ولكنه طويل جدا، ولم يكونوا يستطعون السير التصاعدي، لأن طنجة تفترش هضبة كبيرة، فآثروا الذهاب من ناحية المحيط، حتى وصلوا إلى مغارة هرقل، وهنا استطاع الشاب ابن المكان، أن يستدل على معالم مدينته، وأشجارها ودروبها، على غير ما كان في الغابات والقرى التي تبعد مسافة ليست بالقصيرة.

افترشوا الأرض، لتناول وجبة الغداء، مما زودهم بها الراعي الكريم، رغم فقر حاله، فقد أعطاهم شيئا من الطماطم، والخبز الثخين، وحليب الماعز،

ولحم جافا، لكن الجوع كافر، ولم يكن لديهم وقت لمد البصر، والترصد للفرائس، ولا حتى للشواء، فقد جعلوا أرجلهم تسابق ظلالهم باتجاه طنجة.

وقف حنا ومعه محمد الشامي، يتفكران في المغارة، وتبادر إلى أذهانهما، هرقل عظيم الروم، فتاريخ منطقتهم، وذاكرة أهاليهم وأجدادهم، تعرف هذا الاسم جيدا، وطرحوا الأسئلة بحزن شفيف، عن ماهية وجود مثل هذا الجبار المتكبر في أقصى نقطة في الأرض، ولتسمى المغارة التي كأنها بيت لحارس المضيق، وأردوا أن يطرحوا التساؤلات العميقة على النوارس المارة، والحيوانات وأحجار الجبل، وملح البحر.

حنا المسيحي ابن القدس، يعرف تاريخ الرومان، وهم الذين حكموهم سنينا طوالا، قبل وصول المسلمين الذين تركوا لهم حرية العبادة، بلا تضييق، ولا مصادرة الروم للمحاصيل، وغلال البساتين، لخدمة حروبهم.

عن غير قصد، فتح محمد جروح الماضي، عندما سأل «حنا» قائلا:

- **أليس هذا هرقل قائد البيزنطيين الذي كان يحكم الشام وأفريقيا يا حنا؟**
- **لماذا توجه سؤالك لي، وكأن كلماتك أشبه بمدية تعرف طريقها جيدا إلى أعماق الروح.**
- **لم أقصد النبش، بقدر ما هو استغراب، ما الذي جاء به إلى هنا؟**

يتداخل ابن بطوطة، كجملة اعتراضية، وبمعلوماته التي جمعها من جلّاس والده:

- **التسمية تعود لأسطورة قديمة أن بطلا يدعى هرقل ضرب الجبل، خلال حربه مع وحش، فأحدثت الضربة مغارة، تطل على بحر الروم، وهناك من يقول إن تسميتها تيمناً ببطولات من تتحدثون عنه، فهو حاكم الروم، وهذه المغارة أقصى نقطة في أراضي ممكلته.**

سرعان ما دلف مسعود بن جابر إلى عمق المغارة، ليكتشف ما بها، وخرج بخفي حنين، فلم يجد إلا ترابا رطباً من ضغط هواء البحر، وبقايا نورس

ميت، وعظام لفرائس ابن آوى أو الضباع، ولم يدفعه الفضول للتفتيش بها، وعدها.

امتلأت أجساد المتنزهين بالتعب، والعطش، واتأكوا على الحجارة، ودفن ابن بطوطة وجهه في كومة حشائش، ورمى جثته على الطين شبه اللزج، وترك للريح حرية اللعب بملابسه، وروحه تستقر مقاماً، قبالة الساحل، وعيناه مزروعتان في المدى البعيد، والأفق الممتد مع السراب.

صوت النوارس، وهي تعزف لأسماك البحر، جعل الرفاق المرتحلين، يعدلون عن القيلولة، والراحة المؤقتة، فأكملوا السير بعد أخذ قسط قليل من الراحة والتأمل.

كانت العودة موفقة، وصعدوا هضبة طنجة، حتى غاصوا في دهاليزها، بعدما تجاوزوا بواباتها، وسورها العتيق، وراحوا يصعدون ويرمون بأرجلهم، كأنها تركل الدروب، من شدة التعب.

تفرق الأصدقاء في وسط السوق القديم، وانطلقوا إلى أماكن سكنهم، وترافق «عطيل» و«ابن بطوطة» لأنهما يسكنان في نفس الحي، ولا يفصل بيتيهما إلا جدار واحد.

بدا الليل أطول من ساعاته، فالشغف يدفع ابن بطوطة إلى حضور جلسة والده، وسماع ما سيروي معارف والده عن رحلته الأولى خارج مدينته، وعن انطباعهم الأولي عن الفتى غض التجربة، وكبير الأحلام.

في مجلس القضاء، استمع أعيان طنجة وقضاتها، وتجارها، لتجربة العائدين من رحلة الصيد، وضحكوا كثيرا على ما حل بهم، ولم يكتفوا بالضحك، بل تندروا عليهم، وكيف أن نفراً من تجار العرب المعروفين بالرحيل، وتسيير القوافل والأسفار في الأمصار، يضيعون وسط حفنة أشجار، وفي مدينة صغيرة، يحرسها ويحدها شاطئا بحر ومحيط، ولولا وجود محمد ابن القاضي، لما عرفوا أن يتعاملوا مع الراعي الذي أدلهم، واستضافهم.

استفزاز الرحيل، واكتشاف الأماكن، كان واضحا في ملامح ابن بطوطة المنشرحة، الذي أحس بأنه هو العربي، الذي لا يحب الجلوس في مكان، ولا تحده أو يأويه وطن محدد أو أرض وسماء ثابتتان.

لم يخف التجار حبهم لزمالة محمد بن عبدالله، وراحوا يلقون على القاضي عبدالله اللواتي، وعلى مسامع الجميع، دعواتهم بأن يرافقهم الابن، ويترك

مهنة الآباء والأجداد، ويلتحق بهم، في التجارة، والسفر بين البلدان، ولو لرحلة واحدة إلى الشرق، يروي بها شغفه، وشوقه إلى الارتحال، واكتشاف البلدان.

وما كان من القاضي إلا إبداء الرفض القاطع، حتى يبلغ الابن سن الرشد، ويصحبه في رحلة الحج، ليكمل فرائض دينه، ويدخل سلك القضاء، مستكملا طريق الأسلاف.

لم يكن ابن بطوطة إلا محباً للمجهول، باحثا عن الذات، ولا ينقصه جاه أو سمو ورفعة، ولا مال أو سلطة، ولم يعرف أن من العرب بدوا رحلا، لا ديار لهم تذكر، وحواضر تتشكل منها المدن، ولم يكن يسمع إلا عن بغداد التي أحرقها المغول، ودمشق والقاهرة التي يحكمها المماليك، وبيت المقدس الذي كان يرزح تحت حكم الصليبيين، وبحسب ما يظنه أهله أن العرب هم رعاة، وأهل بادية إلا ما ندر.

وسط السوق القديم، ساد الهرج والمرج، حتى وصل الصوت إلى مجلس القضاء، بعد حي اليهود، وفزع الناس، من توغل العسس والبصاصين ومحاوطة المكان، حتى كاد الزقاق يختنق، ولاح رجل أسمر، بأنف يشبه القنفذ، وعينين حمراوين، يلبس أساور من حديد، ويعلق سلسالاً يلعب وسط صدره المتورم، وبشعر ملتو، كالطحالب الجافة.

قطع العويل، وارتطام الأرجل المنظّم، على أرض السوق، وتناثر بضائع العطارين، والحائكين، ميمنة وميسرة، أي جلسة لمن يشربون الشاي، أو يتبضعون، وحرم الصبية الذين يلهون في الأحياء من المتعة، وتزلزلت أبواب المحال، وشبابيك البيوت التي تسمّرت وتعلقت فيها وجوه النساء من داخل البيوت، يتابعن ويتلصصن على ما تيسر لهن، وينادين الصبية، لينقلوا لهن ما يحصل وسط حظر التجول، وسيادة الفوضى.

سأل رجل عابر بلسان حائر:

- **ما الذي يحصل؟**

كان سؤاله يعلو شفاه كل من في المكان، ولم يستطع أحد أن يتجرأ، ويكسر الرهبة السائدة، فخرج قاضي المدينة الرصين والمؤتمن على عدلها بعباءته المقصبة، وعمامته البيضاء، وهو أهل لأن ينوب عن أهل المدينة، ويسأل السلطات، والعبد الأسود الضخم المخيف، لماذا يجر خلفه امرأة وكل ما سحب يدها، سقط خمارها، وانكشف وجهها للعامة، وتشوح برأسها

مع الريح، لكي يعود خمارها لمكانه، ويعود ويهبط على رأسها، ويكمل سترها.

يصرخ أبو محمد بصوت ملؤه الوقار:

- **ويحكم، كيف تجر أنت وجندك امرأة ضعيفة، ولا يحق لأحد كشف سترها، لو كانت قد اغتصبت الحكم، أو سرقت ملكاً.**
- **لقد سرقت بالفعل، وجئنا بها إليك.**
- **سرقة في وضح النهار بطنجة؟ وفي ظل السلطان المريني وعدله؟ لست بقاض شرعي، لتصدر الأحكام، لأذهب وأجلس في بيتي، ولتجلس مكاني.**
- **أنا آمر السجن، وأطبق نظام العدل.**
- **ومن سمح لك بالخروج من سجنك، وقلعتك؟ ولم أرك من قبل، فأنا أحاكم كل يوم من يقبض عليهم، وأتعامل مع قائد العسس، ورجاله، ونحن في دولة العدل، ولا نرضى بالزلل، ولا الميل أو العلل، وخروجك من مكانك، لما ليس لك فيه، يخرج الحق عن طريقه، وشق ستر امرأة محصنة، نحسبه جهلا، وعدم دراية، فأدلف إلى الليوان، واصرف رجالك، فقد نشروا الفوضى، في مدينتنا، ودعهم يعودوا إلى ثكناتهم، وإلا أصدرت أمراً بسجنك.**
- **تسجنني وأنا السجان؟**
- **أحاكمك، وآخذ الحق منك، بنقض السلم، وتشتيت وتبديد الأمان، وتخويف الناس، والآن وقت صلاة، وجنودك يسدون مداخل المسجد، فلا أحد يجرؤ أن يقطع الطريق بين العباد وربهم.**

الحزم والجزم، والثبات لحين الوصول إلى الحقيقة، سمة القاضي العادل، ممنوح السلطة والضبط والفصل من السلطان، ولأبي محمد الكرامة، والمكانة، والصلاحيات، وهو صاحب العلم، والقدرة على بسط يد الشرع، والعدل.

ما إن جلست المرأة خلف ستار، حتى انصرف الناس عن التجمع، بقي رجال العرب ومحمد ابن بطوطة، ولكنهم لم يستطيعوا الدخول، فلا يحق لأحد سماع صوتها، لأنه عورة، وانتظرت حتى انتهى القاضي من صلاة الظهر، وعاد إلى مجلسه، وقد بسط الهيبة، وساد الصمت، حتى طلب من العسس أن يدلوا بحجتهم، فذكروا له أنهم قبضوا عليها بإخبارية من البصاصين الخفيين، بأنها سارقة، تصحو كل اليوم، تسابق الشمس إلى السوق، وتتخذ من الظلماء معراجاً لها، نحو أملاك الآخرين، فتدخل وتعود إلى بيتها قبل آذان الفجر، وظهور خيوط النور.

وكان آمر السجن قد وصلته تقارير من البصاصة المزروعين في الأحياء لا يراهم أحد، ولا يعرفون من هم، تفيد بحركة امرأة في متوسط العمر، ذهابا وإيابا، تجول بين محلات السوق، وأكثر ما تذهب إليه محلات حي الروم، وما بعده من حي اليهود.

واجه القاضي المرأة، التي كان صوت بكاءها الخجول المكتوم، يجعلها تتحدث بصعوبة، فقد أنكرت سرقتها، وأقسمت بأنها لم تمد يدها، ولم تفعل حراما.

وأصرت على إخفاء سبب دورانها في السوق لوحدها، وهي خاتلة، مما جعل رجال الشرطة يجزمون أنها السارقة التي تسرق من محل التاجر، وبإصرارهم، وطلبهم الحكم بقطع يدها، أراد القاضي أن ينصر الحق، ويطلب إفادة منه، وهو من أهل الذمة.

وعند حضور الرجل، نظر واغرورقت عيناه، لما شاهد امرأة خلف حجاب شفاف، تقف في حضرة القضاة، ودب الوجل في قلبه، فانتفض كالعصفور، وما لديه من حيلة، إلا الاعتراف.

طلب القاضي من الرجل قول الحق، دون أن يطلب منه القسم بغير اللّه، وأن يورد شهادته، واعدا إياه بحمايته.

- مولاي، لم أشتك سرقة أو ظلماً، لكي تطلبوني، أو يطبق لي العدل، فنحن في كنف مولاي السلطان، وفي دولة العدل والحق والشرائع.

قلة الكلام، من صفات القاضي التي تدل على الحكمة، وقوة الصبر، وعمق التجربة والخبرة، فأعطى لقلبه فرصة النظر في المطلوب للشهادة، ووضع

عينيه الحادتين كعيني صقر جارح، بعيني الشاهد، وثبّت النظر دون أن ترمش له عين، وغرس أصابع يده اليمنى في لحيته البيضاء الطويلة، وراح يسرحها ويسبّح في سره.

بعد أن طال الصمت برهة من الوقت، وقف القاضي على طوله، وفتح يديه، قابضا بيمناه على أصابعه، ورفع رأسه بهيبة، وكبرياء، ولم يوجه الأسئلة إلى الرجل الذي دلف إلى مجلس القضاة، بل إلى المرأة المقبوض عليها، والمعنّفة، فوجد عيناها تتحدثان عن ظلم ودموع رقراقة، تنساب كجدول في أرض يباب، شق طريقه صدفة، بعد يوم ممطر، نحو المنحدر.

- **لماذا تبكين يا ابنتي وما هي قصتك؟ تحدثي بلا خوف.**

هكذا بدأ القاضي جلسته، للوصول إلى عمق الحقيقة، وقد استشف مبكراً، شيئا مختلفا، وقصة لا تمر مرور الكرام على مجلسه، ولا على تاريخه الشرعي الطويل.

- **أبكي بكاء العمر، على حياة أشبه بالموت، وذل لا آخر له.**
- **ذل وأنت في دولة أمير المؤمنين؟**
- **أنا يا سيدي جارية وسبية، لا أستطع تحمل هذه المعيشة، وقد كنت حرة، وسيدة في قومي.**
- **من أين أنت؟**
- **سبية حرب من إشبيلية.**
- **نحن في أيام سلم، ولا حروب لدولة المرينيين هذه الأيام في الأندلس.**
- **حروب الدين لا تنتهي، وقد تم بيعي من يد ليد، حتى عدت إلى جوار بلادي في طنجة، وجبت بلاد السود، وبلاد العرب.**
- **من الواضح أن قصتك طويلة، وتحتاج إلى جلسة، واستدعاء مساعدين من القضاة، ليسمعوا.**

حضر قاضيان أقل من أبي محمد درجة علمية، واحد على يمينه، والآخر من يساره، وسمع الحاضرون ما أوردته الشرطة، ومن ثم سماع صاحب المحل، والجلاد آمر السجن، ذو الهيئة الغريبة، والكريهة.

نادى القاضي على الرجل صاحب المحل، بنداء أقرب للهتاف، لأنه متوار خلف باب الفناء الداخلي لقصر القضاء الفسيح.

وقف الناس يطلون من الشبابيك التي تملأ جدران المجلس، ومن بين الناس الذين توافدوا من باحة السوق، عدد غفير من التجار، وضيوف القاضي ابن جابر وحنا ومحمد الشامي ومعهم ابنه محمد ابن بطوطة.

وحضر التاجر، وطلبوا منه ذكر اسمه وسنه ومسكنه.

- **اسمي صموئيل بن إبراهيم من حي الملاح، وأبلغ من العمر 40 عاما.**

سأله أحد القضاة قائلا:

- **من حي الملاح، أأنت يهودي؟**
- **نعم، وأندلسي جئنا هربا من بطش القشتاليين، إلى عدل الدولة المرينية وجلالة السلطان.**
- **مرحبا بكم، أقصص علينا ما الذي سرق منك،فأنتم ذميون، وشركاؤنا في هذه الأرض، وحق علينا تأمين حقوقكم.**
- **لم يسرق مني شيء أبداً.**

وقعت الجملة على وجوه الحاضرين، مثل الماء البارد، على حين غفلة، وأدار القضاة الثلاثة رؤوسهم نحو بعض، ليسهل الهمس شبه الصامت، حتى تكاد تقترن مثل فصوص الثوم، وتهامسوا فيما بينهم، واتفقوا على أن يضغطوا على الفتاة، وعلى آمر السجن، ليعرفوا حقيقة الشكوى، والقضية الغامضة.

حاول أبو محمد بجهد وحنكة، أن يسرق اعترافا، أو يمسك بطرف خيط، ورد القضية إلى مفتعلها، الذي كان يجر الفتاة، في وسط السوق، ولم يجدوا في الأمر سرقة، لإقامة الحد، ولا مشكلة في خروج المرأة خلسة كل ليل.

وانهارت الجارية واعترفت بالسر الذي سال لعاب الحاضرين لمعرفته، وفك المسألة.

- **أنا أذهب لبيت زوجي، ولا لأحد عندي شيء.**

توسعت الدائرة، وكانت القضية سرقة، لتدور وتكبر أكثر فأكثر، وكأن آمر السجن قد رمى بحجرة في بركة ماء، تتسع دوائرها شيئا فشيئا، وتقطع سكون المدينة المسالمة الآمنة.

أراد القاضي أبو محمد حك رأسه، فاصطدمت يده بالعمامة وأقروفه، وأحس أن الأجواء قد زادت سخونتها، فأمر بفتح الشبابيك قليلا لكي لا يسترق العامة السمع، ووقف يحرك جبّته وطيلسانه.

دعا المرأة إلى جواره لكي يسمع منها، ولكي يساورها الأمان، ولربما كان لديها من الأسرار، ما لا تريد أن يسمعها أحد، فوجدها كجبل من جليد، قد انهار، وذابت مقدمته، وبدأ بالذوبان، ولا سبيل لوقفه.

سيل الدموع مختلط بصوتها، وزفير أنفها يتصاعد كحمم متخمرة، وتتحدث بغضب، وصوت عال، وقد كانت متكورة على نفسها، يلفها الخجل، مثلما يلف الحرير دودة القز.

هبطت المرأة على الأريكة الأندلسية، وزرعت يدها في مفرش القطن، بعد وقوف طويل، وانهمرت الكلمات:

- **أنا زوجة هذا الرجل، وقد أغراني بإعادتي إلى مدينتي، واحتواني بعد أن اشتراني من سوق العبيد، ولم يكن لي أحد سواه، ويعاملني معاملة المحب لمحبوبته، ويعطف علي، وغمرني بحنانه، لا معاملة السيد للجارية، وحسبته مسلماً، يستطيع الزواج بأربع، وأقنعني أنه أخفى زواجنا، لكي لا يهدم بيته، وأن أهله لن يوافقوا على الزواج من جارية، وقد أقنعني بأني ملك يمينه، وأهملني مؤخرا، ولم يعد يهتم بي، وآتي إليه خلسة، إلى مخدعه السري، خلف متجر الذهب، وقد حملت منه، ولا أعرف أين سيذهب ولدي ولمن ينتسب.**

قطع آمر السجن الحكاية، بلا إذن للحديث من القاضي، وقد نسي حرمة القضاء، وأدب الحديث:

- **أهو المسلم، أم أنت؟ فلماذا إن كنت يهودية ترتدين الحجاب؟.**

غضب القاضي منه فأخرسه، لأنه يرمي عليها الأسئلة كرماح الحرب.

وراح يسألها بهدوء وحكمة:

- **هل لك أن تكملي يا ابنتي، وسنطلب لك الأتاي، والماء، ولا تخافي من أحد، وستأخذين حقك، إن أثبت ذلك.**
- **يا سيدي القاضي، أنا محجبة، لأني وجدت في الستر عفافا، وحفظاً لي، فقد كنت في مدينتي عابثة، لاهية وشبه غائبة عن وعيي، بينما هنا في دولة السلطان المريني أدام اللّه سلطانه، فلم يسألني أحد عن ديني، وإن كان الدين حاضرا في كل حياة أهل طنجة، ومدن الأندلس التي يحكمها المسلمون، فقد زرت عندما كنت حرة، غرناطة، والجزيرة الخضراء، وملقة، ورندة، وقرطبة.**

رن اسم «ملقة» في القاعة الواسعة، وعادت الذاكرة لبعض القضاة الذين شهدوا الحروب مع الموحدين في دولة أمير المسلمين، الذي وحد أجزاءً من الأندلس، والمغرب العربي، واستطاع جمع القبائل العربية، وأقام دولة من قبيلته بني مرين.

سألها أحد القضاة على عجل:

- **أأنت مسلمة؟**
- **لا**
- **ما دينك؟**
- **نصرانية على دين يسوع، وأعلم أنكم تحبونه، وتحترمونه، كتقديسنا له.**

لم يدخل القضاة في جدل شرعي في دينها، ولكنهم تعمقوا في زواج مسيحية، بيهودي، إن كانت متدينة أو قد أسلمت، أو ما شابه، فعاود أحدهم طرح الأسئلة:

- **يا هذا.. كيف تزوجتها، وهي مسيحية وأنت يهودي؟**
- **لا ضير في ذلك، فهم يؤمنون بالعهد القديم لبني**

إسرائيل.

قاطعت المرأة كلامه بغضب شديد قائلة:

- لم أكن أعلم، فقد غشني، وكان يعرف لغتي، وبلادي، ويحفظ من تعاليم ديني.

لمسوا تناقضا في كلامها فتارة تدعي حبها له لأنه مسلم، وتارة أخرى تقول أنه يعرف تعاليم دينها، وتعلثمت كثيرا، لكن وقفوا معها، لأنه اعترف بأنه تزوجها، بغض النظر عن الأديان، فالحق واحد.

رد الزوج بثقة بعد ما سكت لبرهة من الوقت:

- نعم لست مسلما، ولم أكذب عليك.

وخلال سردها لقصتها، ذكرت أنها شكت في أمره، عندما شاهدت أنه مختّن، وأخبرها أن المسلمين يجبرون كل أتباعهم، على عاداتهم الإسلامية، واستطاع بخبثه، ونعومة الكلام، أن يجعل فتاة لا حول لها، ولا أمل في حياة كريمة، إلا أن تعلق كل أحلامها، وآمالها، على شاب يريد الزواج بها، ويخرجها من دوامة الضياع، والعبودية.

تأخر الوقت والحسم، وقد جاع القاضي ومن معه، ودخل وقت العصر، بقضية جاءتهم بلا موعد، ولا معرفة، وسجلوا بها سابقة لم يسبق أن شهدوا مثلها.

نادى الجند على آمر السجن ليسمع القضاة ما عنده من حجة، ويدلي ببراهينه، فتحدث بجبروت، وتعالٍ:

- كنا بجريمة واحدة، وتعددت الجرائم الآن، فلقد أنكرت السرقة، والآن الزواج بلا إشهار، إن كانوا صادقين أصلا، ولنقم عليهما الحد، فلا صك لعبوديتها أو ملكه لها، ولا زواج قائم ومعلوم.

وصل القضاة إلى أن الزواج غير مكتمل الأركان، فلم يعلن الزواج، ولم يتم على الطريقة الصحيحة حسب اليهودية أو المسيحية، وخففوا من اعتباره زنا، ولم يعتبروها مخطئة، حفاظا على السلم العام في المدينة، فلا يقام

عليها الحد، ولم يثبت عليها جرم السرقة، لتقطع يدها، واعتبرها أمة له، وتركوا لها حرية المعتقد، والديانة، ولكنها عبّرت عن رغبتها في اعتناق الإسلام، فأخبروها بسقوط حقها في الزواج، لأنه لا يجوز تزويج المسلمة لغير المسلم شرعا، ولكن للمسلم حق الزواج من ذمية من أهل الكتاب.

القضاة دخلوا في اختلاف بين إرغامه على الزواج بها، وبين تطبيق حكم الجلد، من عدمه، واختلفوا في تزويج يهودي بمسيحية، تريد الإسلام، وكان رأي القاضي أن تحريرها منه، وهي حرة إن كان قد أعتقها، بأن ينسب الولد له، ولكن لا يتم الزواج.

كان للجدران آذان، استمعت لكل ما حصل من قضية الأندلسيين، واستعجب الناس من كيفية الفصل، في مثل هذه التفاصيل الشائكة، وكيف تم تخليص هذه المرأة من براثن رجل مخادع، استغل ضعفها، وقلة حيلتها، ولو أنه أحبها في بداية عهده بها، وأعتقها، وأحسن معاملتها، كما تناقل الناس قضية التعايش بين الأديان الثلاثة، بعدل وإحسان، وسلام ووئام.

آمر السجن، لم يرضه الحكم، ولكنه انخرس مغلوبا على أمره، فالحكم ليس له، كما ليس للقضاة سلطة عليه، وهو الذي يزرع العسس، والرجال السريين بين الناس، يتنصتون، ويراقبون كل من هب ودب، ويسجلون حتى الهمس بين الزوج وزوجته.

تسربت الأخبار، وانتشرت كالنار في بقايا حقول القمح اليابسةصيفا، وزادت شهرة القاضي اللواتي، ومكانته بين أعيان طنجة، وديوان السلطان.

مرت الأيام، وتوالت القصص والأحداث الكثيرة في طنجة، ومحيطها، وتابع التجار الوافدون الكثيرمن الأمور، وانغمسوا في الحياة اليومية الهادئة، بعيدا عن صخب المدن الكبيرة التي وفدوا منها.

وأحسوا أنهم قد ارتاحوا كثيرا، وقد برزت علامات الارتياح، واستكرشت بطونهم، بعد ما كانت معدة كل واحد منهم تلتصق بظهره، ويمكن عد ضلوعه من شده نحافته، ومن تعب الأسفار، وكثرة الأعمال، والأشغال.

فبعدما استراحت أجسامهم كثيرا، وطال مكوثهم في دار المقام، بلا رحيل، أو حركة، تكورت الأجسام، ودب الكسل في العزائم.

وفي أحد جلسات السمر في ليوان بني لواتة، مرت سيرة السفر، خلال أحاديث الجلاس، فاستأذن الضيوف من مضيفهم، أن يغادروا، ويعاودوا

تجارتهم على أن يعودوا لنقل البضائع والمؤن التي تأتي من أوروبا عن طريق الأندلس، والأخشاب من غابات طنجة وفاس، لتباع في مصر والشام، وتعود القوافل، محملة ببهارات الهند، والحديد، والقطن الصيني.

سعى القاضي إلى الوقوف مع صديق العمر مسعود بن جابر، وشريكيه، وبنفس الوقت، رمى بابنه في حضن خبرتهم وتجاربهم، ليصقل، وهو لا يعلم أنه يخرجه من دائرة مهنة الأجداد، وقد أغراه حبهم للعلم، وعلوم القرآن، والجبر، والتاريخ، وتعلقهم بمجالسة القضاة وعلماء المالكية في طنجة كل ليل، يسمعون الآراء الفقهية، والأحكام والفتاوى، وقد دأب ابن بطوطة، على مواظبة التعلم، وأخذ يتعمق في دروس الفقه، وحفظ الكتاب، والأحاديث.

كانت لابن مسعود حظوة وتقدير في نفس أبي محمد عبدالله اللواتي، ومكانة وقدرة على أن يقبل منه غير المقبول من غيره، فمازحه عطيل كما يسميه قائلا:

- **بما أننا ننوي السفر قريبا، هل تسافر معنا ياأبا محمد ونترك أنا وأنت نساءنا وراءنا ونهرب قليلا لنعيش حياة العازبين بضعة أشهر.**
- **لا والله يا عطيل، فأنا ولدت في طنجة وسأموت فيها ولن أخرج حتى في رحلة صيد وأضيع كما فعل رفاقي.**

قهقهات الحاضرين، جعلت صديق القاضي، يزيد من عيار المزاح، ليقول له:

- **أنت خواف، وسأطلب من ابنة جبرين أخذ تصريح لك من أهلك، فدع عنك الأعذار، ولتشهد سحر الشرق، وتذهب للحج، وربما تعود بزوجة.**
- **لا زوجة فوق زوجتي، وأنا تزوجت العلم والقضاء، وليس لي بالارتحال، وأما الحج، تالله إن نفسي لتتوق للطواف، والسعي، والإحرام، والتكبير، وزيارة المصطفى صلاة اللّه عليه وسلامه، ولكن عندما يشتد عود ابني محمد، سنحج بإذن الرحمن إلى بيته العتيق، ومدينة رسوله.**
- **لنأخذ محمدا معنا، فهو صاحبنا، وابن أخينا.**
- **لتأذن له أمه، فنحن معتادون حتى في الجهاد والحرب،**

أن تأذن الأم لولدها، وهذه عادة وتقليد قديميين.

انشرحت أسارير الشاب، الذي يتوق للطواف في البلدان، ولكنه رفض بشدة السفر مع القافلة، وكأنه يخنق روحه من الداخل، محاولا أن يكسب ثقة والده، ومتعذرا بأنه يريد أن يكون راشدا عندما يسافر، وأن يبدأ برحلة الحج، لكي يبارك اللّه بعمره، وفي عمله، ومن ثم يتخذ له زوجا مما تختارها له أمه، كما جرت العادة في المشرق والمغرب إلا ما ندر.

وعلى سيرة ما يشغل كل ذكر عندما يصل إلى سن البلوغ، فلا يملأ عقله ويشحن فكره إلا المرأة، والتخيلات الخصبة، تعشوشب في ذاكرته، وسقاها «عطيل» بما ذكره عن الزيجات المتعددة للرجال في المشرق، يحاول جر رجله، ورمي المغريات في طريق تفكيره.

- **اسمع مني يا ابن أخي، السفر له فوائد كثيرة.**

لم يجب الشاب الذي يتدرب على الصمت، والتأمل أكثر من الكلام، وعقد العزم، على دراسة كل شيء، وتربية شغفه، حتى ينمو، وينضج، ومن ثم البدء في موسم قطافه.

سال لعاب بقية الرجال، الذين في قلب كل واحد منهم متسع لأكثر من إمرأة، لكن بعضهم لا يجرؤ، ومنهم من يمنعه حب زوجته، أو تمنعه الحاجة، أو الخوف من المجهول، وصعوبة الحياة، ويتمسك بالاستقرار، ولا يركب هول السفر، والزواج بغير امرأته، فيجعل رغباته، واحتياجاته مدفونة في قلبه.

فزع قلب أحد الحاضرين، وانتفض وانقض مثل ذئب على فريسته بسرعة، واستأذن القاضي بالسؤال، فأعطاه حق الكلام:

- **أيها الأعرابي، هل يتزوج العرب كثيرا؟**
- **نعم، ومن يمتهن التجارة، وكثير الأسفار، فلا يطيق البعد عن أهله، ولا يحتمل ألا يكون له فراش دافىء في أي بلد يمكث فيها.**
- **وهل تتزوجون أكثر من أربعة، كما حلل الشرع؟**
- **لا.. الدين واحد، لكن نتزوج ونطلق عند مغادرة البلاد، والمدن، أو ندفع إلى أهلنا، ونؤمن لهم معيشتهم،**

ويعود الزوج مرة أخرى، فحسب ما يكون عليه حال الرجل وذمته.

- **وهل هذا حلال يا شيخنا الجليل عبدالله؟**

لم يشأ القاضي الدخول في عاصفة الإحراج، وكأنهم وضعوه في زاوية صعبة، لكنه واجه الحقيقة بثبات كعادته، وبخبرة السنين، رد السؤال بسؤال، كمن يواجه سهما انطلق نحوه، برمح أطول:

- **الزواج حلال، إذا اكتملت أركانه، شريطة تطبيق شرع اللّه، في صون العرض، والعصمة، كما أنه عفاف، وستر، إن كان هذا المقصد والمستهدف.**

تنفس «عطيل» حتى طفحت رئته هواء الليل العليل، وأخرج زفيرا حارا، تسرب من بين شعر شاربه الثخين، وأسبل رموش عينيه الطوال، وراح يجبل الكلمات في فمه ذو الشفاه الصغيرة، ويستدعي الماضي:

- **لم أفصح عن فكرتي بالشكل الجيد، لكني لم أطرح شيئا جديدا، فالزواج زواج، مهما اختلفت ظروفه، وكان أجدادنا في أول الإسلام خلال الحروب يتزوجون من الديار التي يمكثون فيها، ولكنه مُنع ليس كشرع، ولكن لكي لا ينحرف المقصد، وبعد أن حل السلام، وتوقفت الحروب، ونحن بقينا في سفر دائم.**

داهم القاضي ضيفه بسؤال كسيل هادر:

- **أجبنا يا ابن مسعود، هل تزوجت في البلاد التي مررت بها؟**
- **لا نقدر على قوتك في الأسئلة الكبيرة، التي ترمي بمن يقف أمامك في التهلكة، ولكن لا أنفي ولا أؤكد ما كنت تسأل عنه، وبعض الأشياء تُفهم ولا تقال، وأنت سيد العارفين.**

تجلجل المجلس من رعد الضحكات، ومطر الأحاديث الذي سقى جفاف الأرواح، وجعلهم يمارسون ما يحبونه، في دائرة المكان، ويتخيل منهم أنه

يسافر، ويرتحل، ويتزوج ما يشاء من الفاضلات، الراقة منهن والعطيموس، والطفلة، والرجراجة، والرتكة.

انعكس ضوء القمر المتسربل، على زجاج الشبابيك الملون، وتعانق مع ظل الجالسين، ومع ضياء الفوانيس المعلقة على الجدران، وفوق المأكولات، وفواكه طنجة، والتمور.

عاد عطيل لمسلسل الإغواء، وفنه الأصيل في نثر الحكايا، وبلاغته، ليجعل مساء رفاق السهر، مترعا بالجمال، والمتعة، فهو يعرف من أين تؤكل كتف البهجة، وكسب الآخرين، ويمتلك سحر البيان، ولطافة المعشر، ودماثة الخلق، والود المحبب.

- **أدعوكم أيها الرجال، إلى التحلي بعادات العرب، الأسفار، والارتحال، فنحن بدو رحل، لا مواطن لنا، في كل الأصقاع، وأنتم البربر مثلنا بدو ولكن مستقرين، لم أصادف بعمري أحداً من نسلكم في مشرق الأرض ولا في مصر والشام، ولكن أينما حللت، لقيت من أهلي العرب، وهم على ما كان عليه من سبقوهم، من حب إكرام الضيف، والشيم، ولو سكنوا الحاضرة.**

سحب الهواء من فتحات أنفه الطويل،وراح يتفنن في غوايته:

- **لا تقف طموحات ولا أفعال الرجال عند حد أو مكان، ولا سقف يحدها، فلكم أن تتخيلوا جمال نساء مصر المجدولات الهنانات، وقوامهن الممشوق، وخفة الدم والروح، والغيلم والباهرة من نساء تونس، بعيونهن المعطوبة، وسحنتهن التي تشبه سمار القمح، ولا عن نساء الشام، السهبلة منهن، والبراقات والعطبولات، والتفاني في خدمة أزواجهن كأنهن جوارٍ، ولا عن نساء الهند وخراسان، وبياضهن الفاقع، كنورِ الشمس في عز الضحى، وإن كان الحكي عن الجواري وما ملكت الأيمان ذو شجون، وجنون، لن تستوعبه عقولكم قبل قلوبكم، ولن تقوى أرجلكم على حمل أجسادكم لو استرسلت بالحديث، والوصف، فما بالكم لو رأيتم رؤيا**

العين، واحترقت قلوبكم بما حل بها، وكأنكم في جنان، وكل ما رأيتموه وعاشرتم من نساء، عبث، مقارنة مع ما سترون وتعيشون، فيما لا رأت عين ولاأذن سمعت، من النساء الحسان، وحور الطين، من بنات آدم، اللائي خلقهن اللّه بأوصاف مختلفة، وفي كل بلد، ما يميزه عن غيره، وسبحان من خلق، وفرق بين خلقه.

ابن بطوطة كان منصتا، لم ينبس بكلمة، وكأبيه، يأخذ أكثر مما يعطي، ويشتري، ولا يبيع، فقد تزود بالكثير من الأخبار، والقصص، والحكم، من مرتادي مجلس والده العامر بالعلم، والزاخر بمناقب الرجال.

مد يد الأفكار، لتجمع ما سمعه، وتلمه، كما تكنس الريح الثمار المتساقطة، ويجمع الحطاب ما تجود به فأسه من التغول في كبد الأشجار.

روحه في حالة توق معتق، إلى أن يطلق سراح رجليها، فتسبر أغوار الأماكن، بلا هوادة، ملؤها المغامرة، والاندفاع، والدهشة، لترتقي وتشوم عن حب الشهوات، وأن يكون محركا لها.

تبدو مشاعره كطفل يركض ويلعب بحرية في عالم قلبه الكبير، فذاك الطفل يحاول أن يكبر بسرعة، يرى نفسه كبيرا، وليس بحاجة لأحد، وسرعان ما ينتابه الخوف، ويعود لطفولته، فيفكر بيومه، وكيف يعيشه بفرح، ويترك المستقبل، وكل هم هذا الطفل الحصول على قطعة حلوى، يدسها في جيب قلبه، قبل أن يراه والده، ويحرمه منها، خوفا على صحته، ولممارسة الوصاية الأبوية المعتادة.

لا شيء يبدو كظاهره، بل له الكثير من الخفايا، والوجوه الأخرى، وهكذا يمارس هذا الفتى إخفاء مشاعره، ورغباته، ويخبىء أحلامه في داخله، ويدفنها في عقله، وفي مكان معلوم، ولو أنها تتفلت،ويبدو أنه يتجلى في تخليه، وترغب هذه الأحلام بالخروج، والطيران بحرية، كفأر محشور في زاوية قبو.

وقت الأصيل حين يجتمع أهل طنجة حول بعضهم بالقرب من أبواب السور العتيقة، ومنهم من يخرج للبحر، يستمتع بمشاهدة كيف للشمس أن يبتلعها المحيط، والبحر، وكيف للمساء أن يحل سريعا فيصبغ البحر والمساء بسواده، لتهدأ الأمواج، وتطلع النجوم، ويبدأ السمر، ويركض أصحاب الدكاكين، يلمون أغراضهم، ويوصدون أبوابها الخشبية والحديدية خلفها،

ويعطونها ظهورهم، ويممون وجوههم شطر قلب المدينة القديمة، ليلحقوا بالآخرين، ويمارسوا عاداتهم اليومية، بالسهر على ضوء النجوم، وعزف البحر بهدير الموج الرتيب.

خلال جلوس الأهالي على جانبي زقاق باب مرشان، إلى باب البحر، مر القاضي ومعه حنا المقدسي، ومحمد الشامي اللذين اصحبهما من النزل، ليتجولوا في المدينة، مروا بسوق الدباغين، فكانت رائحة الجلود تحتل المكان، ولم يستطع المارون تحملها، لكن من يعمل في السوق اعتاد عليها، وأمسى لا يعيش من دونها، ويتعطر بها.

بعض من الدماء المتبقية على الجلود، تتطاير وتعلق على جدران المحال الصخرية، وعلى أطراف السور، وملح البحر المترامي في كل مكان، ليرش عليها، يلمع حتى مع ظلمة الليل، وخصوصا الأحجار المتكلسة منه، كأنه ماس وياقوت كريم مبعثر بالمجان.

رائحة جلود الخراف الصغيرة، أقل وطأة وقسوة على الأنوف، وطرية لا تحتاج إلى عمل كثير، ولكنها الأغلى فقد اشترى القاضي من أحد الدكاكين فراء منها، لخراف بربرية رمادية، وأحب التجار ملمسها، ووجدوا أنها مميزة عن صوف وفراء الخراف الشامية والنجدية، ووجدوا أيضا فراء للخراف الأندلسية ناعمة الصوف، وشديدة البياض، كأنها حرير مكنوز، فعزموا النية على شراء كميات منها، لنقلها إلى الشرق.

أراد والد ابن بطوطة أن يقدم ما يستطيع ويخدم الأصدقاء الجدد، وفي نفس الوقت أن يتحدث بحال ابنه غريب الأطوار، ويسمع منهم.

- **أيها الإخوة إن بداخلي هما يورقني، ويكاد يسيطر علي، كما تسيطر رائحة الموت والجيف، على هذا المكان.**

وبادره حنا قائلا:

- **خير إن شاء اللّه يا أبا محمد؟!**
- **إن ابني محمد، لا أعلم ما به، كثير السرحان، والشرود، ويتكاسل عن الحركة، وقد زاد وزنه، رغم أن هذا السن هو وقت احتراق، فيحرق الشاب كل ما به من شحم، ويبدو كالعود، من كثرة حركته، ونار البلوغ، وتوقدها**

بداخله.

- **ربما عليه السفر، أو عليك تزويجه.**
- **كيف أزوجه، وهو في السادسة عشر من عمره.**
- **هل سن الزواج عندكم يتأخر؟ فقد سمعت ورأيت زيجات لفتيات وفتيان بعمره وأصغر.**
- **نحن عائلة معروفة بعلمها، ومشهورة بعمل رجالها في القضاء، وإتقانهم لعلوم الشرع، وفقهم.**
- **وما الضير في ذلك؟**
- **سيقال إن آل لوات، قد زوجوا ابنا لهم، قبل إتمام علومه، وقبل عمله، وليس بمعيل، ولم يبلغ الرشد، وكلنا قد ارتبط بزوجه، وفتح بيته، بعد إتمامه للعلم.**

كان صوت الشيخ الفقيه خاثرا، متثاقلا، كمساء طنجة الصيفي الرطب الحار، فتكاد الرطوبة تنخر في كل ما حولها، وتصيب العالم بالاكتئاب، والاختناق، وتثبط العزائم.

كان يجر صوته، كراع يغني حزنه الخفي، الشفيف، للفضاء، ويسبح باله في همه.

راح المقدسي يهوّن على الشيخ الطنجي، ويطمئنه عن أحوال ابنه، ليبلغه أن هذه فورة الشباب، وعنفوانه، فكل فتى، يراهق بين الحلم، ويحس أنه الأقوى، والأقدر، ويريد تجاوز زمنه، ويعشمه في أن ابنه سيكون له مستقبل، خير من أبيه، وأهله، فهو فتى حالم، وصاحب حجة، ولسان بليغ، وقوي الإرادة، صبور على الألم، وغير متسرع، ومندفع نحو حلمه، وليتركه يتشكّل، كيفما شاء اللّه، لا كيفما يشاء تاريخ عائلته، ليبقى حبيس طنجة، وأسوارها التي شاخت أمام الزمن، وتكسرت، وانهارت أجزاء منها، كما تسقط أسنان الكهول.

رمى حنا كلماته على مسمع القاضي، وقطع صوت قادم من قلب السوق، رميه، ولم يتذكر أحد الصوت، وعندما أقبل صاحبه، ببراطله الطويلة، عرف القاضي أنه اليهودي الذي حاكمه قبل مدة، من ملبسهم الذي يتميزون به، ولم يعرفه من وجهه الذي يشبه مغارة في جوف جبل، تلفها الحشائش البرية العشوائية، كلحيته وشعر رأسه الذي باتت تميل أطرافه للصفرة، كأنها رؤوس ذرة، من شدة تعرضها للشمس.

- **ماذا تفعل هنا يا بني؟**
- **تناديني بني، وأنا الذي كنت المذنب المجرم؟ والحمد للّه قد عدلت عن خطاياي، وتبت عن خطيئتي وأتممت زواجي بالتي حكمت علي بها، وكان حكمك حق العدل، وعدلك حقيقة.**

أقبل الرجل، وتعلق بعباءة القاضي، ليحضنه، كما يعبر أهل طنجة عن حبهم، وكسر هيبته، ولم يكتف بالانحناء أمامه، وإلقاء التحية، ولم يراع مقامه، وكانت رائحته، تقتل من يشمه، ويمر بجانبه، وكأنه خارج من فم كلب مسعور، وعض أبو محمد على أطراف شفتيه، كمن شقوا صدره، فلم يرد أن يصرخ، ويعنّف هذا الرجل الشبيه بكومة نتانة، ويسيل الكذب منه، مثلما يسيل الماء من تحت القش.

لم تكن هناك علامات تدل على التوبة، وحسن العمل، بل إنه يبدو أنه لا يستحم، والقاضي والعالم المسلم، والتاجر المسيحي المقدسي، يعرفان أن كل أديان السماء، تحث على نظافة البدن، والقلب، ولكن رائحة روحه وخبثه، وعدم اغتساله، تجعله ذميما، متعفناً، وجلود الأغنام رائحتها أرحم من رائحة جسده وجلده المتعفن، وثيابه كأنها غيوم من سموم.

كفكف محمد الشامي الرجل المدعي للمحبة، والمرائي، وسحبه من الخلف، وقد أطبق أصبعيه على أنفه العريض، غير مستح منه، وغير آبه بمشاعره، وأبعده عن الشيخ الجليل.

- مالكم تبعدوني عن شيخي، وأنا الذي جئت إليه شاكرا سعيه، معبرا وممتناً لهدايته لي لطريق الصواب، وقد أتممت ديني بزواجي على العهد القديم عهد موسى، أفلا تؤمنون به يا أمة محمد؟

لم يرد عليه أحد، وإن كان كلامه عسل في سم لا يُرى، وقد حن الشيخ عليه، ورأف به، وخجلا من أن يعبر عن رأيه، رحب به، وطبطب على استحياء، وربت على كتفه.

الرجل المدعو صموئيل بن أبرهام، يمارس ابتهالاته في عرض الطريق، حتى تجمع الناس حوله، وظنوا أنه يرقص، أو يغني، ليطرب ويمتع من حوله، واستغربوا كيف أن هذا الأهبل، البهلول،الذي بلا جاه ولا ترف، يشغل، ويعطل طريق قاضي المدينة، صاحب الهيبة، والإطلالة البهية.

تجسدت أمام الحاضرين كل أشكال التواضع بمعناه الحقيقي، والاغتراب الحقيقي عن الدين والشرائع، لمدعي الفضيلة.

صموئيل يمارس مهنته المعتادة، وهي التحايل، في أن يشتري الجلود المدبوغة بالجملة، ويشكي ويبكي، للباعة الصغار، ويخاطب عواطفهم، ويبخس الناس أشياءهم، ليكسب ما يستطيع لشراء جلود الماعز والغزلان، والخراف، ليرسلها إلى أقرانه من تجار الجلود، والأقمشة، في الأندلس، والذين يعيشون في أراضي الدولة المرينية، أو في المدن الأندلسية المزدهرة، وفيها الخير الوفير، ويحب أهلها ارتداء أجمل الثياب والأحذية المصنعة بأفخر الجلود، فتباع بأغلى الأثمان، ويشتري أحيانا جلود الأفاعي، والتماسيح والثعالب والذئاب، التي يتخصص في صيدها العرب، وأهل أفريقيا، ويزدان سوقها في بلاد أوروبة ويحبها ملوكها وأعيانهم، ونساؤها المترفات.

صمت المكان، وهدأت أرواح من فيه، وقد تعبت أيدي الرجال التي تبدغ، وتصبغ، وتفرش وتلم، الجلود، بخفة وإتقان، كما يسحب الذباحون السكاكين على رقاب الخراف، من دون أن يتحسسوا مكان الذبح، أو يضعوا أعينهم فيها.

أكملوا طريقهم، وغاصوا في زحام المتجمهرين، ورموا خلفهم، البهلوان، والدكاكين المظلمة، لا تروي عطشها للنور، والمصابيح المتواضعة المتراشقة على جنباتها، وتبقى وحدها مهجورة، في ليل طنجة، الذي لا يعمل به أهلها، بل ينصرفون إلى الحياة.

مروا من أمام بيت مسعود بن جابر، وكما يعرفونه في طنجة باسم «عطيل» وزوج ابنة جبرين، وجار القاضي والد ابن بطوطة، كما يناديه الصبية، الذين غادر ملاعبهم، وغادر طفولته مبكرا، يتبع ويتحسس طريق أحلامه التي لم يكتشفها، ولم يعرف ما يريد، ولا ماهية هذه الأحلام، وهو في حالة شغف وأشواق مستمران كدودة القز داخل شرنقة، على أطراف شجرة توت.

في داخل بيت عطيل، كان النقاش محتدما، بين التاجر العربي، صاحب التاريخ غير المعلن، والجوّال في الأمصار، يتعرف على الشعوب، والحضارات، وزوجته ابنة التاريخ العريق، وصاحبة المخطوطات، والأسرار.

مروا بالجدال على قضية الشيخ أحمد بن حنبل، ومسألة خلق القرآن، وما فعله الخليفة المأمون، وأطالوا الكلام في سيرة السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، تلك التي شقت طريقا للحج من الكوفة إلى مكة، وكيف كانت تعين الخليفة على حكم المسلمين، وتكبّر من شأن العلم، والأدب، واختلفوا في

من يحب زبيدة وابنها الأمين، ومسعود الذي يعتمد الاستماع، وتقصي الأخبار من الأسفار، وهو الذي يحب ويجل المأمون، لا زبيدة ولا ابنها الأمين.

وقفت ابنة جبرين العزيزة على قلب زوجها الذي أحبها كحب العرب للشعر والكرم، ويصارح بحبها، ويناديها مولاته، وطلبت منه أن يعتذر لها، ويقبل أن يكون رأيها السائد الكامل الذي لا بعده، كما أن ما تقوله هو الصواب، لا يقبل الخطأ، ورد عليها بحنكته ودعابته المعتادة:

- **يا مولاتي، وسيدة الماضي والحاضر، كل ما يخرج من فمك وقلبك صواب في صواب، وغيرك الخطأ، فلا تقس على محبك ضعيف القلب أمامك.**
- **لا تأخذني بكلامك المعسول، ولا تسايسني، وقارع حججي بالحجة، ولا تعتمد على أخبار القوافل، وأهل القيل والقال.**
- **لقد تجاوزت لغة الحوار، وأنت الخصم والحكم، وكالعادة في النقاش تتحولين إلى امرأة أخرى، غير تلك الوديعة، بين يدي وفي أحضاني.**
- **لكل مقام مقال، وهناك تتعطل العقول، والقلوب، وينصرف الرجل والمرأة، إلى ما بداخل الروح، إلى الفطرة، إلى احتياجات كامنة ومزروعة فيهم، وتختصرون يا معشر الرجال، النساء في هذا الأمر، وهذا انتقاص، للأسف تساعدكم عليه النسوة أنفسهن، ويبحثن عن إنصاف.**
- **على رسلك يا حبيبة القلب، ودعك من هذه الآراء، والعناد، فأنا أحترم علمك، وهذا ما يأسرني، قبل حسنك الأخاذ، غير الموجود في شرق الأرض ومغربها.**
- **على ذكر المشرق والمغرب، يساورني سؤال إذا سمحت لي.**
- **أسمح، دون أن تستأذني.**
- **لماذا أتيت بي إلى أقصى نقطة في الأرض، وهربت بي إلى هنا، ولم نذهب إلى الهند أو مكة، أو حتى دمشق.**
- **لأني أريد الهروب بك عن العالم كله.**

قالها وعيناه تضحكان، وقلبه يرجف من شدة الخفقان، وقد كان صادقا، لم يكذب، فقد خاف عليها، وخشي ألا يستطيع حمايتها، من وصول عملاء المغول، وأعوانهم لها، وغيرهم من الفرس الذين يريديون المخطوطات التي لدى أهلها، ويقضون على أعيان بغداد، وأهلها الأصليين، وقد ضاق الكلام بصدره، وكان يقول لها، إنها فترة سفر ورزق، وسيعود لأخذها، ووجدت أنه مقيم، ولا ينوي تغيير إقامته.

بكلمتين من الزوج المحب، ونظرات العيون إلى بعضهما، انطفأت عاصفة الأسئلة المفتوحة، والجدالات العميقة، وسكنت روح الزوجة المضطربة، في الليالي الموحشة، وراحت تتضاءل، أمام عظمة الحب، والزوج المعشوق، وتسكن إلى ضلوعه العوجاء، تبحث عن مكان لها، في قلب قلبه.

انسدلت فأرخت قواها، وصوت جواهرها التي تطوق صدرها، يفض بكارة الهدوء، وهي تصطفق ببعضها، وتحرك يداها وتزرعمها بقوة في صدر ابن جابر المستلقي على ظهره، وبعد المعركة، خلد إلى نوم لذيذ، بينما الزوجة، تحرس نومه، ونسيت أن تنام، وهي ترمق بعينيها الواسعتين، المحاطتين بشطآن سوداء من الكحل، وجهه، وتسأل نفسها التي تصارعها، في كر وفر معها:

- يا ترى، هل لمست هاتين الشفتين الصغيرتين مبسما غيري؟ هل عانقت هذان الذراعان امرأة قبلي أو بعدي؟ هل تطوّق بحرارة مثلما تتطوقني؟ هل هذا الحضن الواسع في المكان الضيق، متسع لغيري؟

في لحظات الضعف تتغلب شخصية الأنثى على ابنة جبرين، وتطرح بخجل على نفسها، أسئلة الغيرة والشك، ولكنها تحاربها، بثقة المرأة القوية، العارفة، المشبعة بالأمان، فلا تقوى ولا ترتضي لكبريائها أن تسائل زوجها، ولو بالمزاح.

وهي تلتصق به، في أقرب نقطة إلى قلبه ونبضه، تحس بأن المسافة هائلة بين ما تشعر به، وبينه، فكم هو بعيد، رغم قربه.

في منزل القاضي، كان محمد الشامي وحنا المقدسي يتسامران، ويتبادلان أطراف الحديث مع العالم الجليل، وبعد ذلك تناول الضيفان العشاء، مع مضيفهم، وابنه، من يد الزوجة المخلصة، وربة المنزل، فقد تناولوا ما يطيب

من المأكولات، وامتلأت بطونهم بالدسم، حتى نسوا صديقهم النائم والمحاصر بين أذرع زوجته.

وجد القاضي أن ابنه قد عاد إلى دروسه، وقد أثر ضيوفه فيه، وراح ينشغل بالسهر في مكتبة العائلة، وبين كتب والده، منتظما ومواظبا على العلم، تحيطه السكينة، والمحبة.

رأى في الكتب سفرا وارتحالا بين الأزمنة والأمكنة، بلا حدود أو قيود، ولا غزاة، أو قطاع طرق، أو قطاع أفكار، ومانعي طموح، ومحاربي الحرية.

سافر ابن بطوطة مبكرا، وهو في السادسة عشر من عمره، بين الفلاسفة، والشعراء، والعلماء، والمؤرخين، وقرأ وكأنه يرى ويسمع، كيف توالت الدول، وتغيرت الدويلات، والممالك، وشعر بحنين شديد، عندما قرأ لامرئ القيس يصف الخيل، فتخيلها غير الخيول التي في هذه الزمن، وكيف هي الأشجار والوديان، والجبال في المعلقات، وكيف هي دمشق عاصمة الأمويين، وبغداد التي بناها العباسيون، وكيف لفلاسفة اليونان هذا الفكر المنطق والمتقد، حتى وصل شعاعه العرب، وكيف بنى العرب الأندلس، وحضارتها، ويكاد يفصله عنها جبل، ومضيق وبحر أبيض.

غادر المكتبة، ليدخل في نومه، كي لا يتأخر عن درس الفقه في الجامع الكبير، ومن ثم يلحق بمجلس والده الذي يقصده كل من يأتي إلى طنجة، بل هو مقصد الناس، وحاجتهم، فيكابدون مشقة السفر، والرحيل الطويل، ليصلوه، ويأخذوا قبسا من علمه، وعلم من يحضرون إليه.

توالت الليالي خلف بعضها، وزاد علم ابن بطوطة، ومعرفته بأحوال العالم، فقد شهد زيارات الوفود إلى الدولة المرينية، وبلاط السلطان الذين حقّق الأمن، وسد ثغرات الدولة في المغرب، إلى حدود الصحراء، وامتد الأمان إلى طرابلس، وجنوبا باتجاد بلاد السودان، وبمحاذاة المحيط باتجاه فاس، ولم تكن الأندلس ببعيدة فقد أضفى بظل عدل سيفه، وحكمه على ممالكها، وكان الاستقرار سيد الحال، وسيد حالة ابن بطوطة.

في صباح من صباحات طنجة اللطيفة، وفي يوم جمعة، وقبل أن يصعد عبدالله اللواتي إلى منبر الجامع، ومن ثم يؤم المصلين، وجد رفاقه مقبلين عليه، وقد أخرجوا أمام ساحة المدينة خيامهم وخيولهم وبغالهم، تجهيزا للرحيل، بعد الصلاة، ووداع الأحباب.

انسكب الخبر على وجه ابن بطوطة، كانسكاب الماء الحار، فاحمر وجهه، وخرجت عيناه، وتطايرت نظراته، وفزعت أفكاره، والحال نفسه على وجه ابنة جبرين التي أخذت تبكي، وترتب أغراض زوجها، كمودع لآخر مرة، كأنه ذاهب إلى الموت، ولن يعود للحياة الدنيا، ولن يرجع إلى بيته وأهله، وسيبقى حضنها باردا، ومن دونه ستعيش العمر، وحيدة، مكسورة، يتيمة الأهل والزوج والوطن.

كانت الخطبة تدور حول الوفاء، وكيف ساوى الإسلام بين الأنصار والمهاجرين، وكيف أن أهل المغرب كله أصبحوا مسلمين من بربر وعرب، وحتى يهود ومسيحين، يجمعهم العدل، والسلام.

لم يستطع ابن بطوطة تحمل فراق الذين غدوا مثل الإخوة له، وقد أصبحوا وطنا له، وخلصوه من حالة الاغتراب التي يعيشها، فأفلتت دموعه من محاجر عينيه، واندلقت على إناء الوجه، فكأنه يسابق ابنة جبرين عن غيب، على البكاء، والحزن، وتأبط صبره، لأن لا تهرب روحه منه، وتذهب خلف الغادين.

حدّق في القافلة التي خلفت وراءها الغبار، وتشق طريقها وتتوغل في قلب شمس الظهيرة، حتى كادوا لا يستطيعون النظر إليها من شدة الحرارة، والشعاع المنبسط مع الأفق، وراح يسأل نفسه لماذا يعتمدون على البغال، ويتركون الجمال، ولم يتركه فضوله، ليسأل والده الذي احتضنه، وفهم مغزى حزنه، وأخذه إلى البيت، ليخبره أنهم اعتادوا على أخذ البغال وبيعها في الأسواق التي تصادفهم فهي مطلوبة في تلمسان، وطرابلس، وفي المدن الصحراوية تقلّ الحمير، وتكثر الإبل، فيقايضونها بالجمال التي يبيعونها بالذهب النفيس في القاهرة ودمشق.

تمعّن الأب في ابنه، وفي فطنته غير المعهودة، وأيقن بأنه لا يشبه أحدا من عرب وبربر، في هذه الديار البسيطة، والمستقرة.

ما إن تناولوا وجبة الغداء، واللبن الخاثر، وخبر الشعير الأسمر الثقيل مع إدام الخضروات، المطبوخ مع لحم التيس، حتى شعر الأب برغبة جاحمة في قيلولة، تحت فيء جدار المنزل، ووجد محمد نفسه جالسا ومحاصرا من أمه، ليساعدها في أعمال المنزل، وتعيد إليه الكلام ذاته، برغبتها في تزويجه، وألحت عليه أن يأخذها للحج وزيارة بيت اللّه وقبر الرسول الكريم.

هرب بصعوبة بالغة، من قبضة أمه الشديدة على ابنها المحبوب، إلى المكتبة، وغاص في بحر الأوراق، والكتب العتيقة، حتى كاد يغرق.

في آخر الليل، لم تفارق صورة القافلة عيني الشيخ القاضي وتفكيره، وأحس بأنه يفارق الأصدقاء، لآخر مرة، وليس كما جرت العادة، وقد كان يفارق «عطيل»، وغيره من الزوار، في عز الحروب، والقلاقل، والآن في وقت الاستقرار، والسلم، لا يجد نفسه مرتاحا، فينادي على زوجته، لتطمئنه، ولتحكي له حكايا الحي، وتزيد من حزنه، عندما تصف حزن جارتها، التي اجتمعت نساء الحي على تهدأتها، والترويح عنها، وتسليتها، وعجزت كل محاولات الرقص، والغناء، والنميمة بين النساء، أن تنسيها وداع زوجها، وهي تمسك بقميصه، وتمرّغ أنفها به، من أول الليل حتى آخره.

وزادت الطين بلة، فقد حرثت الشجن في أرض روحه وعقله، وفركت الجرح بملح ناعم، حتى دفقت عينه دمعة كبيرة، هبطت على لحيته الطويلة، وترقرت، وتدحرجت، حتى سقطت على يد زوجته التي تحضنه، التي تحاول عبثاً التخفيف عنه، ومسحت الدمعة بريبة، وخوف، من هيبته وقوته، وبلعت لسانها، الناشف والمتلعثم، وقلبها منفطر ومقسم، بين شجن الزوج القوي، والابن المحيّر، والجارة المفجوعة بلا فجيعة، وكأن أرواحهم وحزنهم المشترك يناجيهم في هذه الليلة.

خرجوا وقد يعودون، وتركوا وراءهم القلوب متكسرة، والدموع منصهرة، وحمم براكين الأرواح ترمي بشررها، وتحول قلب طنجة وحضنها الضيق الذي يتسع للعالم إلى مقبرة للحزن.

ابنة جبرين المفجوعة، تئن كخنساء العرب، وحضنها خال، وبارد، فهذا المكان الذي يعتبر الأضيق في العالم، كان الأكثر اتساعا من كل الأماكن التي جابتها وهي هاربة، ومر بها زوجها في ارتحالاته.

والقاضي أبو محمد الذي مرت عليه مصائب ونوائب في القضاء، ولم يهبط عزمه، أو يهن، ولكن الفراق هذه المرة جعل وجهه المستطيل، يرتخي، ولحيته المطرزة بنور الشيب، تكاد تسقط على الأرض.

ومحمد الذي يتكور على نفسه، ويدس رأسه بين ساقيه، يضغط بركبتيه بشدة، على صدغيه، لكي يخف الصداع، والتفكير، ويسد سيل الألم.

سجن أبو غريب 2015

- توقف عن الهذيان، والقصص المملة، لقد أوجعتني يدي، وأنا الذي كنت عظيما وصاحب علم، أصبحت

كالأهبل، أصدق مخبولا وجاهلا.

- **إن كنت تعبت فاسترح، ولكنك كنت مندمجاً، وقضينا الليل والنهار، وأنا منفلتٌ في الإملاء، وأنت غير منزعج أو معترض.**
- **للتسلية لا أكثر، فلا أحد عندنا، والوقت لا يمر، فكأني أشاهد فيلماً عتيقاً، ولكني انتقلت من ملل إلى ملل من نوع آخر.**
- **أنت تكابر، وقد أكون أسهبت في وصف طفولة الصبي، لغاية في نفسي.**
- **لتذعن لطلبي، ولنتوقف قليلا، ونادي على سجاننا، يجلب لنا ماءً نسكبه على هذا الخبز اليابس والمتعفن، لنسد جوعنا.**
- **أنا جائع، ولا يكفيني هذا الخبز.**
- **اخرج لتجلب لنا شيئاً أفضل، فأنت تمتلك الخروج والدخول من دون أن يراك أحد، كما تدعي.**
- **لا ادعاء بلا مقدرة، ولا سلمني اللّه إن كنت أستطيع ولم أفعل.**

أراد العجوز اختبار الراعي، فهو يظن أن ما يراه في أفلام السينما، من قدرة الجن على الاختفاء، وجلب ما يريدون، واعتمد على كلام من يدعي أنه بداخل الراعي، ولا يعلم أن الجن لا يملكون هذه القدرات الخارقة والسحرية، وكتب وراءه وأفرغ ما يقول بالحرف، فهو حكاء ماهر، والطبيب العجوز دقيق التدوين.

لم يأتهم أحد، وبقيا منسيان، يسبحان في هدوء السجن شبه المظلم، إلا من صوت قضم الخبز بأسنان الراعي، وتوسد الطبيب طوبة وضع عليها قميصه، وغط في سبات لا مناص منه.

مرت الساعات كأنها دهور، وهما نائمان في كهفهما، حتى استيقظ الفتى، ولكن هذه المرة الراعي هو الذي استيقظ، وليس ابن بطوطة.

وراح يشكو من رأسه، ومن دوار شديد، وثقل في الجسد.

- **أيها الشيخ، هل تساعدني على الحركة.**

- **ماذا تريد، اتركني وشأني.**

انتبه إلى أن الصوت فيه اختلاف، وأن هذه هي الشخصية الحقيقية، غير المختبئة في داخل الجسد، واكتفى بالنوم على الجانب الآخر، تاركاً رفيقه يئن، ويعود إلى نومه، فيتردد صوت شخيره في ردهات غرفة السجن الكئيبة.

مرت الأيام وابن بطوطة يحاول جاهدا إقناع العجوز بالعدول عن رفضه التدوين، واستكمال المخطوطة، وبصعوبة بالغة استطاع حارس السجن، تدبير أوراق كافية.

- **لقد وصلت الأوراق، فلا ينضب حبرنا، ولا تتوقف مخطوطتنا المقدسة.**
- **اسكت، والله لولا التسلية، لما كتبت لك حرفاً، ولن يفنى عمري، وبعد كل هذه السنين من العلم والخبرات، أصبح كاتباً عند راع أبله، ويا ليته كامل الأهلية.**
- **إن مهنة الورّاق قديما مهنة كبيرة وصاحبها ذو شأن ومقام.**
- **في زمننا، لا قيمة لها.**
- **ما تخطه يداك، لغز العالم، وسر الوجود والخلود.**
- **خرافة للتسلية، ولو أني صدقتها، نظراً لحبكتها، كما نصدق الأفلام والمسرحيات، فلتدخل في صلب الحكاية، ولتستعجل في سردك، فربما يطلقون سراحنا، خلال أيام، فتموت حكايتك.**

استكمل الرفيقان ما لديهما، وتسارعت وتيرة السرد، وتسللت الأحداث إلى سطور الأوراق البيضاء، وتدحرجت عليها، تساعدها نعومتها البالغة، وشربها للحبر، وبراعة الطبيب الذي اعتاد على الكتابة السريعة، والخربشات والطلاسم التي يجيدها الأطباء، ويفكها الصيادلة ببراعة.

وتآلفا بعد شقاق وجدالات مطولة، وتمكن ابن بطوطة من كسب ود العجوز المتذمر، طيب القلب والوجدان، والمكتئب حد الانفجار.

ببراعة الرحالة وصبره، سيطر ابن بطوطة على فورة غضب الطبيب، حتى بات وديعاً بين يديه، ولا ينام إلا عندما يفرك له صلعته، وشعر لحيته الذي طال، ويزعجه فيحكه حتى تتعب يداه.

وبدوره استحكم العجوز من الحكاية، وأخذ يشذب ويختصر، ويعيد الصياغة أكثر من مرة، ولكن قاموسه الإنكليزي كان أكثر اتساعاً من عربيته الفقيرة، فساعده ابن بطوطة صاحب اللسان الفصيح، والقاموس المترع بالكلمات، على قدر استطاعته، وما تسعفه ذاكرته بعد مئات السنين من الصمت، والانزواء القسري، يستعيد ذاكرته، ونشاطه، وعنفوانه الخامل.

- **أما آن الأوان لأن تطلعني على الأسرار يا ابن بطوطة، ولنقفز على طنجة، وطفولتك.**
- **إصبر، ستشتد الأحداث رويداً رويداً، وسنقفز إلى طلاق ابنة جبرين، وقصص الحب في المغرب.**

استذكر العجوز ماضيه في اللهو والطيش في شوارع حي العرب وحي اليهود في مدن بريطانيا، وانشغل في ذكريات الحروب العربية الوهمية، والبطولات الأسطورية في قصائد الشعراء، وقصص الحب والوفاء، فلطالما كان يقول بأن الحب لا يوجد إلا في الشعر، ولا انتصارات للعرب إلا في أساطيرهم، ولا مجد إلا لدى شيوخ القبائل في الدواوين.

وتهرب كثيرا من تساؤلات ملحة دارت في خلده، يتهم العرب بريطانيا بالضحك على العرب، لكنهم يرسلون أبناءهم ليتعلموا، وكذلك الحال في أمريكا.

وانقلبت الآية فراح يقص على ابن بطوطة عن أخباراً ماضي العرب في العصر الحديث، وكيف هو مؤلم ومخز، ومخيب للآمال، ولم يرف جفن للرحالة عبر الأزمنة والأمكنة، فهو معتاد على ما هو أبشع، وأكثر فداحة وغرابة، ولكنه لا يريد أن تتشعب الأمور، وأدار دفة التقصي والسرد مرة أخرى نحو طنجة، وعادا لاستكمال المخطوطة.

ما شبهت الشباب إلا بشيء كان في كمي فسقط

أحمد بن حنبل

طنجة 723 **هـ**

بعد مرور أربعة أعوام، وقد طالت مدة الغياب، ونحلت ابنة جبرين، وذابت ملامحها البارزة، من اتساع العيون، وطول الرموش، التي بدأت تقصر، أما الوجه المرتوي الدائري المقمر، فقد تحول إلى صحراء، وذبلت كبستان مهمل، وهجم الشيب على مفرق شعرها، ولم تعد تصلها رسائل من زوجها، ولا رسلاً يحملون الأخبار.

بدت طنجة مستلسمة للرتابة، وقاضيها يمارس عادته اليومية، في العمل، وابنه قد كبر، واجتاز الرشد، وأصبح رجلا، وقد ضاقت كل الدنيا بأحلامه، وحزنه، وقلبه اكتملا، حتى صار قادرا على الاعتماد على نفسه.

شبعت روحه من السفر في العالم، من كتاب إلى كتاب، فقد قرأ عن علم الأديان، وفلسفات اليونانين، وخفق قلبه وافتخر بعلماء طنجة، ومنهم والده المتعمق بالدين، والمذاهب، ولم يبخل بفخره بدولته المرينية التي تحكم أجزاء من الأندلس، وقد خلصتها من براثن الجهل والغوغاء، وأعادت بعض الممالك إلى العرب والمسلمين، ولكنه لم يكن يحب البحر، ولا تخفق روحه وقلبه إلا نحو الشرق، كما هو حال الكثير من الرحالة، والباحثين عن أنفسهم، وعن ذواتهم، أو بحثا عن العلم، أو المال، والمجد.

لم يكن يسحره شيء إلا الخروج من طنجة، وقد سمع عن ارتحالات شمس الدين التبريزي، ذلك المتصوف الشهير، وجلال الدين الرومي، ولمعت الأفكار برأسه، وتعمق أكثر في الصوفية، وسبحت روحه في بحرها الذي يبدو أعمق من البحر، ولم يجد معارضة من والده فتأييد الصوفية كان واضحا في طنجة وما حولها في كنف المالكية.

تشكلت ملامح الرجولة في تقاسيم الوجه، ونمت اللحية والشارب بكثافة، واكتمل الطول وتوقف عند حده، وبدأت نفسه تميل وتحلم بالجمال، لعل وعسى أن يجد نفسه ونصفه الآخر، ولم يفكر قط في الحب، أو اتخاذ حبيبة أو خليلة، كما يفكر الصبية والفتيان من رفاق الطفولة، الذين أودتهم الحياة رفقاء لهم لا يشبهونه، ويتبادل معهم أطراف الأحاديث، وشغلهم الشاغل النساء، ويحفظون قصائد الشعراء وقصصهم، ويتناقلون قصص الحب، ويتفننون في الإيقاع بقلوب الفتيات.

كان ابن بطوطة، يتحفظ على هذه التصرفات، ويغض بصره بقوة، حتى يكاد يغلق عينيه بيديه عندما تعترض طريقه فتاة، وهواء طنجة يمرح بقفطانها، أو يفك حجابها، ويحرر شعرها ليلعب معه.

لم يكن يحبذ التسكع في الطرقات، بل في دروب الكتب، والسطور، ولا تضييع الوقت في اللعب، واللهو، ولا يجد وقتا، للفراغ، بل هو ممتلىء بكل ما يمكنه أن يجعله مختلفا عمن كل ما حوله.

وتنزع نفسه نحو الزهد، والالتزام الديني، وتحرسه التربية الجيدة، والتنشئة، ورجاحة العقل، والوأد المبكر للطيش، والرغبات، إلا بالحلال، وباتت تداعب فكره، فكرة السفر، وأن يقيم في بلاد ليس فيها له أهل فيتخذ له أهلا، وسرعان ما يحارب هذه الأفكار، لأن فيها بحثاً عن زواج للمتعة، ولو أنه محب للمغامرة، وقد تعمق بالتاريخ، ووجد في كتب العبر، وقصص العرب والفتاوى، وحروب أول زمان الإسلام، قصصا كثيرا، ولو كان باطن أفكاره سليما، ويجد في المرأة موطنا له، فهو غريب وسط وطنه.

وما انفك يفكر في الجمال العربي، والفارسي، ويفكر في أن يمر بالبداية بزيجة على حسب رغبته، وليس باختيار أمه لفتاة من قومه، أو أمة أعجمية بيضاء وشقراء، وليجرب كل الأراضي، ويتخذ من كل بقاع العالم أوطانا لروحه الطامحة.

من شدة الضجر وسجن الوحدة، أمست ابنة جبرين، تبحث عن جبر لروحها، لتخرج من سجن بيتها، لسجن العالم، الذي تشعر فيه بالضياع، فلا أهل، ولا زوج، ولا سند، إلا جيرانها الذين رماها عندهم زوجها العربي، الذي تزوجته، في رحلة الهرب والتيه، والانتقال بين البلدان، وقع في حبها، ولاحقها، كما كان المغول يلاحقونها، وأهلها، فلاذت به، وأغرمت برجولته، وشخصيته.

لم يعد لديها مال كاف، وباعت ما لديها من ذهب، ولا تعرف أين تبحث عن زوجها، ومن أين تبدأ، فهو الغامض، كثير التنقل، ولو أنها تتوق لو تستطيع السفر إلى بغداد أو دمشق، وتسأل معارفه عنه، والتجار الذين يتعاملون معه، ومع كل قافلة تصل إلى أقصى العالم، حيث طنجة، تلف خمارها، وتسدل غطاءً على وجهها، وتقصدها، لتسأل، وترتمي بين أحضان أوراق الجريد، تخط المكاتيب، وتبعث بها مع الراحلين، لشيخ المسجد الأموي الذي تعرف أن زوجها يمر به بالذهاب والمجيء، وكذلك الأساقفة، والتجار في دمشق والقدس والأسكندرية، ولكنهم يردون عليها بأنهم يبحثون عنه، وقد انقطعت أخباره، وفقدوا أثره.

أتعبها السهر، والتفكير، ولكن لم تيأس، وساعدها أن جيرانها، يغدقون عليها بالاهتمام، والسؤال، ولا يتركونها تحتاج شيئا، وقويت علاقتها بهم، حيث أقسم عليها القاضي بأن تقيم في حرم الضيوف بمنزله، ومن نبله لم يسمح

حتى لابنه أن يدخل إلى الجناح المخصص لها، ولو أن زوجته الوفية المطيعة، أصبح الشك يلعب ويسرح بها، وهي تعلم أن زوجها وأهله قضاة، ويستطيعون تطليق المرأة، بحكم غياب زوجها، وخشيت أن تسحره العربية الحسناء، فيقع ويغشى عليه، ويتزوجها، وخافت من طيش ابنها، ولكنها كتمت خوفها وغيرتها من اهتمام زوجها المدفوع والمتخلط بالمروءة وصون الأمانة.

وهو الذي لم يهمه كلام الناس، ولكن حذره من أن يقصدها سارق، أو صاحب نية سيئة في امرأة زوجها غائب منذ سنين، فوافقت على المبيت لديهم، والذهاب لمنزلها في النهار.

واستفاد محمد بن بطوطة، من الكتب والمخطوطات، ودفعته المروءة المكتسبة من والده، بأن يحافظ على زوجة صديق العائلة، وعرّابه وملهمه، ولم يفكر قط حتى في أن ينظر إليها عمدا أو يحدق أو يتعمق في تفكيره.

أحبت المرأة الغريبة الوحيدة بيت القاضي وأهله، وأصبحت جزءا لا يتجزأ منهم، وسكبت حزنها، في عالمهم، ليتقاسموا معها الهم، والحيرة، وقد خارت قواها، ولا حيلة بيدها تسعفها، أو تتخذها.

وانجبرت روحها نوعا ما، فابن جابر كان جبرا لها، وهي ابنة الحسب والنسب، وقد جبره مال أهلها، ودعم تجارته، وأوقفه على أرجله في كثير من الانكسارات، مختف، منذ سنين، وكل شيء معه، ولا شيء تملكه إلا هذا البيت، وحتى صك ملكيته يعود له، ولم يمت لكي ترثه، ولا ممتلكات تتصرف بها، فقد باتت سليلة المجد، تحت رحمة أهل الخير، والعزيزة كل عمرها، تنتظر جيرانها ليتصدقوا عليها.

في ليلة مقمرة من ليالي طنجة، وقد فاح عبير الأزهار، وماجت روائح البحر، ومع ازدهار ميناء طنجة الذي يحتضن السفن، القادمة من الشام ومصر، من الأندلس وإليها، حيث يضمن المرينيون أمانها، ويحرسون البحر، كما يحرس البحر طنجة، وهي النقطة الأخيرة، والمقصد النهائي للسفن، وتأتي محملة بالتوابل، والأخشاب، والأقمشة، وغيرها من الصين والهند وبلاد العرب، وتقصد مدن الأندلس المزدهرة والغنية، وتمر عبر بوابة هذه المدينة، وينالها من الخير، فيعمل أهلها في الميناء والتجارة، ولكنهم كقاضيها، لا يحبون السفر والهجرة، ولم يعملوا بالتجارة، ولا يستطيعون حتى التفكير في الانتقال إلى الضفة الأخرى من دولتهم، أو العيش بعيدا عن بلاد أجدادهم، فيكتفي الرجال بالعمل في جيش السلطان، وفي كنف الدولة، فمنهم من

يسري عليه نظام التناوب، ويغيب في كتيبة البحر التي تحرس البحار، والشطآن والجزر، ومنهم من المشاة، والبصاصين العاملين في بلاط السلطنة على المدن التي تحكمها وتحررت من حكم المسيحيين في الأندلس، فيعودون بعد انتهاء مهلة التكليف، والمناوبات الشهرية، فتستفيد الدولة من أبناء طنجة وفاس الأوفياء المضمونين لصون حماها، وتدفع لهم من أموال الجباية، والجزية المفروضة على غير المسلمين.

ابن بطوطة الذي كان يجوب السفن النائمة بين ذراعي مدينته، يستمع لقصص البحارة، ويتعرف عليهم، شدته الحكايا، وطابت نفسه بين بحارتها، والتجار القادمين لكنس كل ما في سوق النخاسة من عبيد وجواري، والوصول إلى خيرات أوروبا، والتبضع بما يباع ويسد جوعهم وجشعهم.

ووجد سفينة قادمة من الأندلس، وفيها تاجر مسيحي لا يتحدث العربية، وقد طلب من ابن بطوطة أن يوصله إلى ترجمان يدفع له، ويكون أمينا، لكي يساعده في شراء العبيد، والصوف، ليعود إلى الأندلس فهناك زبائن ينتظرونه، والطلب يزداد على السمر من الرجال لأن سواعدهم قوية في أعمال السخرة، والجواري لأنهن مختلفات عن النساء صغيرات البنيةمن نساء الهند والصين وبلاد السند، وعن طريق الصدفة، جاء اسم مسعود بن جابر، وأن له رسالة معه، يريد إيصالها إلى القاضي عبدالله بن محمد اللواتي، وقد عرف من الترجمان، الذي أحضره، وأبرز أوراقه وختم القاضي الشرعي للمدينة أنه معتمد، وذو ذمة أمين، فاطئمن التاجر، وقص عليهم خبر من يحمل مكتوبه، واتخذه مرسالا، ليوصل ما عنده لأهله في طنجة.

انشرحت أسارير الزوجة، كالشجرة عندما يدب الماء بعروقها، وقد كانت ميتة على قيد الحياة، وكل ما فيها قد ذبل، وأصابه اليباس، فتوردت خدودها، وانتظم نبضها، وأحست بنور يختلجها بعد ظلام يلون سماءها، ولم تأبه أن تجالس القاضي وابنه، وجها لوجه، وتسمع نبأ ساخناً وصل للتو من زوجها، ولم يبرد بعد، قد نقله التاجر، عبر ابن بطوطة، ولا شعوريا سحبت الرسالة من يد ابن بطوطة، قبل أن تحط في يد والده، لتحاصرها بين ذراعيها، وتحشر أنفسها لتبحث عن رائحة يد زوجها التي خطتها.

دوافع الشوق ترمي بأصحابها إلى التهلكة، وقد رمت ابنة جبرين في حمى النسيان، ونست نفسها أمام القاضي الذي يصاب حتى أهل بيته أمام وقاره وهيبته بالخرس،فالتمسوا لها العذر، وعيونها تمطر الدمع بغزارة، ويداها ترتجفان من شدة خفقان قلبها، الذي أخل توازنها، فسقطت، وأغمى عليها.

لم تعتذر، ولم تخف، فلا شيء تخسره، ولا شيء يستحق أن تخرج من حيائها، ومن ضعفها، ولا حاجة لأن تخزن قوتها، وتحافظ على ما تبقى منها.

صوت البكاء يرتفع عاليا، وصمت القاضي ومن معه، يتعالى أيضا، كالموتى، فتركوها تقرأ رسالتها بسرها، ولكنها انصدمت، ومدت يدها تتكىء بها، لتجد موضعا تجلس عليه، لأن الرسالة لم تكن موجهة لها، بل لأبي محمد القاضي عبدالله، ولم تفصح بأن الرسالة موجهة له، فلو عرف، لما سمح لها بفتحها، ولا قراءتها، ولم يقرأ عطيل عليها السلام، ولم يطلب إبصاله لها، بل كتب باختصار وإيجاز:

أخي عبد اللّه بن محمد اللواتي

قاضي طنجة

بعد تحية الإسلام

السلام عليكم ورحمة اللّه وبركاته..

والصلاة والسلام على نبينا محمد صلى اللّه عليه خاتم النبيين، وخير الأنام، وشفيعنا الأمين..

أكتب لك رسالتي هذه، وأتمنى أن تصلكم ومولاي صاحب الجلالة، وحضرتكم، وأهلكم، بوافر الصحة والعافية، ولا أعلم حينها، هل سأكون حياً أم ميتاً، ولكن ما أريده إيصاله لك، وأرجو أن يبقى سراً بيننا، أنني لن أعود إلى طنجة، وسيصلكم مع أحد شركائي مال يكفي أهل بيتي، إن مكثوا في طنجة، أو غادروها إلى دمشق، أو بغداد، فلقد اتخذت لي أهلا، صاروا لي موطنا، هنا بين خراسان وأصفهان وسمرقند ومدن العجم، وتركت عروبتي، وأتقنت الفارسية، كما غيرت مذهبي، وطرق تجارتي إلى بلاد العرب، فقد كثر الطغيان، والفقر، واتجهت إلى عمق آسيا، وتعمقت شرقاً، نحو بلخ وسمرقند، وبخارى، وبكين، وأحيانا، أذهب غربا إلى القسطنينية، ووجدت هذا التاجر الذي يتخذ من بحر الروم، طريق تجارة له، وتعاملت معه كثيرا، وسأرسل معه المال، في كل مرة، فلو شئت جئتم إلي، وتركتم المغرب، واتخذتم المشرق موطنا، ففيه الخير الوفير، والسلام السرمدي، وإن بقيت زوجتي على ذمتي، فهي مخيرة، لا

مسيرة، إما أن تبقى أو تلتحق بما تبقى من أهلها، أو تطلقها مني، وتصلها نفقتها، ما دامت لم تتخذ زوجا، ولا معيلاً لها.

وأدعو ابنك محمد هذا الفتى النجيب لأن يزورني، وربما يمكث معي، ويطيل البقاء، فحرام أن يبقى في طنجة، آخر العالم، وأن يموت فيها.

وما قطعني عنكم كل هذه السنين، أني لم أجد ما يوصلني إليكم، ولم أكن مستقرا في بلد، بل كنت هائما على وجهي، أبحث عن نفسي، في قم والنجف، وبغداد.

الداعي لكم بالخير دائما وأبدا

مسعود بن جابر

أصفهان

عند جلوسها، وهي تقرأ بعمق، وتوق، لم تتمالك نفسها، فارتمت على الأريكة، ولما وصلت في القراءة إلى منتصف الرسالة، وعرفت أن زوجها وحبيبها الذي وثقت به، وأحبته من صميم فؤادها، قد تركها، ورماها، انفعلت بغضب، وحلت بها نوبة عويل، مع سيول ماطرة من الدموع، فتهاوت يدها اليمنى على إبريق النحاس الذي يزين زاوية المكان، فاختلط رنين سقوطه على الأرض، مع عويلها، وازدحم المكان بالأصوات، وتهشمت قنينة الفخار المزينة بالرسومات والخطوط، وقد تناثرت شظاياها على كؤوس الحديد على الطاولة، فهجمت فاطمة عليها، لتكبلها، وتسيطر على غضبها، وتهدىء من روعها، بينما يحاول ابن بطوطة، بأدب وإخلاص التهدئة بالكلام، من غير أن يقترب منها، ويرشد أمه أن تغطي شعرها، وأن تلف عليها ما يمنع ظهور أي شيء منها، وأن تسقيها الماء، وتجلب لها من شراب الأعشاب الكمون أو الزعتر لتهدأ نفسها، ويستعيد عقلها السيطرة على شيطانها، ورب البيت يقف كالجلمود ساكنا، لم يتحرك من مكانه، ولم ينطق كلمة، ولو أن الصدأ بدأ ينخر في صمته الحديدي، على صنيعة صديق عمره، وذاب صّوان قلبه على هذه المسكينة، التي باتت ضحية تاريخها، وزوجها، والمسافات البعيدة في آخر الدنيا.

- **طلقني منه أيها القاضي، أريد حريتي.**

بهذه الكلمات، افتتحت الحوار مع الذين يحاولون تهدئتها، فيما أحضروا لها الشراب، والماء، والشاي مع القرنفل.

القاضي، يفكر وهو واقف، وابن بطوطة تجرأ، ومد يده ليسحب لفافة الورق من يدها، ويقمطها.

عادت للكلام:

- **أريد أن أذهب إلى أهلي في نجد.**

ابن بطوطة ووالده يعرفان نجد حق المعرفة، من الكتب، فهي بعيدة، وصحراء قاحلة، ولا أحد من طنجة يمر بها أو يزورها في طريقه للحج من مصر، عبر البحر، أو من طريق الشام، فالعقبة وتبوك، والمدينة.

نطق الحجر الأصم في داخل القاضي:

- **ماذا قلت يا ابنتي؟ هل تريدين الذهاب إلى صحراء نجد؟ هل عطيل متعطل هناك؟**
- **نعم.. هل نسيتم أن حاتم الطائي جد أجدادي، وأنا من صلب طي، ولو أن أبي محب للعلم، وصاحب مكانة، فسكن بغداد، مع الكثير من أهله الذين تركوا حياة الشظف، وغادروا القفار، فبساتين أعمامي، وجدي، وأراضيهم في شمال الجزيرة، تبعد مسافة أقل من أسبوع عن البصرة وبغداد.**

سقطت كلماتها كالرعد على أذن الأم الأمية، التي لا تستطيع أن تفك الخط، ويدفعها فضول وحزن، لمعرفة فحوى السطور، واكتفت بأن تربت على كتف جارتها، وتحدق بذهول، وفمها الكبير مفتوح على مصراعيه، شاردة، تستبق الأحداث، وتتخيل جارتها، تمتطي جملها، وتتربع بهودجها، لتشق عباب الصحراء الكبرى، لتصل إلى ديارها، التي لطالما حكت لها عن بساتينها، وهضابها وجبالها.

صمود القاضي تقهقر أمام نوبات الجنون غير المعروفة أسبابه، وحياؤه من المرأة ضيفته، وضيفة طنجة الصغيرة، يحبس أسئلته، ودخل الشك إلى مهجته، وحك رأسه، ليشتغل فكره، بلا مباغتة بالمرأة الغاضبة، والتي كادت تكسر أثاث حجرة ضيوفه الفاخر، المزينة بالخشب المصري، والنحاس،

والفخار الأندلسي، والسجاد الفارسي، ويستضيف في هذا الجناح، الوزراء، والعلماء، والتجار، فهو قبلة الوجهاء الزائرين لطنجة، ووجيهها المعروف، صاحب المكانة، والسمعة الكبيرة.

- **على رسلك، فلن أسألك عما في الرسالة، ولكن أنت أمانة أسلمها لصاحبها.**

صاحت به، وقد نست نفسها وقال بصراخ:

- **لم تعد هناك أمانات، وصاحبك، وصاحبي قد خاننا.**

قالها وحاجباه معقودان، وعيناه المدورتان، امتدتا:

- **خيانة؟.. كفانا اللّه شرها.**
- **خذ واقرأ الرسالة، فقد استفتحها، وليتني مت، ولم أفعلها.**

ابنة جبرين صاحبة الوقار، والكلام القليل، والصمت الكثير، لم تعد كما عرفوها، وقد خرجت من طوعها، وشقت خيانة زوجها، بحسب قناعتها، سترها، وخذلها، وقتلها، ومحق صبرها.

تمتمت في سرها مع تحريك لشفتيها العريضتين.

«أنا السبب، أنا من علمته فك الخط، والقراءة والكتابة، وجعلته محبا للسفر، فقد كان درويشا، متسكعا، أسر قلبي بوسامته، وجرأته، وكنت مكلومة، أبحث عن عشق حلال، فأوقعني قبل أن أوقعه، وأوهمني، فهمت به، وجعلته يدمن على الكتب، والتاريخ، والأديان، كما كان ينكب على كؤوس المدام، فجعلته مسلما صحيحا، ولكن تمادى، وراح ينهمك في دواوين الحلاج، وعمر الخيام، والرومي، وكان هشاً، وسلمته بيدي لمن يتأثر بهم بسرعة».

وعزى ما قالته نفسها، وشحن كبرياءها، بينما القاضي يقرأ الرسالة، والغضب جعل الدم يغزو عينيه، فتحولت إلى بركتين حمراوتين. وسماء صدره ترتعد بالصواعق. وبروق الخيبة، والغضب.

فكيف له أن يتحول من مذهبه، وراح يفكر هل كان محتجزا في قلعة أليوت، ولكن على حد علمه دكها المغول، وخربوها، أم أنه تحول عن دينه كله، فالقاضي شيخ جليل، ومتمسك بدينه، ولا يقبل أو يساوم على السنة، وأهل الجماعة، ولا يقبل أحدا من غير هذه الملة، وتذكر حديثه عن ابن تيمية، والإمام ابن حنبل، وحضارة الإسلام، واعتراه الندم على كل هذه المحبة التي كان يحملها لهذا الصديق، وكي لا يظهر بمنظر المخطىء، أمام أهل بيته، وأمام نفسه، تمالك زمام أموره والموقف، وتمسك بصبره، وتعكز على حكمته.

- **اسمعي يا ابنتي.**

أم محمد ما إن سمعته يناديها بابنته، حتى كادت تبتسم، وتفرح، فأخفت ابتسامتها، وطأطأت رأسها في الأرض، كي لا تفضحها عيونها، والموقف ليس للفرح أو الانشراح، بل إن علامات الغضب، والانكسارات، تلوح في الأفق، وواضحة للعيان، للأعمى والمبصر.

وأكمل القاضي حديثه:

- **في الإسلام يحل للرجل الزواج من أربع، في مذهب أبي حنيفة والشافعي، وابن حنبل،والإمام مالك، كما أن الزواج حفظ للفرج، ودرء للمفاسد، وسكنى للرجل.**
- **ولكن هذا الرجل ترك زوجته، وذهب يتزوج ويستمتع، واعتنق دينا ومذهبا، ليبيح لنفسه المتعة.**
- **هو لم يقل إنه ذهب ليتزوج، ولكن أرى أنه اختار له زوجا، ومسكنا، ومستقرا ومقاما.**

اختلطت نار الغيرة والحب، بماء الحكمة والصبر، ورجاحة العقل، والسؤدد التليد، واجتمعا في قلبها.

فآثرت الهدوء على الضجيج، والقبول بما جرى لها، وعلى وجه السرعة، هدأت الزوبعة، وبردت المصيبة، التي بدأت تصغر، فكل شيء يكون صغيرا، فيكبر، إلا المصائب تأتي كبيرة، ثم تصغر.

كل ما حصل على مرأى من ابن بطوطة، ووالدته، التي بدأ خلد الخوف من تعدد الزوجات، يحفر في جوفها، ولم تحتج إلى شرح لتعرف قصة الرسالة،

وابنها عارف ومدرك، واكتفى بتخزين هذه القصص، في مخزن العقل، وفي مخياله.

ربطت ابنة جبرين على قلبها، وأقنعت مضيفيها، بأن أهلها، وبلادها أولى بها، ولا داعي للهرب كل العمر، وقررت أن تستودع مخطوطاتها الثمينة، وتكنزها عندهم، واقترح عليها القاضي وزوجه أن يذهبوا معها للحج هذا العام، ويضعوا الأمانة في مكان معلوم لهم، في المكان الذي اختارته، واستوصوا بما طلبه زوجها.

زيارة مدينة رسول اللّه، وقبره، والحج لبيت اللّه الحرام، أعظم خير مر على مسامع الحاضرين، وسافرت أرواحهم إلى فراديس البلاد وأرض اللّه والإسلام الواسعة، وتوسموا خيرا بهذه الفكرة، التي طردت الحزن والهم مؤقتا، وفاحت رائحة الأمل مع قدوم نفحات الهواء، المحملة بروائح الأزاهير.

أخذ القاضي ابنه، وخرجا إلى ناحية المحيط، ولم يعد إلى مجلسه، وضيوفه بعد العصر، بل اكتفى من العمل، وأراد أن يطلق ما بقلبه، ويفضفض لأمواج المحيط، ويستأنس مع ولده، في إطلاق بصره للمدى الأخضر، والمناظر الجميلة، فقد ضاقت روحه من الأبنية والأزقة الضيقة، والأماكن المغلقة، ونادرا ما يخرج من مدينته التي قطع عهدا على نفسه ألا يغادرها، حتى ولو وصلت إليها أيدي المغول الباطشة، وغزاها الصليبيون، من جهة الشرق أو الأندلس.

وفي الطريق تناقشا كثيرا، حول فكرة الارتحال، والتنقل، ولمح ابن بطوطةتقبل والده لفكرة الأسفار، وأهمية الارتحالات، ووجده منفتحا على أن الإنسان بطبيعته بدوي، مرتحل، يبحث عن موطن له، طوال حياته، وقد نسي أن الدنيا لا مستقر بها، منذ الهبوط من الجنة، والعيش في الأرض.

وتفكر كل منهما بالحياة، ومصاعبها، ونكدها، وهما يجلسان أمامهما المحيط، وعلى جانبيهما غابات غناء خضرا والأندلس وطنجة إلى الخلف، وكل العالم تركوه وراءهم، وكان في خلده الكثير من الأحلام والأسئلة المفتوحة، كالندوب، التي بلا نهايات، مثل هذا المحيط الهائج الذي لم يروض أمواجه أحد، ولا أحد يتجرأ على مخر عبابه التي بلا قرار، ولا أحد يعرف أين ينتهي.

شاغب ذكر السفر، مخيلة ابن بطوطة وأحاسيسه، وملأت الطمأنينة مهجته، عندما عرف أنه سيحج إلى بيت اللّه، وطرأت برأسه فكرة، أن يجلس بها مدة أطول، يتعلم أصول الدين، ويتزود من فقهاء المدينة وعلمائها، ويطوف بالجزيرة العربية، عاما أو أقل، ومن ثم يعود أدراجه إلى بلده.

الأيام كانت تركض بسرعة، ولكنها كانت ثقيلة على نفس المرأة العربية الغريبة، فسريرها جاف، وبارد، وبيتها خاو من أي صوت أو حياة، ووجها مكفهر، مثل الأطلال الدارسة، وآثارها طامسة، توحي بأنها كانت مضرب مثال للجمال والكمال، والحيوية، والسلام الداخلي.

ونفس أبو محمد تكاد تخرج من وكر صدره، لما بها من الهم، وثقل الأمانة، التي بحوزته، وفي حوزة بلاده، ولا يعرف كيف يوصلها إلى أهلها، وفي قلبه غصة، تكاد تفتت لحمه، وتفجّر دمه، من صنيع الصديق والرفيق، وصاحب الحجة والبرهان، والمحارب الأشوس، الذائد عن حمى البلاد والدين والعباد، وقد انقلب حاله، إلى منقلب سوء، وضياع.

كثرة المشاغل، وسخونة الأمل في قلوب المؤمنين تجعلهم ينسون سريعا، كل ما في الدنيا، من أجل مبتغى الآخرة، وحسن المعاد، فقد انشغل القاضي بكثرة الأعمال، والقضايا التي تأتيه من كل أركان الدولة المرينية، ومن الممالك المجاورة، وعلاقاته المتشعبة زادت قوتها، مع قوة الدولة، فقد ضربت علاقاته الدينية أعماق الأرض وعرضها مع أهل الشرع والدين، والعلماء من أهل تونس وصفاقس، وتلمسان ومليانة، وطرابلس والإسكندرية، والقاهرة، والشام، ومكة ويثرب وبغداد.

مد الحظ السعيد يداه إلى طنجة التي ازدهر ميناؤها، الآمن المسالم، في ظل دولة السلطان عثمان بن يعقوب، وشيدت الأسواق والحوانيت، والمدارس، وتوافدت القبائل العربية من بني هلال ومعقل، الذين لهم نصيب السباع من جهاز المخزن، وعرّبوا السهل والجبل، وأصبحت الأمازيغية لغة الأقلية النائية، وانتشرت الزوايا الصوفية انتشار النار في الهشيم الهش من الحقول اليابسة، وراح المالكيون ينقمسون بين طريقتي شعيب أبي مدين، والشاذلي، واهتم أبناء الأندلس بالعلم وشؤون القلم، وتقهقر الكثير من الضالين والمعارضين وعصابات قطاع الطرق نحو أغمات، ومراكش، وذابوا في الصحاري، والأمصار البعيدة.

صار ابن بطوطة يغيب كثيرا في الزوايا، والتزم مع طريقة الشيخ محمد بن صالح الماجري التي كانت لها الصلاة من المغرب إلى مصر، وتتجاوز حدود الأمكنة، وتلوذ بحمى الصالحين، لتعبر الأزمنة.

وابنة جبرين، بمرور الوقت، راحت تشتغل في نسخ الكتب، للتجار، والأعيان، والمسافرين الأغنياء القاصدين طنجة، من سفراء وتجار يهود ونصارى، وانصرف انشغالها في سبك العلاقات، وكسب القوت، والسلوى، وتخييط

جراحها بإبرة النسيان الأليمة، وخيوط الماضي، وجعلت منزلها مجلسا أدبيا، يقصده أهل المعرفة، ويتزودون من علمها، ويحضرون حلقات الذكر، فقد تصوفت، وهي الحنبلية ذات الأصول المتشددة والمتمسكة بأصل الدين.

لم يرق كشف وجهها ومجالسة الرجال لقاضي طنجة، ولكن لم يعترض، لأنه وجد في تغذية الصوفية الوليدة خيرا، ولو أنه اكتفى بأصول التشريع الخمسة، وانغمس فيها، ولم يتدخل في ابنه الذي تشكّلت رغباته، وميوله، حيث يميل تارة نحو الصوفية، وحينا آخرا نحو الفقه وأصول الدين، وأحياناً نحو من يشكلون علية الأقوام من رجال الدولة، في سبتة وسلا، واليهود المتنقلين بين المغرب والأندلس، وكبار قادة الجيش من القشتاليين العاملين في الدولة المرينية، واستفاد من سمعة والده، في دخول بلاط الوزارة، ومجالس كبار طنجة، واستثمر مجلس الجارة خير استثمار.

أدرك هذا الفتى النابغة مبكراً، أن نبوغه يحتاج إلى تقوية ودعامات، فالأحلام وحدها لا تكفي، ولا تشفي غليل الطموح العريض، فشرع ينهل من زاد العلم والتقوى، والمعرفة، وواظب على الدرس، وانكب على كتب الفقه، لأنه وجد في الدين والدراسة والسياسة تجارة، تخرجه من حلق الضيق في طنجة، وتقربه من الولاة، والعالم، وتمهد له كل طريق.

بدأ في الانعتاق من الحياة اليومية، والهيام والانصهار في بوتقته بصوفية حالمة، ومنفصلة عن الجغرافيا والتاريخ، وما انفك يسافر في كل الدنيا، ويكبر أكثر فأكثر، ويتجرد من حياة الرفاه، ويزهد في الملبس والمشرب، ونسي مدينته الجميلة، وحضارة وطنه الضاربة أوتادها بقوة، كخيمة لا تحركها ولا تهزها تقلبات رياح ما حولها، وتهديدات الدويلات، والممالك.

انتقال العائلة الصغيرة من البيت الكبير، إلى القصر، لم يحرك ساكنا في قلب ابن بطوطة، ولا الحياة في القصور السلطانية، وأراضي المزارع، والبساتين التي تم توزيعها على القادة، والأعيان، والذين وقفوا برجالهم، وأنفسهم وأموالهم مع السلطان، ومن قبله والده، في الفتوحات، ومحاربة الموحدين، والقبائل الخارجة والرافضة للانصياع، وملوك أوروبة، وسطروا فسيفساء من العرب والبربر واليهود والمسيحين، تتشكل منها لوحة الدولة القوية الفتية.

أخذ يحس بثقل الخطى، والتكاسل من المسافات الطويلة التي لا طائل منها، فقد كان سابقا، عندما يمد رجله وهو في قلب بيتهم، يجد نفسه في السوق أو المدرسة الجديدة، وعندما يلف وجهه صوب الشمال، يصل إلى

الميناء، وينحدر إلى الزاوية ليتلقي بشيوخه الصوفيين، ودروس المالكية في الجامع الكبير، بلا تعب أو هدر وقت طويل، بينما الآن عليه سبر عباب البستان، والاصطدام بأغصان شجر البرتقال التي تتدلى على الطرقات من ثقل الثمار، وتنشغل أنفاسه بروائح وعطور الورد المنتشر على الأسوار، وعيونه تضيع وترقص، مع جمال القصور المشيدة، وأمسى يتأثر بدروشة الصوفيين، لينام في الزاوية، ويغيب عن البيت، ولكن لم يصل إلى مرحلة السفر.

الأب المخلص، والمصلح الكبير، وجد نفسه أكثر فائدة في إعطاء النصح والمشورة، وراح يسافر كثيرا، إلى فاس، ويحضر مأدبات زيارات الوفود من أقصى الشرق والشمال، إلى آخر العالم ومغربه، ويحسب أنه يحسن صنعا، بتقوية أواصر العمل، والتقرب من البلاط، من أجل فلذة كبده، وهو كلما تقرب والتصق أكثر، ابتعد ابنه عنه، وعن بلاده، وعن تاريخه.

كثرة الدسائس والمؤامرات في بلاط العائلة الحاكمة، والوزراء، وأهل الحل والربط، وتكاثر المنافقين، والمنتفعين، جعلت والد ابن بطوطة، يستنزف طاقته، وصبره، ولكنه أبى أن ييأس، في أن يوصل ابنه إلى مرتبته، في فاس أو مراكش، ولكن طموح السلطان كان أكبر من ذلك بكثير، ولو كان قد نجح في تجاوز المكائد، وحلقات النفاق، واستفاد ماديا، لأصبح له نصيب جيد من الذهب والنقد، والغنائم التي توزع ليس بغير تساوٍ على المستحقين، والأشخاص المهمين والمفيدين.

وفي إحدى الزيارات إلى فاس، لتجديد الولاء، وتقديم تقرير عن طنجة، وسبتة، من قضايا الناس، واحتياجاتهم، وشرح مشاكلهم، طلب منه السلطان أبو سعيد الذي توطدت أركان حكمه، وازدهرت المدن من بركاته، وعلا شأنها، الحضور مع جلسات السفراء، ليفتح له عقله، ويخبره بأفكاره، بتوطيد العلاقات مع الجيران، والدويلات البعيدة، والحضارات العتيدة، فهو يعرف بحكمته، وما حصل لأهله من تقلبات الزمان، وغدر الأصحاب، وخيانة الأغراب، أنه لا قوة بلا تحالفات، واستشاره في دعم الحفصيين ودولتهم في تونس، ومصاهرتهم، وارتفع سلطان نفسه، على سلطان حكمه، فأراد أن يصل بصيته إلى كل البقاع، ويبلغ اسمه منزلة السديم من السحاب، ويصبح منارة كالشمس للأرض، ويبلغ سنا الضياء كل الأرجاء، ولم يجد إلا القاضي الذي توثقت عروة الصداقة معه.

وتكررت الزيارت، والأعمال، وكالليل والنهار، صار القاضي يتعاقب على عمله، ومنزله، والزيارات الرسمية، وابن بطوطة هو المستفيد الأكبر، فكل

طنجة تقدره وتجلّه، وترى فيه النجم البازغ، والشهاب الساطع، والفتى الفارع، المتعدي بأحلامه، المتجاوز لزمنه، والسابق لعصره في المستقبل القريب، وسمعته وصلت إلى الوزير الزبيدي الذي بات يطلب من البصاصين تعقب أخباره، وتقديم الإيجاز عنه، وكيفية تجنيده والاستفادة منه.

تضخم الابن حتى أصبح لا يرد على أحد، وبغرور معهود، مارس عزلته، ولم يكتف بالعزلة، بل أصبح يجاهر بأنه رجل محب للمغامرات، وسيتزوج كثيرا، ويمارس حياته بطول العالم وعرضه، مثلما كان أصدقاء والده العرب يفعلون، وتعمق وغاص في الكتب، وتابع عن كثب أحوال الأمصار من مجلس والده، والوزير، لكنه لم يشأ أن يطأ بلاط السلطان، أو أن يصبح من جلاسه، أو موظفيه.

كما ذاع صيت مجلس ابنة جبرين، وفي كل ثلاثاء يذهب ابن بطوطة ليستمع إلى المناظرات الأدبية والعلمية، ويختلط بالنبلاء القادمين، ويرى بعينه كيف أمست الجارة العربية منارة علمية، وتطورت العلاقة معها، ولكنها كبرت وشاخت، وفي أسفل دوائر عينيها كان لما فعله «عطيل» أثر.

يسهر إلى الفجر مع الدراويش الصوفيين، وينصرف أكثر لحياته الخاصة، التي عجز كل من حوله على اختراقها، ومعرفة ماذا عنده، وماذا يجول في خاطره، حتى أن أمه اتهمته بأنه متزوج بالسر، أو لديه خليلة، يسري ويمرح عندها، فلم تعتد أن يتأخر رجل أو ينام خارج منزله، ولا يعرفون أين يكون، وخافت على ابنها من أن يعتاد على الذهاب إلى سوق الجواري، وأن ينغمس في متعته، ويضيع مستقبله، وفي أحد صباحات يوم الجمعة، وجدته متخلفا عن الصلاة، فصرخت على غير عادتها، وبغضب نادر، لتنهره عن النوم المتأخر:

- **نوم الضحى فقر، وقلة حيلة، أما آن أن تصحو، وتغير من هذه الطباع؟**
- **هل سقط نجم من السماء؟ أم انشق قمر؟**
- **ألا يحق لنا مناداتك، إلا بعد حدوث نائبة؟**
- **في النوائب فوائد، وفي الفوائد علل وأسقام لأجسام الدول، والبشر.**
- **تكلمني بلغة فوق قدراتي، فأنا أجيد الكلام، وقد اختلطت أنت وأبوك بالأعراب، أما أنا فربة بيت مخلصة وكفى.**

بغضب وصرامة معروفة، يتدخل الوالد:

- **أما زلت نائما أيها الفتى؟**
- **لم أعد فتى يافعا، تجاوزت الحادية والعشرين من عمري.**
- **ويا فرحتي وفرحة أمك، سنزوجك حتى تعقل.**
- **وهل الرجل يصبح مجنونا، ويسترد عقله أو ترده له امرأة؟**
- **أصبحت تجادلني بقوة.**
- **تعملت منك يا أبي أن الحجة بالحجة، ولقد علمتني، وجبلتني على قول الحق مهما كان.**
- **لقد أسرت لي أمك، أكثر من مرة، عن حياة الدراويش، وغيابك المتكرر، ولم أشأ أن أتصرف معك بحزم، يرتقي أو يدنو من درجة الجبروت.**
- **أنا خليط من كل شيء، كما أني لا أفعل شيئا مخالفاً للشرع، أو للعرف والتقاليد.**
- **قم، واغسل جلدك، واستبدل ثيابك، وتبخر، ولنذهب إلى الصلاة، ومن ثم سنذهب إلى غداء الوزير الزبيدي.**
- **لا أحب هذه الأجواء، والمجاملات.**

تقطع الأم الطريق على هروب الابن:

- **ستذهب رغما عنك، وأريد أن تجهز لنا الأغراض لنحج إلى بيت اللّه الحرام، فلقد وعدنا والدك منذ عامين، ولكن انشغالاته، ستجعلنا نذهب وحيدين.**
- **لنذهب بالصحبة، في قافلة السلطان السنوية إلى الحج.**
- **كيف يا ولدي إنها لغير المقتدرين، والحمد للّه ليس علينا قاصر، وأنعم اللّه علينا بالخير، ولكن قبل الحج، نحن نفكر أن نكمل لك نصف دينك، ونزوجك ونجلب امرأة تبقى في بيتنا الكبير في غيابي.**

خشيت بطوطة أن يقوم الوالد بخطبة ابنة جبرين التي تكبر ابنها بعقدين وأكثر بقليل، أو أن يختار له زيجة على هواه، وحسب المصالح، أو أن يتزوج أو يتخذ له سرية من الإماء، فهي تعرف أن ولدها قد فار دمه، ولا يعيش الرجل بلا امرأة، وقد استحق الباءة.

نهض محمد من فراشه المبعثر، كأن معركة قد حدثت في حجرته، وعبر البيت باتجاه الحمام، فسرق الوالد قبلة من خد زوجته، ونسي أنه قد أخذها بلذة فاستوجب عليه تجدد الوضوء على حسب الفقه المالكي الذي يحفظه عن ظهر وبطن قلب.

داعب ذكر الزواج مخيلة الابن الشاب، وفكر بالأمر مليا، كما أنه لم يعترض على السفر والحج، بل كان يعلنها مرارا أنه ينوي الاتصال بشيوخ الصوفية في مصر، ووالده يريد منه أن يتصل بشيخ المالكية في المدينة.

لمّح له الأب، عن رغبة الدولة في تجنيده، لتقوية العلاقات مع مصر ودمشق، والعراق، وخراسان، ولم يكشف له عن نوايا الحاكم، ولا الخطة بشكل علني، لكي لا ينفر، ولا يجزع، والأهم من ذلك تقوية العلاقات الدينية، ونشر المالكية، والحفاظ على شريط شمال أفريقية مواليا للمرينيين أمام الموحدين، ولكي يرسل السلاطين والحكام المال لدعم الدولة التي تحفظ هيبة الإسلام، وتبقي عليه خلف البحار، في الأندلس، وتنشر السلام والإسلام في بلاد السودان والزنوج.

لم يعرف الوالد أيضا سر ولده، بل أسراره في طنجة، وأمانيه، ولا عن خططه مع عطيل الذي لم ينقطع الوصل بينهما، ولم يخطر بباله أن لديه نفس الميول والرغبات، ولأن نفسه تدفعه لكسر القيود، والخروج من قمقم المدينة ورتابتها.

ورغم أن الولد سر أبيه، لم يعرف الابن عن الأب غير عمل القضاء، ولم يكن يعلم أنه يريد أن ينذره من أجل الدولة، وخدمة الدين، ويبرر المقاصد، في سبيل الغايات العظيمة، وكأنه سيودعه الوداع الأخير، وكل منهما سيأخذ عزاء الآخر، وهو مدرك كل الإدراك، بأنهما لن يلتقيا مرة أخرى.

والأم المغلوبة على أمرها لم يفصح كلاهما لها عن نواياه، وعما يدور في بالهما، وهي تحلم أن تزوج ابنها، وفخرها، وتحمل أبناءه، وقد انتقلت من الحي القديم إلى القصر الجديد الكبير، وتغيرت طنجة كلها، وأصبحت خليطا غزيرا من كل الأجناس، وتعقدت العلاقات مع الكثير من نساء التجار، والأحلاف والقبائل، وصار لديها عبيد وجوار، وأملاك وبساتين ومزارع.

ترخي الحديقة الغناء سدول أشجارها كحورية، أفلتت شعرها للريح والفضاء، وتجلس الأم في وسطها، وقد وضعت النساء العاملات على المائدة ما لذ وطاب من المأكولات، والحلوى، وقد اتخذتها فرصة لتنادي القريبات والبعيدات، ما دام ليس هناك رجال في البيت، ونظمت حلقات ذكر، وجلسات ما بعد العصر، لتسلي نفسها، فغياب الزوج والابن، لا يملأه إلا الانشغال بالنميمة، وقصص النساء والكذب المسترسل بلا انقطاع تسلية، ومتعة وعادة نسائية منذ القدم.

سجن صحراء العراق 2016

مرت أشهر على مكوث الطبيب والراعي في سجن بصحراء أرض العراق، لم ينتبه لهما أحد، بل ازداد عدد السجناء، وكلما وصل سجين جديد، يسأله الطبيب عن مدينته، ومرضاه فيها، وابن بطوطة يراقب عن كثب، ويستمع إلى الأخبار، بينما الراعي الذي يسكنه، قد فقد ذاكرته، وأصبح ثقيل النطق والحركة، فهو ينام على جنبه طوال الوقت، وأهله يحاولون جاهدين الوصول إليه، لكن دون جدوى، حتى أنهم حاكوا قصة شجار بين رجلين، ودفعوا لهما، لكي يدخلا إلى السجن، ويصلا إلى ابنهما في محبسه، على أمل أن يخرج في يوم ما، فباءت هذه المحاولات بالفشل الذريع.

ولم يتجرأ أحد من الأعراب ولا سكان مدن العراق أو سوريا التي أصبحت تحت حكم هذه الجماعات المسلحة، والمتسلطة باسم الدين، أن يتقمص دور المتدين أو يدعي أنه مع هذا الحلف الذي يتشح بالسواد، حتى أحس ابن بطوطة أنهم من العباسيين، فمالت روحه لهم، ولكن خاف على سره الذي باح به للطبيب، ولا يستطيع الخروج، لأن الراعي لا يقوى على المشي، وساءت حالته مع مرور الأيام، وأوضاع السجن المزرية، ونخر الحر والبرد عظامه الهشة.

كان الراعي مثيرا للشفقة، ومحط اهتمام الطبيب، الذي يداوي المعتقلين، وانتشرت بينهم أمراض جلدية من سوء الأوضاع وقذارة المكان، فالبعوض يتنقل بينهم يمص دمائهم، وتلتهب الأجساد، كما أن الكثيرين مصابون بالجفاف، وانتفاخ البطون، والثعابين والعقارب تهددهم فهي تشم روائح البشر عند بعد وتزحف من الصحراء الحارة والقاحلة، ويسمعون أصوات الفحيح ليلا، وكذلك أصواتاً تشبه الأجراس، والبدو منهم يعرفون أنها الأفاعي ذات الأجراس في الذيول، وتهزها تنادي بعضها، أو تنادي إناثها الذكور في أوقات التزاوج، وما حماهم منها نوعا ما، أن ابن بطوطة والراعي أيضا، يعرفان رائحتها، ويشم ابن بطوطة رائحتها عن بعد، ويحذر منها، ولم تكن

لغرف السجن أماكن تسمح بمرورها، لكن الجنود والحراس لدغت منهم ما تيسر لها، ولم يستطع الطبيب إنقاذهم، فماتوا وأكل الرمل جثثهم في محارسهم أو في قلب السجن.

بات الراعي مثيرا لشفقة الطبيب، وابن بطوطة يثير إعجابه، فهو أصبح مدمناً على هذه الحكاية السرمدية، والسحر الذي يتحرك بها، ولم يعد يخفي شيئا من شغفه، وولعه بها، وابن بطوطة يسحره، ويقص عليه بإسهاب دقيق، ويحفظ عن ظهر قلب هذه المخطوطة، فقد وجد أن صدره أكثر مكان آمن للحفظ، بعدما أفرغها على أحد حكماء الهند بعد رحلات الشام ومصر والحجاز والعراق وفارس وخراسان والعودة إلى الحج والذهاب لليمن ومن ثم بلاد الصومال والسودان وقبلها العودة سرا إلى دمشق لكي يرى زوجته وابنه، ولإتمام مهامه التي تركها وراءه وهرب خوفا من بطش المماليك وانكشاف أمره، وبطريقة معقدة خرج إلى الحج، ليكمل المهمة، ومن ثم العودة للديار.

وكاد ينكشف أمره في بلاد الهند والسند، ولكن الهنود سرقوا ما لديه من مال، ورموا بالمخطوطة في النهر، وهذه المرة هو في أمان بالسجن، ويعرف أنهما لن يخرجا، أو سيتدبر الأمر، وقد يكون له أعوان بين المساجين أو من ذوي الرايات السوداء، وستختفي المخطوطة إذا كان هناك خطر محدق به.

استكمل السجانون مهامهم في التنكيل بالمساجين، ولم يعد الطبيب قادرا على التركيز، من كثرة طلبه لمداواة الجرحى الذين يقعون تحت التعذيب، ولكثرة آلام المساجين وأنينهم تحت وطأة الخوف والألم، والعذابات النفسية، وعامل السجن كان متعباً أيضاً، وفي كل يوم تأتي شحنة لمساجين جدداً من مدينة يروي أبناؤها أبشع الروايات عن مشاهد القطع والتمزيق، والتمثيل بالجثث ليكونوا عبرة لمن بعدهم، وليدب الخوف في كل أرجاء المعمورة، حتى أن كثيرا من هذه المشاهد مصور ويبث في كل الدنيا، ووصل الحال في السجن إلى أن ينام السجناء بالمناوبة، لعدم وجود أماكن كافية، فينام فريق ساعة أو ساعتين ومن ثم يتم إيقاظهم، ليقفوا وينام الباقون، والعائدون من التعذيب يروون عن أصناف العذاب في الأقبية والعنابر، حتى أن بعضهم جاؤوا من سجن تدمر إلى العراق، بعد إلغاء الحدود بين الدولتين، لتصبح دولة واحدة، ومن تلك السجون جاء أناس من عشرات السنين لم يروا النور، وأكثرهم مشوهون أو فاقدون للذاكرة،ومخلوعي الأسنان، ومفقوعي العيون، أو مبتوري الأطراف ومجدوعي الأنوف، وابن بطوطة يجلس يحملق فيهم، ولا يعرف عما يتحدثون، ويستغرب كيف تم

تفريخ كل هذه الدول، حتى على أيام حكم المماليك والدويلات لم تكن هناك حدود، ولا كل هذا الإجرام، ولا التشرذم، والراعي لا يعرف شيئا عن هذه الحياة لأنه ابن صحراء يتوارث حبها، ويتخذها موطنا، ولا يرتضي أي بديل عنها، بينما الطبيب المشغول بالحضارة، والوطنية، والقضايا التي يخلص لها، والسجناء مهمومون بأنفسهم وأهاليهم، والحال المزرية التي وصلوا إليها، فمن طغاة إلى طغاة أكثر عنجهية وقتلا، فأؤلئك كانوا يحاربون الدين، وهؤلاء يحاربون باسمه.

أصبح بعض الجند يختلطون مع المساجين، ولمس الطبيب وبعض المتعلمين من غير العوام الذين تغص بهم العنابر، وجود أناس غير ناطقين بالعربية، ولا يميزون رطينهم، وبعضهم يتحدث بإنكليزية سليمة، وفرنسية صحيحة، وبعضهم يتحدث الفارسية، وانتبه ابن بطوطة للفارسية لأنه يجيدها، رغم اختلافها عن اللغة القديمة، فهو يميزها جيدا، لأنه عاش في تلك البلاد برهة من الزمن، واستغرب الطبيب أن من يتحدثون تلك اللغة جافون، وصارمون، وهم قلة لكنهم مسيطرون، ولا يصلون مع الجند ذوي اللحى، ويعنفون العرب، ويتعاملون معهم بفوقية عالية.

وسمع ابن بطوطة لهجات المغرب، وأحس بالفخر لأنه مع كل هذه السنوات لم تتغير كثيرا، وتمنى لو يسمع أحد يتحدث بالبربرية لينعش لغته، ولكن لم ينل هذا المراد، فلا أحد يتحدثها، حتى وإن كان بينهم بربر، فهم يخافون الحديث بلغات غير مفهومة ويعاقبون على مخالفة الأوامر.

صفن ابن بطوطة واستجمع ذاكرته عن أوضاع تلك البلاد وأهلها، وتجادل كثيرا من الطبيب الذي يكرههم، بينما ابن بطوطة يجد فيهم البساطة، والعلم الغزير، وحاول إقناع العجوز أن بعض الفرق منهم كان العلماء ينبذونهم، وليس كل الفرس أعداء للعرب، طاردا شبح الظغينة من عقل رفيقه.

أخذ الطبيب حريته، بمرسوم من والي السجن وقضاءالبادية، لكن جرى توظيفه في السجن لعلاج المساجين والسجانين، فوافق شريطة أن يتخذ الراعي خادما له، فقالوا له كيف تطلب عاجزا، فبرر طلبه بأنه يعطف عليه، فأخرجه معه إلى غرفة فيه نصف حياة مقارنة بالعنبر الذي كانا فيها، وأخذ الأوراق معه، فأخفاها في ثياب الراعي البدوي، فهو يرتدي ثوبا واسعا، وليس كما يلبس أهل المدن السراويل، والقمصان الضيقة، وابن بطوطة يختبىء داخل الجسد لا أحد يعرف عنه إلا الطبيب العجوز، الذي يعمل طبيبا في النهار، وفي الليل عندما تنام عيون الجنود يتحول إلى وراق نجيب.

عم السلام السجن أكثر من عام، والهدوء يسيطر عليه، فلا تمرد مثل بقية السجون، ولا مباغتات، أو تهديدات، وانتعش حال الطبيب ورفيقه، وكانت تصلهم المؤن وتقام لهم الولائم من شيوخ القبائل، الذين يقدمون الولاء والطاعة لهذه القوة الغالبة، كما أن الكثير من الدعم يصلهم، ولا يعرفون من أين، ولم يكترث الطبيب العجوز ولا الراعي ولا ابن بطوطة فهم معتادون على الوضع، وتغير حالهم للأفضل، وانهمرت الأحداث في مخطوطة ابن بطوطة، ووصلوا إلى أصفهان، التي هاجر إليها مسعود بن جابر، ومن ثم سيعود ابن بطوطة إلى طنجة حيث يتجهز للهجرة الأبدية، والبحث عن خلوده.

بلاد فارس وخراسان 724 **هـ**

في أصفهان حيث يعيش «عطيل» ما بين مدن خراسان، وفارس، وسمرقند، زاهدا في أواوين جامعها الكبير،يملؤه الورع، ويقطع المسافات بين جسور نهر زايندە، والأودية، ولا يجد أية صعوبة في التأقلم أو تيسير أموره، فالكثير من العرب الهاربين من وهن بلادهم، وجدوا فيها الخير والاستقرار بعد أن تركها المغول مؤقتا، فأمست ملاذا آمنا، ومكانا صالحاً للعيش، ولم يترك عطيل «سمرقند» الخلابة، فقد تجول بين قصورها، وأسواقها، وقراها المتناثرة، واتخذ وكلاء لتجارته في الكثير من المدن، ولم يكن أحد يعرف أنه قد جنّد الكثير من التجار، ليكونوا صلة الوصل مع بغداد والمغرب، وجنوب فارس، ويجوبون بحر القلزم، ليصلوا إلى مكة بالسر، لينتقلوا منها وعنها أخبار العلماء، ولكنه كان يتعاطف معهم، ولا يسلم بقايا المغول المهم منها.

وأخذ يدفع للتجار من أهل خراسان، وإفريقية، وحتى العرب بسخاء، ليجلبوا له أجود العبيد كي يعملوا في بناء قصور سمرقند التي هدمها المغول قبل أعوام، وليس للجواري أي طلب، ففي قلب آسيا تصل سبايا الجواري، من الغرب والشرق، وجمال نساؤهم لا وصف له، فهن ناصعات البياض، وفيهن السمراوات كالحنطة، ومنهن المشعرات من الفارسيات والأتراك، ومنهن الملساء وبعيون كغار النمل من الصين والهند.

وقم التي بها قبر فاطمة ابنة الكاظم حفيدة علي ابن عم رسول اللّه، كانت مختلفة عن بقايا المدن، ورسالته التي وقعت في يد زوجته المهجورة، أوحت لمن قرأها، أنه قد سلك ديناً آخرا، وكان مقصده، تأمين مسالك تجارته، وتغيير بيئته، ولو أن اعتناق الصوفية، جعلته قريبا من شيعة تلك البلاد، وفي

أصفهان هو في حظوة كبيرة لدى السلطان مبارز الدين المظفر والإلخان المعظم.

اتخذ محظيات له، من بيض، وصفر، وسمر، والنحيفات، وكثيرات اللحم، والطويلات الشامخات، والقصيرات الملهيات، ولم يشأ أن يكون له أبناء، ولكن عندما تحمل الواحدة منهن، فهو ينتظر حتى تضع مولودها، فيبني لها بيتا، ويؤمن لها مصروفا، ومن ثم يهجرها، ولا تطأ قدماه، أرض منزلها، ولا يرى ولده.

وكان دائما يرسل لابن بطوطة، وقال له في أحد رسائله السرية:

«كل شيء يلمس قلبك فهو لك، وما إن لمس عقلك أو تمكّن منك، فالانعتاق منه وهجره أخير وأصوب، حتى وإن سكن روحك، وكل شيء يتبدل في روحك، حتى الأهل، ومن كان لك وطن فلا وطن له، فوطن الإنسان روحه، والسماء»

لم يكن منغمساً كثيرا في ملذاته، والعيش الرغيد، بل كان حريص على الأمة، وبلاد المسلمين، فنذر عمره، يحيك العلاقات السرية، والخفية، ويربط بين الدويلات العربية من بغداد وخراسان، ودمشق،وبيت المقدس، ومكة، والإسكندرية، والقاهرة، وتونس، وتلمسان، حتى طنجة وبعدها الأندلس.

رسائل ابن بطوطة لا تخلو من نفس المقصد، والأماني التي لا تزال في طور التشكل، والنمو، لكنه لا يزال يحارب خوفه، يحاول التغلب عليه، ويعرف أنه سينذر روحه لمصالحه، وويعمل من أجل دينه ودولته، ويدخل في سلك العمل الدؤوب والمقدس مع عطيل، وأبيه، وحكام البلاد الإسلامية، الذين تربطهم خيوط، لم تكشف لأحد، حرصا على استمرارها، وخوفا من مكائد قطعها، وقد كثرت المصائب، وانتشر الجهل، والخيانات، كالطاعون.

«لقد وصل بي العمر مبلغ تحقيق الحلم، وسأنضم إليكم، وقد نذرت أيامي، وسأنثرها كالرماد في بلاد المسلمين».

ابن بطوطة الذي أصبح يسعد بأن الناس يميزونه بهذا الاسم أكثر من اسمه، أو أن ينادونه بتلك الكنية، كما جرت العادى بأن يكنى الفتى بأبي فلان، على اسم أبيه، ولو لم يكن قد تزوج، وليس له ولد، قد زاد تأثره بعطيل ولم ينقص.

واستطاع هذا الشاب أن يكتم السر عن أبيه، وعلى ابنة جبرين التي كان الأقرب لها بعد أمه، في طنجة، وكل الدنيا، وما إن يجالسها، أو يحدق بها، حتى يتفطر قلبه، ويتكسر، مثلما يحصل بالأرض التي يمر بها الماء، ويجف، فيتحول الطين إلى قطع متكسرة من الحجر، فتختلج في قلبه الإنسانية، وترق عاطفته، لولا أنه يرى في أن هناك ماهو أهم من كشف السر، ويعلم أن تتمة الأمر في كتمانه، وأن الأشرار لا يفنون، ولا ينتهي الشر في العالم، وأن له أهلا لو علموا أو اشتموا خبرا، فلن يتركوه يمضي في غايته.

انشغل عطيل في الترجمات، فقد ساهم بنقل الكثير من كتب الأندلس وعلماء الدين من العربية إلى لغات المنطقة، ولكنه لم يشتغل في الدعوى، أو رد الناس إلى طريق الصواب، بعد أن دمرت جحافل المغول قراهم، وأحرقت المكتبات، وهدمت الجوامع، لأنه كان يرى أن بناء الإنسان من داخله، وترميمه مسألة شخصية، والعمل الديني هو سلوك فردي، وكل وصنيعه، وما تقترف يداه وحواسه.

وتمنى لو أن ابنة جبرين معه، فكان كلما جلس في أطراف الليل، يزرع عينيه في وسط السماء، يستذكر حكاياها، وكلما قرّب أمة من إمائه إلى فراشه، وشم منها رائحة فم أو جسد نتنة، طردها، ودعا لعودة فراش ابنة جبرين،وروائحها وسحرها الذي كان يغشاه، حتى أن رائحتها لا تفارق أنفه، وكان يتجلى في كثير من اللحظات، ويستحضر حضنها، ويزمجر، ويلهث، ويتبلل بمائه، وهو يتخيلها، وكل ما سألته نفسه:

- **لماذا لا تعود لها، أو ترسل في طلبها؟!**

ليرد بشغف مقموع:

- **قمة التجلي في التخلي.**

وتتلاقى أرواحهما عن بعد، فتجدها بنفس التوقيت، تحس بأنفاسه في وجهها، وهو يدس وجهه في رقبتها، فتحس بالحرق أسفل أذنها، ويداه تعصرانها، وتكبلانها بقوة، حتى تتكور، وتئن كالقطة في الشتاء.

يمد كل منهما إلى الآخر فيقبض على الهواء، ويشتاق ويصرخ إلى داخله، لو خرج الصوت لهز أعمدة العالم، وينتحبان، كما ينتحب راع عبر ناي.

يذوب الليل من حرارة أشواقهما، ويتلحفان العراء، وينامان، يستذكران أحلى أيام العمر، ويعلمان أن الحكايا لم تعد تفيد، بل على العكس لا حلول معها،

غير زيادة الألم.

عطيل كانت تأسره فتنة العقول، وسحر المرأة الذكية، وقلما يجدها، لأن حاجز اللغة كان حائلا بين حبه للفصيحة البليغة والحصيفة المغناج، وبين من يجدها طرماء، بكماء، تنفذ رغبات سيدها وطلباته.

يحارب رغباته بالعودة إلى عشقه الأبدي، ويهرب إلى النسوة الأعجميات، والجواري الخراسانيات والفارسيات، ليتخلص من سحر ابنة جبرين العربية الذي يحاصره أينما ذهب في كل المدن والقرى التي يمر بها، ويود لو يستطيع أن ينتزع ذاكرته ودماغه ويرمي بهما في أي نهر أو بئر يمر بها.

يتكىء على قلبه، وقلبه مترع بهمه، فألم الفراق عن الوطن، والأصحاب، ينخر الجسد، ويقضمه من الداخل، كما ينخر السوس أعواد شجر التوت، فتبقى هياكلها، وتفرغ من لبها، وجوهرها،وتمسي خاوية، وهو في خريف العمر، وقد بدأت أوراق أيامه تتساقط، وصحته تتهاوى، ويجبر نفسه على السفر، ما بين بلخ وهراة، والعودة إلى أصفهان، ومن ثم سمرقند أو غزنة، يلاحق تجارته، الواضحة للعيان، ورغباته الكامنة في جوفه، واتفاقاته الخفية غير المدركة إلا لحلقة مغلقة، لحراس العقيدة، الموزعين على مناطق العالم، فهم أجناد السلاطين، وحماة الدين، وهيكله المهدد بالسقوط، فلا يتركونه لعبث المارقين، ولا الكائدين من قريب وبعيد، ومسلم وغير مسلم.

يكتب عطيل الرسائل السرية، بحبر شفاف، وبكلمات غير مفهومة، بلغة خاصة، تدرب عليها في بغداد، على أيدي خدّام الأمة من الفرس والعرب، ويستقبل الرسائل من مكة، ودمشق، والخليل والقاهرة، وسائر أفريقية والأندلس، ليعرف ما يدور، وينقل ما لديه، وقد تواصل في نيسابور وأصفهان مع التجار ومؤيدي»الحشاشين» واكتسب منهم بعض الأفكار، وأوهمهم أنه متعاطف معهم، ومعتنق لأفكارهم، ولو علموا ما يكون وما يعلم لقاموا بتصفيته مثلما يتخلص الإنسان من بعوضة.

يدرك أن التضحيات الكبيرة، ستؤتي بثمار كبيرة ولو هجر ما يحب، من أرض وزوجة، فإن التاريخ سينصفه، ويقف في صفه، وسيقف في وجه يأسه، بجلد الأجداد الأوائل الذين بذلوا الغالي والنفيس لنصرة الإسلام.

وابنة جبرين القاطنة في آخر العالم، يغلي دمها في عروقها، مثلما يغلي القطران الأسود في جوف صحاري العرب، وقد دمرها الحنين مثلما يدمر المغول القرى التي يمرون بها، فيحيلونها كالعصف المأكول، لكن بقي قلبها سالماً، وسط جسدها الذابل اليابس، المهترىء، وفيه يعيش وتحميه بحبها،

فهي ترسله له كل يوم، أكواما من الأدعية، والأماني المستحيلة بأن يحفظه اللّه، ويصونه، ويعيده لرشده ولها، وكأن قلبها قد أحس بما هو فيه، وأن خروجه وهجرته لغاية شرف وليست لترف.

يحملق في النافذة المطلة على رابية كثيف زهرها، وشجرها، يتابع صوت هدير جدول الماء في بستان قصره، المشيد على كتف الهضبة، ومن حوله الحقول التي يلعب الهواء بعشبها الطويل، مثلما كان يلعب بشعر ابنة جبرين الذي يكنس الأرض وراءها، ويلفه بصعوبة، عندما يتجهان إلى غرفة النوم، لكي لا يتلف حوله، ويكبل حركته، ويصعب فك عقده، وكأنه دودة قز ملفوفة بخيوط الحرير.

ويتخيل وجهها الفيروزي المضيء، مع ضوء القمر المعكوس على سطح الماء، فتكسره الرياح، ويرفع عينيه إلى السماء، فيرنو إليها بنظرة رجل مثقل بالصبر والصمت، والحكايا، والأسرار، لكن قلبه حي بالإيمان، والحكمة، والفضيلة التي يرى نفسه أنه يمارسها، ويحرسها، وينذر نفسه وماله، وما تبقى من عمره، في دروبها المتعبة.

يستل يده من جيب ردائه الفضفاض الذي ينعم جسده وسطه بالراحة، والاستمتاع بالهواء العليل من كل اتجاه، ويقبض على اليراع، ليبث فيه ما بعقله بإسهاب، فيكتب عن المناطق الجميلة، ويصف الخمائل المعلقة، التي تزيّن ما بين الأرض والسماء، وعن الجداول والسواقي البادرة، والأسماك الصغيرة تسبح عكس مجرى المياه الشفافة فيها، ويتغزل في حقولها الخصبة، وخيراتها الوفيرة، والأشجار المرتوية كالنساء المليئات باللحم، ويتغنى بنشاط أهلها، من الصباح الباكر، وحتى نوم الشمس عند المغيب، وانسكاب السواد على جدران السماء.

يدوّن في مذكراته كل ما يمر في طريقه، وفي درب مخيلته، فيمتدح براعة العجم في الصناعة، وانغماسهم بلا ملل، أو كسل، في العمل، ويذكر أن العرب لو حاولوا أن يكونوا مثلهم، لما استطاعوا أن يجلسوا في الغرف الضيقة الصغيرة ساعات طويلة، يصنعون الزجاج، أو يحبكون النسيج، أو ينشفون الأفيون والتبغ، أو يجلسون تحت الأرض في غرف بلا تهوية، يتسلون كل الشتاء، في الحياكة، أو ضرب الحديد، وعلى أقل تقدير، تجفيف الخضروات، وتنظيف القطن من الأغصان وندفه، وغسل الصوف وغزله.

ويذكر في كتاباته أنهم أهل صنعة، وذوو جلد وصبر، ولا يطيق غيرهم ما يحتملونه، فالفلاحون منهم يحرثون الأرض حتى يصلون إلى قلبها، ويسلخون

جلدها، ويقلبون ظهرها على بطنها، ويخرجون جذور الأشجار، والأحجار، التي تشبه الكحل، وبقايا المحاصيل، ويدفعون البغال والثيران لحرثها، وزرعها في السنة مرتين، فيزرعون الذرة والقثاء التي يسمونها خيارا، والطماطم والفستق، وفي الشتاء القمح والشعير، والبساتين تفوح منها روائح التفاح في الربيع، وسرعان ما يتحول الزهر المترع بالعبير، إلى تفاح بألوان مختلفة، كالأخضر والأصفر والأحمر.

ولا تتطرق العين الخفية، والحارس المخلص، لأي شيء من أعماله، ولا يصف الساسة، أو الفرق التي يستهدفها، أو يراقبها، فيزحف بتجارته صوب سمرقند، التي أعاد المغول بناءها، واتخذوها عاصمة لهم، ليعرف أخبارهم، ويجمع القصص، ويلتقط الأنباء بحذر شديد، فلا يمكنه زرع البصاصين في الطرقات وخلف جدران البيوت والقصور، فتنكشف الشبكة، ولا يبحث عن صغائر الأمور من معلومات، بل يغوص هو وأعوانه في أعماق المدن، يتزوج منها، ويضخ أمواله الكثيرة فيها، ويقيم سنينا، حتى لا يشك أحد به، ولا يثير الارتياب.

وفي كل مدينة تحط أرجله فيها، يشتري عبيده وجواريه، ويكثر من الزرع والبساتين ويبني بها الأكواخ الطينية للمزارعين، وتدر عليه من خيرها، وفي أحيان كثيرة يجدها مهدمة، ويملأها الخراب، وقد اصفرت أشجارها، وتركها العبيد هاربين في أرض اللّه الواسعة، بعدما قتل أصحابها وسادتها، وتبدو المزارع والقرى كأنها أرملة يباب بلا رجل ولا حياة.

كان دائما يمد يده إلى السماء ويلهج بالدعاء:

رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي.. ربي لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين.

وكأن أمنيته أن ينشر أولاده في البلاد من الإماء، وما ملكت يمينه، ويرى فيها عبادة وتقربا وتضرعا، ولو أنه وهب عمره للدعوة، والذود عن بلاد العرب، وعن عقيدته، فتحول إلى صوفي زاهد، وكلما تقلب بين النساء، والبلدان، بات كالطقس في كل يوم على حال، وفي كل موسم صفات مغايرة، وتنخر فيه صفات العرب الأوائل الذين كانوا أوفياء لأنفسهم، وليس لأي مكان، أو امرأة، فمرة يريد الولد والتلد، ومرة يطلق من تلد سواء ولدت صبيا أو بنتاً، ولم تؤثر عليه صفات أجداده المحبين للذكور، وتنشرح أساريرهم عندما تلد نساؤهم أولادا، ويكفهرون عند ولادة الإناث.

في أحد الصباحات، أطلق العنان لرجليه، ومشي بلا دابة، يمتطي صهوة أفكاره، وتجول ما بين جسور أسفهان، ووقف على جسر شهرستان، يرنو إلى الطرف الثاني من النهر، ويرى الناس في غرف الأغاني، كلما انتهى منشد، حل مكانه واحد آخر، وتتخلط الأصوات العذبة من النشاز منها، وتضيع في أفق النهر، وصوت الماء المترقرق، ويتفكر في وضع أهلها مابين حكم سلجوقي من الأتراك، ومن ثم أحفاد جنكيز خان، وما بين هذا وذاك، فعلى نفس هذا الجسر اغتيل الخليفة العباسي الرشيد بالله على أيدي الإسماعليين، الذين صفوا الكثير من العلماء، ومن قادة الدولة والولاة والصالحين.

وانصرف إلى الجسور الأخرى، يسمع رطين غير الناطقين بالعربية، ويدلج إلى الأسواق الشعبية، على أطراف المدينة، يشم روائح التوابل، ويشهد بيع الفستق، والفواكه المجففة، والطازجة، ويستغرب كيف لهذه المدن أن تقوم وتنهض من جديد، وكيف تحب هذه الشعوب الحياة، ومجابهة أهوالها، بكل صبر، وعزيمة، وقد ارتسمت على وجوههم علامات تأثير السنين، وتعبها، من تجاعيد، وذبول الخدود والعيون.

وفي الوقت نفسه يجد عطيل في هذه المدن في فارس وخراسان نشاطا وتنافسا محموما، بين الطوائف والأعراق، فيختلط الطاجيك والأذر والعرب والفرس، وغيرهم من الشعوب، وينصهرون في بوتقة واحدة، وهي الإسلام، بغض النظر عن المذاهب التي يتناحر أهلها فيما بينهم، وعلى بعد فراسخ قليلة، يقع معبد النار الذي بناه الساسانيون على قمة جبل، ولكن أطفأ المسلمون نارهم، وانخدمت عقيدتهم في هذه الديار.

عند عودته من فوق الجسور، تذكر أبا فرج الأصفهاني، وهو العربي سليل بني أمية، والذي كان مولعا بالموسيقى، وكتب في مذكراته، أن هذا الرجل، أول من وثّق الموسيقى، من الجاهلية وحتى كتابه، ونسب نفسه لهذه المدينة، لشدة حبهم للأغاني، وكثرة مغنيها، الذين لم تخمد الحروب والقلاقل أصواتهم الشجية.

ويقص على من يجد هذه المدونة من أخبار، وذكريات، وعلى هوامشها، يضع رأيه، ويصب شيئا من شعوره، وما تأثر به.

صحراء الفرات 2017

تعاظم شأن الطبيب العجوز، فقد بات مطلوبا مع تضييق العالم على الجماعات التي تحكم الصحرا الشاسعة والمدن المبعثرة، وريفها الفقير

المكدس بالقرويين البسطاء، وأكثر من تنقلاته وتجواله، مع رفيقه المتلاصق معه، وقد خاب ظنهما بأن مدة السجن في العنابر الأشبه بالقبور الضيقة لن تنتهي، وما إن دب اليأس بهما، حتى جاء الفرج من اللّه، ومن حيث لا يتوقع أحد، فالوالي متعب ومتوتر ويبحث عمن يزيل قلقه، وهم محاصرون، وقد فشل الأطباء والمستشارون المخضرمون، والطائرات التي تلقي عليهم المساعدات والأسلحة سرا، غير قادرة على حل مشكلة القائد المتفرعن، فهو في كل يوم يسهر لغاية الصباح، يراقب، ويحاسب، ويحاكم، وينصرف الأتباع، ليأتي دور الطبيب الذي امتهن دور الحكاء الماهر، مستفيدا من دروس ابن بطوطة، ويقول في خلده، لقد نفعت أيها الراعي المجنون، فبت شهرزاد لدى الخليفة، ولو أني أكرهه، وأكره هذه النخاسة، لكن أصبحت أكثر قدرة على تحمل المصاعب، وإدارة عواطفي وغضبي، وتعلمت منك كيف أجعل ملامحي حيادية، ولا تكشفني، فالملامح الصحراوية واضحة، وعارية من أية تصبغات، ولا يمكن إخفاء أي حالة أو شعور يسيطر علينا.

ترك الطبيب مهنة الطب، وتحول إلى معالج نفسي، ومسل ضد القلق والتوتر، والتفكير الزائد، ولا يحتاج إلى مراجع، أو دخول جامعة، فالرحالة هو خلاصة جامعات، والمراجع الكامنة في رأس راع، لا يعرف عن دنياه شيئاً.

تغلغل الإيمان، وسطعت شموسه في دهاليز العجوز المظلمة لسنوات، معلناً توبته لربه في سره، وعاد إليه متضرعا أن يغفر له، وقد حسبه ابن بطوطة، وحاشية الأمير، يمثل، ويصلي خشية تطبيق الشرع عليه، أو تقربا لهم، لكن بداخله رجل صالح قد أفاق من غيبوبة طويلة، مثلما أفاق ابن بطوطة من سباته الممتد منذ سبعمائة عام.

شهدت المنطقة مجازر من كل الأطراف المتصارعة، فنشبت صراعات على الأرض والنفط والناس، واستغل العالم المتقدم ثورات الناس في طرفي المعسكرين اللذين شكلهما الغرب من ضباط يسيطرون على أراضي وبلاد الدولة العثمانية، واحتلها الإنكليز والفرنسيين حوالي عشرين عاماً، وعندما برزت تحالفات وقوى جديدة كأمريكا، تبخرت أحلام القوى العظمى وأبناءها في المنطقة، فالرجال الذين يختفون خلف مهن علم الآثار أو الدوارة على الحمير بين القرى، خططوا المناطق، واتفقوا على تقسيمها بينهم، وغيروا خططهم، وزرعوا رجالا من أبناء المناطق تابعين لهم، وفتتوا الأراضي، وتقاسموا الغنائم والرعايا، وكل شيء.

استكملت القوى أحلامها النائمة منذ سنين، وعادت عن طريق أناس يحملون ألوية اعتبروها امتداد لأزمنة انقطعت منذ موت ابن بطوطة اغتيالا هو

والسلطان المريني ووزيره ابن جزي الذي دوّن المخطوطة الثانية، فقد انكشفت أمور الدولة السرية وخلافة الظل لاستعادة أمجاد العرب والمسلمين، وأطاحت بهم الخيانة، فهرب ابن بطوطة الحقيقي، وتفرق أعوانه بين القارات، ولكن مع الدولة المزيفة أصبح من الضروري جداً عودة ابن بطوطة لها، لكي يثبت أنها غير حقيقة، وتضليل جديد، وفخ لن يقع أبناء هذه الأرض على رؤوسهم، وهم معتمدون على البصيرة لا البصر، وعلى عقولهم لا قلوبهم.

الطبيب العالم لم يدرك جهله إلا متأخرا، وربما بعد فوات الأوان، والراعي الجاهل الذي لطالما سخر من أميته، ومن خرافة الجن، ناسياً أن أرض الديانات تغص بالخرافات، والحقائق المجهولة، فليس شرطاً أن تكون أمياً لتكون جاهلا، ولا أن تحمل الشهادات العليا، ويقمر ليلك، لتكون عالماً بكل شيء، فقد تعمه وتكون مصاباً بالعته وغارق به، ويضع اللّه سره في أضعف خلقه.

استعاد الأمير الذي يخضع له تابعوه والمناطق سيطرته على نفسه، بعد أن جلبوا له الجواري والسبايا من الديانات الثانية، واستعاد زمناً غابراً، واعتبر هذا المجد بأم عينه، وجلس على الأجساد، يحكم ويأمر وينهى، والطبيب يخلق له الحكايا والأساطير، ويبحث بين القرى عن الأساطير فينبشها، ويضيف التفاصيل إليها، مع رفيقه المختبىء غير المعلوم لأحد، وأمسى هو المستحكم بأمور الرعية، وجعل الأعداء الخارجيين والداخليين ينشغلون عن الفقراء والسكان المساكين، وأعاد ما استطاع من أبنائهم، وحما بناتهم، بعدما أسر له ابن بطوطة، أنه في المذاهب الأربعة، لا يجوز سبي المسلمات، ولا يجوز بيع الأطفال والعبيد من أبناء المسلمين، وأقنعهم أن هذا سيشوه سمعتهم، ويهدم ما بنوه، وهم المعتمدون على التشدد والدين والخوف في السيطرة على الخلق.

بعدما لمعت الفكرة في رأس الطبيب الأصلع، وتزحلقت حتى سقطت في حضنه، فاحتضنها بقوة، وقال لابن بطوطةبلهجة عامية:

- **يا ابن الجنية، من وين لك هالفكرة.**

ورد باستغراب وعدم فهم:

- **لا أفهم، عاميتك عربية، ولكن لتوضّح أكثر ياعم.**
- **آه نسيت، لقد آمنت بك، آمنت بأن هناك جن، وفوق كل**

ذي علم عليم، سبحان اللّه ما أعظم قوته، من أين لك كل هذا العلم، فقد عادوا إلى مفتي السلطان التابع لهم، وثبت صحة كلامك، فهات برهانك.

- **في القديم كان المماليك يتعاملون مع سماسرة العبيد، ويحتالون على الأمر بسبي أطفال وفتيات من ديار المسلمين من القبيلة الذهبية، لأن العداوة محتدمة بينهم، وسنأتي عليها، فقد نسينا عملنا المقدس، وانشغلنا بتأليف القصص.**
- **لا عليك، لا عليك، سنكمل، لكن أين وصلنا؟**
- **وصلنا إلى تجهيز ابن بطوطة للحج، وسنمر على المماليك في مصر ودمشق، وزيجاته في أفريقية.**
- **يبدو أن أمامنا عمل كثير، لأدرب عقلي على سعة الاستيعاب، وتصديق مالا يصدق.**
- **لنعد إلى مخطوطتنا، لننتهي من طنجة وما فيها، ونأتي إلى بلادنا التي نحن فيها.**

طنجة 725هـ

برزت معالم الرجولة بشكل واضح للعيان على وجه ابن بطوطة، بلحية سوداء خفيفة، وشارب رفيع وكثيف، وقد ربى شعره، وربطه خلف عمامته، وبدأ يبلس البرنس، وتحته القميص المنسدل فوق السروال، مع نعل يسمع صوت طقطقته قبل وصوله لأي مكان، ويتعمد جره لكي يعرفه الناس من مشيته، لكن في الليل، وعندما يريد أن يسرق نفسه ممن حوله، فإنه ينتعل نعال البلغة الخفيف، محدودب الرأس، لكي لا يسمع أحد صوت جرجرته.

لا يحب في مشيته بالسوق النظر إلى النساء، واكتسب هذه العادة من أهله، فحافظ على صورة الفتى التقي الورع، فلو أرادت أي جميلة أن تهز قلبه، أطلقت عليه سهام عينيها، لكنه أحاط قلبه بدرع من الإيمان، وتغازله الفتيات، والنسوة البربريات ذوات العيون الملونة، والعربياتذوات القوام الساحرة، ولكن لم تطح به لغاية اليوم أي منهن، حتى أنهن تسابقن في من تفوز بقلبه، ولم يكن يعرفن أن الطريق إليه، ليس كباقي الرجال، وليس كما تفكر أمه أن قلب الرجل تكسبه المرأة بالطاعة، والأكل اللذيذ، والفراش الدافىء، فقد كان يبحث عمن تشبهه، أو يجد نفسه معها.

ظلت أمه تحاول إقناعه بالزواج من بنات الأعيان، والتجار، وسمحت له أن يختار على مزاجه، وقد تجاوز العقدين من العمر، ولم يفكر أو يفصح عن رغبته، بأن تكون لديه زوجة، وخشيت أمه عليه من أن يرتاد بيوت ذوات الرايات، أو يتزوج من ثيّب بالسر، بلا علم أهلها وأهله، وهو مطلوب ومرغوب لأنه ابن القاضي، وفتى مختلف عن جيله، وسابق لعصره وأوانه، والقاضي المستقبلي للديار.

في كل مناسبة، تناديه أمه بالخفية المرتبة مع أمهات الفتيات، فتطلب منه أن يطل من النافذة، أو من شق الباب، لتمر فتاة، وترمي عليه السلام، أو تكون شاردة وسائرة في طريقها، لتأخذ منه القبول، ما قبل النظرة الشرعية.

عبّرت الأم عن سخطها من عدم اكتراثه، وسئمت وهي تحاول إقناعه، وهو يعلق بكل تجرد على كل من تراها عينه، فيمتدح الجميلة، ويذم القبيحة أو المتينة، ولا يستحي أن يقول رأيه صراحة، في ذوق أمه، فتعاود طرح الأسئلة عليه، وتضيق الخناق:

- **مابك تجزع كلما ذكرت لك الزواج؟ ولا تعجبك أي فتاة من بنات الأخوال والأعمام، والأعيان والغرباء؟ فاختر من تريدها أنت.**
- **أنا زاهد الآن في قضية الزواج، وربما بعد الحج.**
- **تزوج واجعل شهر الزواج في الحج، أم أنك تريد أن تتزوج من الحجاز أو مصر؟**
- **لا أعلم، ولكن والدي حدثني عن جماعة من أهل إفريقية، أهل علم وتجارة، وقد أقصدهم وأقيم عندهم قبل السفر إلى مصر فمكة، ولي في نسبهم مصلحة وقوة.**

لم تمانع الأم، أو أنها لا تستطيع الاعتراض على مقاصد زوجها، وهي مؤمنة به، وتراه الكبير الحكيم، وصاحب الرأي السديد، بينما ابنها لديه أحلام وأفكار مغايرة عما ظنت وصدقت أمه، فهو يكمل المسيرة، وسيكون مرسالا، أو الشخص الجديد الذي يدخل في عصبة الأمة، والفدائي الذي سيجوب الأمصار، وينقل الأحوال، ويشترك في تجنيب الأهوال، وحفظ الأطراف، ووالده في طنجة، حيث الأمان، وفي ظل الدولة التي تقوم بواجبها على

أكمل وجه، في تدعيم أواصر الدين، وتحارب ببسالة، لتوحيد الدويلات، من تلمسان، وفاس، إلى ما بعد البحر في ممالك الأندلس.

ولم تدرك الأم أن الولد ذاهب بلا رجعة، وهي تحس بأن الفراق مؤقت، ولبرهة من الزمن، ولا تستجعله، بل تطلب منه المكوث أكثر في مدينة رسول اللّه، ليستزيد علمه، ويقوى عوده، ويشتد بأسه، ويكتنز الخير.

يداوم ابن بطوطة على دار القضاء، لكي يكون قريبا من والده، ويرتب أمور السفر، ومن أهمها ألا يسافر في قافلة الحجاج، لكي يستطيع السفر بعيدا عن طريقها المعتاد، ويمكث ويسير متى أراد في طريقه.

بعد صلاة العصر، ينسل من بين الزحام، في سوق المدينة، ويخرج منه إلى داخل أحد البيوت، ليستقبل تاجرا وصل للتو من الأندلس، وسيكمل طريقه إلى فاس، ليلتقي بالسلطان، وفي جعبته الكثير من الأخبار السيئة، والرزايا التي يرزح تحتها أهل المدن الواقعة على حدود ممالك أوربة، ولا يملك من الوقت إلا أن يرتاح قليلا، ويؤمن له ابن بطوطة حصانا، من سائس الخيل الذي يتعاملون معه، وفي المساء سيصطحبه إلى دارهم، ليسمع من والده الوصايا، ويأخذ منه ما يريد.

من عادة ابن بطوطة الاستماع الجيد، بلا مقاطعة، فقد اقترب من والده، ورأى كيف يدير دفة الحوار بالكلام الوجيز، والتفكير المستنير.

وعلموا أن وزير البلاط سيحضر إلى طنجة في طريقه إلى الأندلس، وربما يحج السلطان هذا العام، لذا كل من في الدولة، سيكون مشغولا بترتيبات حج أمير المسلمين، وقائدهم، وصاحب الفضل والفضيلة.

خلال أسابيع تعد على أصابع اليد الواحدة، حضر الوزير، ومعه عبيده المخصيون، وجواريه، بلباسه الذي يجعله متضخما، رغم صغر حجمه وكبر قدره والجاه الذي يجعل كل الأبواب والناس تحت إمرته، ورهن إشارته، ومكسب ثقة السلطان، والولاة، والقضاة وأهل الحل والعقد.

ينزل من موكبه بعباءة مذهبة ومطرزة الأطراف، ولباس ملون، وعمامة تخنق قلنسوة كبيرة تعتلي رأسه، وأول ما وصل طلب الرجال الثقات في اجتماع مغلق، لم يعرفوا ما يحمله لهم فيه، وكل من الحاضرين يحمل قلبه بين يديه، ويكاد يسقط على الأرض كالطير المرتعش عندما يصيبه البلل، خشية أن يقيل أي أحد منهم، أو ينقل لهم نية السلطان خوض حرب جديدة، أو فرض خراج أو مبالغ على التجار أو العامة، ولكن اجتماعه كان لتدبير أمور

الحلف مع الحفصيين، ضد الزناتة حكام تلمسان، حيث تئن الدولة المرينية، لأن هناك شوكة في خاصرتها، لا تمتثل لها، وعليها أن تخضع مثلما خضع الموحدون، ودويلات في الأندلس تحت قبة دولة العدل والإحسان، وسلطان الزمان، قاهر الأعداء، وباسط الرخاء والهناء.

وعندما احتك بابن بطوطة، وعرفه عن كثب، أشاد بالتوصيات التي وصلته عنه، ومن البصاصين، ومن قائد العسس، وغيرهم، ورأى فيه حماسة الشباب المخلص، ووفاء العائلة المعهود، والقدرة على التحمل والكتمان، والفناء من أجل قضيته، وأبدى الآخر استعداده لفعل أي شيء، لكي يخرج من عالمه، وينطلق نحو مستقبله، وتاريخه، ويخدم ما شاؤوا.

ووجد الوزير في محمد بن عبدالله أيضا، قابلية على التكيف مع كل الظروف، واختبره بأصعب الاختبارات، وأقساها، وطرح عليه أقوى الأسئلة، ووجده حاضر الذهن، آخذا للحيطة كل الوقت، شجاعا، ومهيأ من أجل مصلحته، بعمل أي شيء، وهذا ما يرتقي بتبادل المنفعة، كما أنه يتظاهر بالبساطة والمسكنة، وفي داخله غول كبير مسجون في جسد إنسان بربري من رعايا السلطان، وفرد من أمة الإسلام الكبيرة.

ما انفك ابن بطوطة يجهز نفسه للحج، حتى علم أن السلطان عدل عن فكرة الحج هذا العام، لانشغاله بأمور البلاد والعباد، والحروب، ووجد أن الجهاد واجب وحق، ووالده القاضي انشغل في الكثير من القضايا، وأمه مرتبطة بوالده، وابنة جبرين قد انصرفت في أمور حياتها، وعلاقتها المتشعبة، وأصبح الشرق والمغرب بين يديها، وتخطط للسفر إلى الأندلس، لتلتقي بأدبائها، وتزور مكتابتها ومدارسها.

وكل هذا كان مرتباً له، وجرى إعداد الفتى للحج، ليتخذ من أداء الفريضة التي يستطيع إليها السبيل طريقا، وطريقة لبدء رحلته السرية، ويدخل في قلب العمل السري المقدس.

اعتاد أهل السوق على حضور الدجالين، وأهل الطالع، وكشف المستور، واللعب بالخرز، ولكن هذه المرة جاءت عجوز من قلب صحراء مالي، يزين أسفل ذقنها «الأتان»، وهو الوشم عند العرب، يتدلى من على رقبتها العريضة، سلاسل من فضة، محملة بأسنان كلب، وقرن غزال، وتلبس الأتب المزركش، ولا تخشى هواء البحر البارد.

مدت خيوط النسيج أسفل شجر الصنوبر الخضراء في فصل الخريف، وقد مرت بها الرياح مرور الكرام، فلم تبرح أوراقها مكانها، ولم يتحرك لها

ساكن.

ودقّت في أطرافها فولاذا وشدتها حتى غدت كأنها قناة من حرير، وضعت على عرضها خشبة زان داكنة اللون، فيها فتحات تمر منها الخيوط، وكأنها مشط كبير، وتسحبها بقرن غزال بطرفه خيط، تدخله بالعرض بينها، فتتحول إلى نسيج وبساط، فتقبل عليها النسوة، بحجة طلب منسوجاتها اليدوية، ولكي لا ينتبه لأمرها العسس، ويطردونها من المدينة، ولكي تسلم، ترطن بالبربرية فلا أحد يفهم قولها، وتلوح بكفها للسماء، فيظنونها بلهاء.

ولهذه العجوز مريدين، وتبّاع خفيون، من إنس وجان، وزنوج وبيض، ينتشرون في المدن، ولكنها سمعت عن رخاء الأندلس، وطنجة بوابة العالم إلى أوربة، وتجارتها المزدهرة، وهناء أهلها في ظل حكم الصميدع عثمان المريني، فآثرت على نفسها المشقة، والمسافات الطويلة، لتقدم خدماتها بنفسها،

شلت حركتها، وهي البدينة المتربعة على لبنة من طين متحجر، عندما مر من جانبها ابن بطوطة، فانتصب شعرها الأشيب في قمة رأسها، واشتعلت عيناها بالوميض، وسال وجهها حتى كاد يتلصق بخطواته وهو يتمشي متثاقلاً وكسلاناً، قبل مغيب الشمس، متجهاً إلى الزاوية في أطراف المدينة، ليقضي وقتا مع رهط الصوفيين.

لا تعلم العجوز ما بها، ولكن الدم تحرك في عروقها، كدبيب النمل تحت الجلد، وراحت شفتاها الجافتين على بوابة صحراء فمها، تلتصقان وتنفكان بسرعة، وتفرك عينيها براحتي يديها المحملتان بتراب النسيج وغباره، لينهمر دمعها من ملوحة التراب.

انذهلت «الشمطاء» من قوة جاذبية الفتى الداخلية، وجن الجن المرابطون حولها، من مساعديها، وقد أخذ بصرها وحسها ما لمسته، وأفقدها التوازن، والتركيز، وهمّت تنادي عليه، لتضرب له الفأل، ومسكت بأطراف عباءته، حتى كاد يسحلها في الزقاق، لولا ثقل وزنها.

- **قف أكشف لك طالعك، وعالمك.**
- **ما أنا بمصدق أو مؤمن بهذه الخرافات، أيتها العجوز غريبة الأطوار.**
- **أنا غريبة عن هذه الديار، ولكن لدي الكثير من الأسرار.**
- **لا تطلبي مني مؤاتاة على أفعالك، ولست بصاحب بيت**

لأشتري منك فرشا، فانشغلي بمريديك، وفكي يديك عيني.

- سألتك بالذي خلقك، والذي سيجعل اسمك يتردد في أقصى شرق العالم، ويجعل لك من الجواري والشهرة في البلاد، ما لم تبلغه عين، أو تسمع به أذن، أن تقف، فأنت مطلوب، وقلبي قد انشق نصفين، منذ أن رأيتك.

تسمّر ابن بطوطة في مكانه، فنزل عليه كلامها، كبرد الشتاء المقبل، وقد جاء مبكراً هذا العام، ليختلج روحه قبل جسده، وخرجت سخونة تلذع أذنيه، وتعرقت يداه، وبطن رجله التي تتشبث العجوز بها، كما تحتضن عامودامن حديد.

وانصهر فؤاده، حتى ذابت مهجته، وأطرب داخله الكلام، وأثارت فيه الاستغراب، وطرد الوهم، وهز رأسه ليوقف شرود ذهنه، ويكذب ما سمعه، ودغدغ مخيلته ما ذكرته، فلمست ذلك في عدول أقدامه عن المضي في طريقها.

نفضت عن رجله التراب، ووقفت تربت على كتفه، وتتمسح، كما يتمسح ويتبرّك مكسور أو أرملة على قبر ولي صالح.

نثرت الخرز على عجالة، فوق الرمل، حتى غطس وذاب فيه، وقالت له إنك ستغرق في علمك، وتذهب وراءه، فلا يكون لك بيت دائم، بل عز وجاه مرتحل، ونهج عمل منتشر في الأصقاع كهذا الرمل الذي ابتلع خرزك، وستبلغ عتياً، وتعيش وحيدا، وكل الناس جمهورك، فلا يوقفك نعيق الغربان الهرمة، ولا برود الهمة، ولن تكون للبربر أو العرب والترك، والسودان، ولا العجم، وسيكون لك ولد من كلهم.

- أما آن لك أن تسكتي عن سكب هذا الهراء، والمديح المزيف، لتكسبي مني قطعة حديد، أو بعضا من الطحين والتمر.

ظن أنها غير جادة في حديثها، وتريد أن تحصل على طحين، تعجنه وتلطخه على صخرة موقد نار تشتعل أمامها، دون أن تخاف على غزلها، وهو وثق من كونها لا تتعدى أن تكون متسولة، درويشة، تقوم بالسؤال، فلا رد لسائل، ولكن لا تصديق لمنجم.

- أنا منجمة، وحولي أبناء الصحراء، أحفاد هاروت وماروت.
- هذا كلام منجمين، وسحر مبين.
- دعني أعمل لك حجابا، أو أعطيك خرزة تعينك في حياتك، فطريقك وعر، ولو أن كله در.

امتلأ رأسه بكلامها، ورمى عليها دينارا مرينيا، وتركها مع ظلام الليل في سباق، لتلم أشياءها، وتذهب في حالها، وهي تمتم بصوت خافت، وتقول في نفسها: إنه شاب متوقد، ولن يبقى مجده محبوسا بين البحر والمحيط والصحراء والغابات.

استجمع قواه قبل أن تخور عزيمته، وغيّر وجهته، باتجاه قلب المدينة، فاشتدت حماسته، ورأى أن مجالسة الصوفيين، تحرر القلوب، ولكنها تلوي عنق الدروب، التي يسير بها، بلا رجعة، ولا نكوص.

أمسى معلوما لدى حرس الوزير وعسكره، ولا يحتاج لإذن دخول وحضور، ولم يفوت على نفسه فرصة تناول العشاء مع الزبيدي، والتقرب منه، واقتناص الفرص، عندما يكون مزاجه معتدلا، ليحضه على التمدد أكثر في البلاد، وتوفير كل ما يلزم رحلته، وتمكن من كسب الثقة والمحبة، ومباركة عمله، وتسخير كل ما أمكن لابن بطوطة، ليكون الرحالة المتخفي بثوب صوفي درويش، وقاض مالكي.

بعد عدة أيام عاد إلى الوزير محاطاً بالكثيرين، وانتبه له وسط الجموع، وهتف يناديه بصوت يعلو على صوت المغنين، وآلات الموسيقى، وبين النساء المتبرجات المحاط بلحمهن المكشوف، وكؤوس المدام تدور بين الحاضرين، الهائمين، وهو يناجي سره، بأن يخرج سالما من حفلة المنكر، وقد استنكر على نفسه، ولم يعد يستطيع العودة من حيت أتى.

صمد صبره أمام المغريات من الحسان، وقتل نظراته في مهدها، فغض من بصره، وأخذ أنفاسا عميقة، لكي لا يتخنق من رائحة المسكرات، واستغرب كيف لوزير كان يراه صالحا، ومخلصا، أن يقوم بهذه الأفعال، وأن يقيمها ويحمل ذنوب كل هؤلاء.

وقف الوزير ودفع بيده جارية تتوسد فخذه المكسو بعباءة ناعمة، تغري وتدفع إلى النوم، وسحب سيفه الملقى على جانبه، وتحزّم بغمده، وأعدل

هندامه، ورمى وراءه لهو الدنيا، وانطلق نحو الضيف المستغرب المنزوي، كالأسير.

النظرة الحادة للوزير، هي ذاتها، وصوته الأجش، يزلزل القصر، ويتردد ويتدحرج صداه فوق الرخام الذي يكسو كل أرجائه، فقد طلب من الخدم عشاء شهياً من الخليع، وأمامهم صحن فيه من القرس والإجاص والرمان الفاسي، والمشمش المجفف، والتفاح والبرتقال.

وابن بطوطة يعرف ويعشق لحم الخليع المقدد والمنقوع في التوابل، مع الماء والشحم، وهذه المرة سيذوق أكل الملوك، وليس في طواجن أمه.

وأمر الوزير بشوي لحم الغزلان، والتيوس الصغيرة، وقد انصرف الساهرون، وسيكمل السمر مع النابغة الطنجي، ويتبادل معه الأحاديث.

لم يجرؤ الفتى على نقد ما رأى، ولا أن تنبس شفتاه بكلمة واحدة، واكتفى بفتح آذانه على مصراعيها لصاحب الشأن، والمكان.

- **ما بالك مكبلاً بصمتك يا محمد؟**
- **لا أريد أن أحرم أذني من حديثك الشجي، والثمين.**
- **ملعون، وشيطان، بل وفصيح وبليغ وحصيف كوالدك.**
- **من شابه أباه فما ظلم، وليتني أكون مثله، بعلمه وفقهه.**
- **ستكون، وتكون، واعلم أن جلال المرء في فردوس قلبه، وصفاء دنياه في عقله، وما إن اقترب من ذاته، وابتعد عن الناس، وهام بملكوت الروح، وجد الإنسان، ووأد الغربة.**
- **كلام كبير، لا أستطيع فكه يا سيدي.**
- **أنا أردد على مسامعك كلاما، هو بمثابة النصح لك، وسأعطيك ما يشبه التعاليم والوصايا، والالتزام بها، لا مناص عنها، ومتى طبقتها وصلت، وأمنت، وبلغت غايتك.**

شرود الذهن حالة من التفكير والتجلي، تعصف في بال ابن بطوطة بين الحين والآخر، وتجعله يغيب عن الوعي بما حوله لا أكثر، فتدور الأفكار في رأسه، مثلما تدور الزوابع، لدرجة أن يناديه الوزير، دون أن يسمعه، حتى

يقوم من حول الوزير المتطوعين المنافقين من ندمائه، قبل أن يطلب سيدهم، يقفزون لتنفيذ ما بعقله، وقد لمسوا منه رغبة في مناداة ضيفه الذي لم يتقبلوا وجوده.

وبعد أن استفاق الضيف من نوبته العقلية، في الشرود، التي عدها الوزير الحكيم المتحكم، من أخص سجاياه، فهو كثير التفكر، والتدبر، وصاحب سر وسريرة، لا يتفلت الكلام من لسانه بسهولة، ولمّاح أمام كل ما يمر أمام عينيه، سمع القصائد السمجة التي يكتبها المستشعر الوزير، وصفق له كل من في ردهة القصر، الشاعر منهم، والعربي والبريري، وكل عبد وجارية، واستغرب ابن بطوطة أن يكون الوزير شاعراً، فقد جرت العادة أن يكون الشعراء ضيوفا عند الحكام، والأعيان والسلاطين والملوك، كما أثار استغرابه أن هذا الوزير عربي يحكم ويأمر وينهى في بلاد بعيدة عن بلاده، وأدرك أن هناك حكمة في هذا الأمر النادر، قد لا يدركها ولا يعرفها إلا الخاصة.

بين يوم وآخر، ازداد تدريب المسافر الجوال، على التخاطب، والتعامل مع المكائد، والمعضلات، وتقويته في مسائل الفقه، وقضايا الخلاف، وفنون البلاغة والكتابة، والوصف والسرد لأن لسان المرء حصانه، لا فروسيته في وقت السلم والبناء، وتشييد الآمال وسبك الأعمال، وأراد مدربوه أن يزيدوا تسليحه بالمعرفة، ليتغلب على زمنه، ويسبق عصره وأوانه، ويبهر الحكام والولاة، بقوة حججه، ومنطقه، ويأسر الألباب من نخب وعوام، بالحكمة، والفصاحة، فيكونوا معه لا عليه، وهو العالم النابغة، راجح العقل، ومكتمل الإرادة، وناضج القلب والسجية، فسنوات صباه قضاها في ربوع مكتبات والده، وفتحت له ابنة جبرين كنوزها التي سمع الشرق والغرب عنها، فكان ما يفصله عنها حائط واحد، ووجدها مهملة، ملقاة في حجرة واسعة، وفيها من علوم العرب، وحكمة اليونان والروم والفرس والترك، وما لا يحد له أمد أو عمر، من قدم الإنسان، وهذه الكتب والمخطوطات مخزنة في بيوت بغداد وبابل، والقسطنطينية ما قبل الإسلام والميلاد ومنذ سبي اليهود على يد نبوخذ نصر، وقد خط حكماء الأسباط منها ما جلبوا من علوم أهل مصر القديمة من قبط وعجم والفراعنة، ومن صحراء إفريقية.

استطاع ابن بطوطة أن يتزود من العمل قدر المستطاع، وأن يحفظ العناوين، بغض النظر عن المضامين، فلن يعمل بالعلوم، وما ركز فيه كان أصول الدين، وفقه المالكية، فأخذ عن والده ما يلزمه من أساسيات المذهب، وابتعد بنفسه عن الغلو، وعن التعمق، كي لا يصطدم بلا قصد مع المخالفين، حين تستدعي غيرته ذلك.

حفظ الكثير من الأشعار والطرائف والقصص من كتب التاريخ، ومن الأعراب القادمين إلى طنجة، وكذلك من الأمهات البربريات اللاتي يحفظن الكثير من الأساطير، ليسلي بها الحكام، في جلساتهم، ويكسب ودهم، كما حفظ أمور الحساب، والزواج، وتدوين الأخبار، وصك العقود، ليكسب التجار والأعيان.

لم يكتف الوزير بذلك بل إنه صار يطلبه كل يوم، ليبقى حبيس بلاطه، وقصره، لا يعلمه شيئا، أو يتحدث معه، بل كان يحب مجالسته، وحضوره بين قادة العسكر، والدهاة من رجال الدولة، وربما أراد أن يجعله يعتاد على حياة القصور، ويسمع ويرى كيف تدار أمور الدول، وكيف يتنافس المتنافسون من الرجال، ويكيدون لبعضهم البعض، ويخططون، ويبسط كل منهم نفوذه، وكيف يقدمون لبعضهم الابتسامات الباردة، واللطف المقيت.

وعندما ينهي الوزير الاجتماعات، يجلس مع ابن بطوطة، يشرح له من مخطوطات عامة، وأخرى مخزنة في قلب عقله، تنبىء بوجود أسرار خطيرة، لا يمكن أن يحتملها ورق، أو تخرج للعلن، ومن هذه الأسرار، علاقات الحكام ببعضهم، من سلطان المغرب، وعلاقاته مع أمراء وملوك مدن الأندلس، ومع حكام تونس، ومصر، والشام، وفقهاء مكة، وتجار الشام وبغداد وخراسان والهند.

وما الذي يربط بينهم، وماهو الهدف من هذه الشبكة والتركة، فلم يسمع أحد بهم، ولا يُعرف ماهو هدفهم، ومن صنع هذا الهيكل من العلاقات الخفية من أقصى الشرق إلى غربه، وما هو دور السفارات، وهل لهم أعوان، ورجالات في كل دولة؟

وهذا ما كان في جعبة الوزير، أما في فم ابن بطوطة، فتتراقص الأسئلة، ولا يجرؤ على طرحها، وينتظر أن يفرج عنها تباعا، ولكن هيهات.

فلم يكن يعلم أن الأندلس كانت تشكل أهمية للعالم الإسلامي، لأنها أمست مصدر العلوم، وازدهرت فيها الحضارة، وتقاطر عليها الأدباء والعلماء، منذ عهد الأمويين، وتغاضى العباسيون عن هذا الأمر، وتساهلوا معه، من أجل سمعة الإسلام، وانتقال العلوم إلى أوربة، على غير حالات القطيعة في الدولة الإسلامية، ولو أن هارون الرشيد حاول كسر هذا الاعتقاد، بفتح علاقات مع روما، والصين، وغيرهما، كما أن المغرب بعيد كل البعد عن الاعتداءات من صليبين يكرهون الإسلام، ويريدون إعادته إلى صحراء العرب، لتستعيد روما أراضيها التي فتحها المسلمون، بعد أن عاش أهلها يدفع المسلمون الخراج، والمسيحيون واليهود الجزية لحمايتهم، كرسوم لرواتب

الجند والولاة، ومن جهة أخرى كانت هناك أطماع المغول الذين استباحوا الشرق، ونكلوا بأهله، وكسروا شوكة الخلافة، وبعثروها، وصار يصعب لملمة الحال، إلا باتفاق، يحفظ الإسلام، إذا ضاعت الأندلس، أو الشام، وفارس، ويحفظ مكة، وبيت اللّه، بدون أن يصلها أعداء.

وما ساعد على جعل طنجة بعيدة عن الفتنة، قوة سلطانها، والدولة الفتية التي ترفع السيف لخدمة الدين، وصفاء سريرة البربر، وإخلاصهم من عهد طارق بن زياد، وفتوحات موسى بن النصير، ووصول عبد الرحمن الداخل، وقدوم قبائل العرب إلى هذه الديار، ووجود قاض تقي، يضحي بولده، لخدمة الدين ونشر المذهب، والذود عنه، ضد الكفر، والفرق الضالة التي يمقتها، ويكن لها أشد الكره، ويحلم بالقضاء عليها، وقد أفنى عمره حبيس داره، ودار قضائه، ليستقبل، ويجمع القادمين ويكون صلة الوصل مع علماء مكة، والشام، وفارس، ولم ينس هذا الشيخ ما قدمه علماء فارس وخاراسان، من البخاري والزمخشري، وابن ماجة، والترمذي، وغيرهم لحفظ الحديث والسنة، وعرف سيبويه، وكيف أبدع في خدمة اللغة، وما فعل الخوارزمي في بيت الحكمة أيام المأمون في علم الرياضيات.

لم يطلب أحد من ابن بطوطة الالتحاق بالصوفيين، وتصرف من تلقاء نفسه، وتعمق في الطريقة القادرية، وسلطان الأولياء أبو علام الجيلاني كما يسميه أهل المغرب، وعبد القادر الجيلاني هو قطب بغداد وتاج العارفين، كما يسميه أهل المشرق.

وابتغى من هذا التعلق والتعمق، تقمص الصوفية بكل حذافيرها، لغرضه السياسي، والديني، في لبس رداء الدراويش، وتقبل التحليق والتجلي في الزوايا، ونهل الصبر، والدخول من باب واسع، ومنتشر، لذا لا ضير في تأثر محمود، وتخدير القلب، وجعله يطير ليساعده على البحث عن ذاته، والتعبد في كل حالاته، فهو يعرف نفسه، بأنه مهما كان مسافرا أو عائدا، فهو يسافر وهو في مكانه، ويصل إلى كل مكان بقلبه وروحه، ومهما تبدلت عليه الوجوه والنفوس، والمدن، وتغير السلاطين، فهو مستمر مع ذاته حتى نهايته.

تحلّق روح ابن بطوطة، وتسبقه إلى السفر، وقد قضى وقتاً في الزوايا التي انتشرت مثل البثور في زوايا المدن، والقرى المتاخمة للمدينة، وفي المدن الأخرى من المغرب، كما أن دار القضاء أصبحت تعج بالضيوف من كل الأقطار، يحملون الأخبار، والأسرار، وأكثرهم من التجار، والراغبين بشراء الجواري والسبايا، من سوق سبتة، من ضحايا وغنائم الحروب مع الإفرنج، أو حروب الصحاري جنوبا، ومن أقصى بلاد شنقيط أو مالي، وحتى الزنجيات

مطلوبات، ولهن سوق رائج، والأعجميات اللاتي يتم جلبهن من المشرق، فالكساد يخيم على بلاد العرب كلها، والفقر المدقع، يغرس جذوره في أراضيهم القاحلة.

زاد الفقر العربي خلال سيطرة الصليبين على أراضي المسلمين، وهجمات المغول على ماوراء النهرين، والعراق، والشام، وهو ماجعل الأمة تئن تحت وطأة التشرذم، وليس لها إلا فارس وخراسان،وآسيا، التي لم تسلم من المغول، والأندلس خلف البحر، والمغرب وشريط الممالك على ساحل البحر، وظهر الصحراء الكبرى.

حاول ابن بطوطة إقناع نفسه بركوب البحر، والسفر إلى الشرق مع سفن التجار الأوروبيين الذين ازدهرت تجارتهم مع المماليك وإلى كل البقاع، لكنه يكره البحر، ولا يفضّل ركوبه.

لم تكن ابنة جبرين تعرف بأنها لن تسافر، ولم تفكر بالأمر، لأنها منشغلة، وتعايشت مع جراحها الغائرة- غير القابلة للنسيان، أو الاندمال، وجمعت حسراتها وسجنتها في قفص صدرها.

وفي نهار شتوي برزت الشمس بكامل حضورها، بعد غياب خلف الغيوم والمطر لعدة أيام، جلست فاطمة وابنة جبرين، يشربن الأتاي، الذي ينكسب مع الإبريق، فيتصاعد بخاره،من برودة الأجواء، ويختلط مع أحاديثهن النسائية، في البستان الصغير الذي يلف المنزل، حيث تجردت الأشجار من أوراقها، وصارت عارية بأغصانها المبللة بالندى.

نهض ابن بطوطة ليجد أمه، والجارة القديمة، وبعد إلقاء التحية والسلام، جلس متربعا يلم رجليه بين يديه، ويمعن النظر في وجه ابنة جبرين الذي يبدو كبستانهم، قد مر به الخريف والشتاء، وتساقطت ملامحه، وتجرد من جماله الجذاب الساحر، والعينان الواسعتان برموش متكسرة، وقد جف بريقهما.

- سأحج إلى بيت اللّه الحرام العام القادم، فحج هذا العام على الأبواب، ولم نستعد.

بهذه الجملة استفتح الجدال، مع أمه، ورفيقة السفر، فكأنه يتعمد إثارة الأمر، كمن يحمل عودا، يحرك به ما تبقى من جمر في موقد يحتضر جمره.

- **ونحن معك يا بني؟**
- **لا أظن، فلن أسافر في قافلة وقف السلطان.**

تقتحم الجارة الحديث:

- **لماذا لا أحج معكم، أو أذهب لزيارة أهلي وقبيلتي.**

فيجيبها وعيناه المكورتان، تنظران في تسرب أشعة الشمس من بين الغيوم:

- **لدي عمل في تلمسان، وتونس، والإسكندرية، وسأسافر مبكرا، بعد العيد الكبير.**

عرفت ابنة جبرين أن هناك سراً في السفر الطويل، والمبكر، ولاذت في صمتها، وأخذت تعدل حجابها، وقفطانها، وتساير حيلة ابن بطوطة، في فتح أحاديث عن الفلك، والسحر، وذكر لهن قصة العجوز التي صادفته، وتفاعلت الأم المحبة لابنها، مع ما ذكرته له، وأصابها فضول للوصول لهذه المرأة، وتكشف لها طالع زوجها الغامض، وحال والدها المضرب عن الزواج، ولكنها بلا حيلة، وسط أسوار بيتها الكبير، ولا سبيل لخروجها إلا بقول الحقيقة لزوجها الذي لم تكذب عليه منذ أن تزوجها.

- **لقد أخفتني، وأنا رغم قلة حيلتي، لن أرضى بسفرك، فكل من سافر بقصد التجارة، أو خدمة الدولة، لم يعد، وأنت فلذة كبدي، وصمام قلبي، وماء عيني، ولن أرضى بالفراق عنك.**
- **وما خوفك يا أميمتي، وأنا مسافر للحج؟**
- **أفهم غموض والدك، وما تخططان له.. أمن شدة حبة لدينه، وسلطانه، يضحي بابنه، وينذره لذلك؟!**

ويبدو أن أهل طنجة قد أرسلوا أبنائهم من قبل الهدف ذاته، وجاء الدور على ابن بطوطة، وقد اعتاد القضاة على إرسال أبناء لهم، ممن تعلموا أصول الدين، وتجندوا في الدولة، وقد ذهب ابن عم لابن بطوطة إلى الأندلس ولم يعد، وعدد من القضاة المرسلين إلى الشام ومكة، وعدد من أهل المغرب الذين سحرهم الشرق، فتزوجوا، واستقروا، وحملوا هم المسافات الشاسعة، فلم يعودوا إلى ديارهم، ومنهم من هرب من الحروب، والفقر.

أصبح ابن بطوطة يتردد على مكتبة ابنة جبرين التي رفضت أن تجعلها مفتوحة للعامة، ولا تزال تخاف من سرقة المخطوطات، وهي بلا رجل أو سند يحميها، ودلّته على الكتب المهمة، ومخطوطات كانت تدسها في قبو المنزل، وتحفظها بطرق مبتكرة، حفاظا عليها من التلف، واطلع على خرائط مرسومة من وحي خيالات رحالة قدماء، وقرأ عن الحضارات القديمة، وفتنه العرب، وعرف ما يريد معرفته عن المغول، ورأى أن من حسناتهم، القضاء على الحشاشين، وردم قلاعهم، وحرق كتبهم، فلم يستطع السلاجقة، ولا العباسيون أن يصلوهم، وحمد اللّه على دخولهم الإسلام، فكف اللّه بلاءهم عن بلاد المسلمين، برحمته، وهدايته لهم، ونصر قطز عليهم في عين جالوت.

ابن بطوطة هو أول المطلعين على تدوين ابنة جبرين لمسيرة أهلها، ولاحتلال المغول أراضي الدولتين العباسية وسلاجقة الروم، وهدم دولة خوارزم ومن ثم خراسان وفارس، وتحالفهم مع الصليبين في حلب ودمشق وأنطاكيا،وإنضمام أرمن قلقيلية، وشعوب من الروم في طرابلس وبلادم الشام، وإبادتهم للقرى والبلاد التي يمرون بها، حتى مدينة بغداد التي أحرقوا مكتباتها، ونهبوا ما أردوا منها، وأسروا العلماء الذين كانوا في بلاط الدولة العباسية، وما حصل من تفكك لهؤلاء الفجرة، بعد موت قوبلاي خان عام 1294 ميلادي، أي قبل ولادة ابن بطوطة بتسع سنين، ولم يغب وصفها لبسالة المماليك بعد قطز في مطاردة المغول حتى تخوم فارس، وما فعله الظاهر بيبرس، في تحالفه مع بركة خان، وحربه على المغول وحلفائهم من الروم، وتحرير سلطان السلاجقة بن كيخسرو، وكيف خدم حاكمان منهم، قازان حاكم الإلخانات، والأوزبك.

ولم تغفل هذه الورّاقة الماهرة، والباحثة الصبورة، عن تدوين ما يتعلق بفنونهم في الحرب، وأنظمة إدارتهم للحكم، وأبرز قادتهم، وحلفاءهم والعاملين معهم من المسلمين، والولاة على البلاد والمدن في العراق، وخراسان، وفارس.

كانت لفائف المخطوطات محفوظة بعناية، وموضوعة في علب من حديد، منعا لوصول عوامل الزمن السيئة، وتقوم بتهويتها كل أسبوع، وتثمل من رائحة الحبر، والأوراق، فتسهر الليل، تبحث في أمهات الكتب، وتدون ما تيسّر لها من معلومات، في غرفة نومها، حيث تترك فسحة بجانب النافذة، على أريكة أندلسية حريرية حمراء، كانت تحب أن تجالس زوجها في هذا الركن، فملأت مكانه بالكتب، والأوراق، وجعلت غرفتها تزدحم برفوف الكتب، وروائحها،بعدما كانت تعج بروائح الزريب، والعطور الأوروبية

والعربية، من العود الهندي، ومسك الظباء، وعنبر الحيتان المجلوب من الصين أو من البرتغال ومالقة، لتطرد شبحه من المكان، وكل الذكريات الحميمة.

امتهنت التدوين، فبرعت به، حتى ضربت شهرتها كل الأصقاع، وعرض عليها حاكم مصر المملوكي، استضافتها ومكتبتها، وكذلك بعض من حكام ممالك الأندلس، لتكون قريبة من العلماء، وتحتك بهم، وينهلوا من مراجعها، وهي باقية على عهدها مع مسعود بن جابر، وفي قلبها بصيص من الأمل، تحول إلى مشكاة لعمرها.

ويقصدها العلماء المسلمون، ويجلسون في مكتبتها أياما، فتسجل ما يأخذون، وما ينهلون، وتمنع الدولة المرينية زيارة غير المسلمين، وقد فشلت محاولة سلطة القسطنطينية في إرسال مبتعثين من الباحثين، وكذلك ممالك الإسبان والفرنجة، لمن يهتمون بعلم الفلك، والرياضيات، والجغرافيا، ومدونو التاريخ والحقب الطاحنة خلال مائتي سنة، وكانت قبل تمنع كل من يطلب مطالعة الكتب، وأخفت النادر منها داخل بيتها، وجعلت البقية لمن يريدها بأمر من الوزير.

واستفادت من الباحثين في تبادل المعلومات، والعلوم المثبتة، وتراسلت مع علماء الشرق، كما أن زوجها التاجر جلب لها الهدايا من كتب الهند والصين وعلومهم التي نفعت العرب كثيرا، فيشتريها من أسواق المدن المنكوبة والمسروقة، ويحرص على اقتناء الأقدم منها، مما زاد ثروتها التي ورثتها من أهلها، ومما تم تهريبه من عاصمة الخلافة، قبل غزو هولاكو، فنقل لها ما تم أخذه من مكتبة الحشاشين الإسماعيليين، وتوسط العالم عطاء ملك الجويني للحفاظ على الكتب والمخطوطات، قبل أن يدك الجنود قلعة ألموت، وينهبوا كل الكنوز فيها، وعائلتها لم تكن لها القدرة على مجابهة مد المغول حيث كانت أصوات حوافر خيولهم تصل إلى المدن وتثير الرعب، وترتعد الحوانيت، والمتاجر والبيوت من زلزلتها، وكلما سمع الناس هذه الأصوات، عرفوا أن ما كانوا يسمونهم أحفاد يأجوج ومأجوج قد وصلوا لديارهم، وقراهم، وتناقل الناس حيل الجيش بأن يدخلوا فاتحين، وحتى يأمن الناس، ويتوسطوا من الأمكنة، يملأ بريق سيوفهم المدى، وتتعالى صرخاتهم، مع الدماء المتناثرة للأبرياء من شيوخ وأطفال ونساء، فهم يستمتعون بقلب المدن والقرى رأسا على عقب، ويفتخر القادة عندما لا يتركون حياً، أو نبتة بمكانها، ويتفنون في الخراب.

هربت عائلة ابنة جبرين لأن الأعراب كانت لهم ملاذات، وصلات بمناطقهم القديمة، واستطاعوا أن يفروا كما فر الكثيرون من أهالي الكوفة، وجزيرة الفرات، وبغداد وديار بكر والموصل، وسائر عراق العرب إلى البوادي البعيدة.

ولم يستفد أحد من مكتبة بغداد التي نقل كتبها رجال هولاكو، إلى قرقوم، ولكن العالم المسلم نصر الدين الطوسي الذي انتدبه هولاكو ليشيد مرصداً ومكتبة في مراغ، ومعه مدارس وأسواق، وضمت المكتبة أربعمائة ألف عنوان من كتب العرب والمسلمين، وأوهموا الناس، وأذاعوا أخبارا أن هولاكو قد أحرقها، ورمى رمادها في نهر دجلة، وكانت أكثر كتب الفلك والأحياء قد نقلت إلى هناك، فنظمهما، ووضع أوقافا لها، وخداما، يعملون على فهرستها، وتوظيبها.

أما ابنة جبرين فقد نأى بها زوجها وثرواتها عن المطامع، والتهديدات، فهي كانت مطلوبة، وما أخذه أعيان الدولة العباسية من مراجع مهمة، بقي المغول يحاولون أخذها ليستفيدوا منه، مثلما استفادوا من دمج علوم الصين مع العرب والفرس، وازدهرت العمارة، والهندسة في عهدهم، وبنوا القباب والمدن في مدنهم، وما زالت تحسب لهم الأفضال فيما وصلت إليه، وتعلم أنه ما فعل ذلك عبثا، وما كان حبه له الدافع الوحيد، خصوصا بعدما تركها، ورماها تواجه مصيرها لوحدها، وهذا ما يغفر له، فانكبت على أوراقها، واجتهدت في الكثير من الأبحاث، وأثبتت الكثير من البراهين، فسهر الليالي كان عادة حميدة عندها، ليسقط وجهها على الحبر الرطب، فكثيرا ما تطلع عليها شمس الصباح، فتصحو لتجد وجهها غدى محبرة، واستولى السواد على جفنيها من شدة الأرق.

حرص ابن بطوطة على زيارة مكتبتها الأنيقة، والغنية بكنوز المعرفة، لغاية في نفسه، ووضع في الحسبان، أن يزور ديار المغول، ويمر على مصر والمدينة المنورة، ليتردد على مكتباتها، وقد عهد السلطان ووزير الدولة المرينية إليه بمهمة العمل مع آخرين على إعادة التواصل والتآزر لبسط نفوذ المسلمين، وتقوية الأركان، وتعميق أواصر الغرب والشرق والوسط والأطراف، حتى لا يتكرر الحدث الجلل «غزو المغول» الذي لم يشهد التاريخ مثله، والحملات الصلبيية التي لم يتبق منها إلا حاميات في الشمال، وإن سلمت مصر وبيت المقدس والديار الحجازية واليمانية من النهب والغزو، فلا يعرف الولاة والسلاطين ماذا سيحصل لو حصلت نوائب وحوادث أخرى.

الوزير المتمرس يعلم أن تقوية العلم، وبسط الهيبة، والاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان، خير وسيلة، لتحقيق الغايات، وسد الحاجات، ودأب ابن بطوطة سيكون علمياً، وفرديا.

في إحدى الزيارات إلى المكتبة، وجد ابنة جبرين منكبة على الورق مثلما تنكب أم على رضاعة ولدها، ففهم أنها تسكب طاقتها، وحنانها كامرأة ليصبح الحبر مكان الحليب، يتدفق على الورق، وجلس من بعيد يراقبها، وهي بكامل زينتها، على غير عادتها، مذ أن هجرها زوجها مسعود.

وقال في نفسه: من يكتب الآخر يا ابنة العرب، أنت أم الحبر.

وخشي أن يزعجها كلام عقله وسره، وهي منغمسة في السواد، ترفع يديها، لأعلى الصفحة، وتنزلها للأسفل، تزركش، وتراقص ريشة في يدها اليسرى، فهذه ميزة فيها، كان زوجها يقبل يدها اليسرى، لأنها شولاء، ويختلط سواد شعرها المنثور على الأريكة والورق، مع ما تدفقه الريشة والمحبرة.

انتبهت لوجوده، واقفا مثل عكازتها المسنودة على ظهر الأريكة، ومن قربها منها، أدرك ابن بطوطة أنها تجلس لأوقات طويلة، حتى يصيب الياس رجليها، ويتوقف الدم فيها، وتحتاج لشيء تستند وتتعكز عليه، لتنتقل لأمكنة أخرى، ولكنه لأول مرة يشاهدها ترسم، ولأول مرة يشاهد خطها الجميل.

تفترش الأريكة، ونضائد الديباج، وعليها من ستور الحرير، المتمدد على طولها، إلى فوق كعبها، ولم تعدل من جلستها، أو تستر شعرها، العصي على الإخفاء، واللف، بيسر وسرعة، وتماثل أمام عينيه مشهد حورية بحر، كما تقول عنها الأسطورة القديمة، التي تخرج من بين أمواج المحيط المظلم مشعّة، وتأخذ الرجال الذين يعجبونها، إلى داخل الماء، وتتزوجهم، رغماً عنهم.

أشاحت بيدها اليمنى التي لا تستخدمها، وطلبت منه أن يجلس، يفصل بينها وبينه كومة متناثرة من الكتب القديمة، صفراء اللون، وبعضها سمراء كسنابل الشعير، وبؤبؤ عينيه يدور كالزوبعة على حجم دائرة العين، في كل الزوايا، يكتشف، وقد اتسع من شدة إعجابه بما رأى، أنها على ظهر قلب ترسم «عطيل» كما أنه يجلس أمامهم، وأخفى انبهاره، ولم يستطع أن يقول أي شيء، أو يشد عليه يديها، فهي اعتادت أن ترسم وتكتب لنفسها، ولم يسمح لنفسه حتى أن يزعج هدوءها بإلقاء تحية الإسلام، وانشغل قلبه بصاحبه، وقدوته، وعقله يفكر في هذه المرأة غريبة الأطوار، وربما صدق

أساطير الأولين بأن الكتابة باليد اليسرى تعني أن صاحبها متعاون مع الجن، وتأكد بداخله أن شياطين ابنة جبرين عباقرة.

- **اسمع يا ابن جيراني، وصديقي، لا أحد يعلم أني أمارس الرسم، ولا أحد شاهد رسوماتي، فهي عبث في عبث، وأثق بعقليتك، وقد غدوت مشرقياً مثلنا، وسترحل مع الكثير من الأسرار التي سأعطيها لك.**
- **تعرفين أني لا أسمع، ولا أرى، ولا أتكلم، ومنذ ستة أعوام منذ عرفتك لأول مرة، وخلال حولين من الزمن، أتردد على مكتبتك، وأدخل بيتك، فلم تخرج مني كلمة، ولن تخرج، فهات ماعندك، وسأحمل الهم من قلبك، وأرحل به في الصحاري، والسهول والجبال والبحار، ويستقر بصدري كلما سكنت إلى مكان ومرأة.**
- **دعني أزيل ما بيني وبينك من حواجز عمرية ودينية، وهذه الكتب الذي تفصل بيننا، وهي كالبحر لا يعسم فيه عاسم، وكالعواصم مزدحمة، ومكتظة بالمواجع، وغير مكترثة بمن فيها، وما حولها.**

وبعدما أزالت الكتب والمخطوطات، ورتبا سوياً الجلسة واستطاعا أن يتبادلا الأحاديث في مكان له رونق، ولا يسبب التشتت والشرود، ويثير التوتر، أعطته من الأفكار فيما يخص تقاليد العرب، وتقبلهم للغرباء، وعادات العجم، واستمر الاجتماع لساعات طويلة، بلا انقطاع، حتى أنها نست أن تصنع له شرابا، أو مأكلا يسد جوعه، وهو يهجم على نصائحها، كالطير الجارح، لا يكفيه استسلام الفريسة، حتى يحشر منقاره المعكوف في لحمها، ويحلت ريشها عن جلدها.

وكانت خدماتها الجليلة لا تقدر بثمن فقد اطلع على خرائط لحركة التنقل الآمنة بعيدا عن دروب القوافل التي يقطعها بدو العرب، ودربته على كيفية التعامل مع الهجمات والأعداء، وفي حالات الوقوع بالأسر والاستجواب، وكيف يتجنب كيد العداة والنساء، ومغريات الأسفار، وما ينقصه لإخفاء عواطفه، وتحقيق مصالحه، ويحفظ المعلومات ويخزنها في قلبه، بلا حاجة لحمل ما يثير الشبهات، أو يزيد من وطأة الأحمال في رحلته، ولم يكتف بجلسة واحدة، فقد تكررت الجلسات، واستطاع أن يحفظ أكبر قدر من الكلمات التي كانت أشبه بالمفاتيح، كلما ذهب إلى مدينة بحث عن آذان

تصغي له، لرجال في الحوانيت يحسبهم الرائي ثملين من شدة شرب المدام، أو من الصوفيين الحالمين في الزوايا أو الخانقاه، فاقدي الوعي والسعي لأمور الحياة، ملء أرواحهم التحليق بسمو، وخارج الأمكنة والأزمنة، بدواخلهم شموس من إيمان، تقهر الغياهب.

وكأن هذه الكلمات هي الترياق لأي داء، وفوق أي مُسكر، فما إن يرميها على مسامعهم، حتى يسيروا أمامه يدلونه على من يخدمه، ومن يقف معه في المدن الكبيرة، ويأخذونه بعيدا عن عيون أي خائن، أو تهديد يحدق به، إلى بر الأمان.

خدمة العمر، وذروة الدرر، منحتها إياه ابنة جبرين، فهذه الأسرار لم يكن ليحصل عليها بسهولة، واستغرب أن تعطيها له امرأة مهملة وسط الكتب، تغرق في حزنها في بيتها المحشور في أزقة طنجة العتيقة والملتوية، وذات الأرضيات المتحجرة، المؤلمة والمتعبة لمن يسير بها، في بلاد بعيدة لا يصلها إلا مدرك المقاصد ومنهك القوى والأحلام، وفي قمة الحوج، وهارب من مصائر مهلكة، فهي كهذه المدينة تقف على حافة الهاوية، محاصرة وتبدو محروسة في زاوية ومثلث في أقصى طرف العالم.

واستمع منها إلى شروحات مستفيضة عن لباس كل شعب من أهل العراق، فهم أعراق كثيرة، وكذلك الأمر في الحجاز، وفي دمشق والخليل والقدس، وعرف رداء اليهود، وملابس المسيحيين، وأهل البادية، ولهجات القبائل، وكان يحسب قبلها أن العرب يتكلمون لغة واحدة، وأن لغة القرآن ستساعده، وأن أهل اليمن وظفار يستخدمون كلمات صعبة، يحتاج إلى تدرب عليها، وأن السريان من أتباع عيسى بن مريم، وكذلك الآشوريين، لهم لغات أخرى، والأكراد فوق الموصل لهم رطين لا يفهم حتى وإن كانوا في بلاد العرب.

ساح مخه، وكاد يذوب ويخرج من جمجمته، حتى مع هذا الجو البارد، وكآبة المنظر تسيطر على كل شيء، فالغيوم لابدة على سقف السماء، وجبال طنجة وسهولها رمادية، تعانق السماء حتى تكاد تنطبق على بعضها، وتصبح واحدا، وتدب في دمه فكرة تدغدغ رغبته، بأن تكون له امرأة، يسكن إليها، ينصهر بها، وتدفىء مضجعه.

انطلق كمن يمشي على رمشه، يغشاه النعاس، هائما بأتول، خارج حدود الأبنية، فاتحا صدره للهواء، كفارس، يلاقي موته بتأهب، وبسالة.

وهو عائد تعكر صفوه وسافر عقله، أحجار الطريق، ويغوص في ضباب كثيف، يتسرب في الدروب كالدخان، وأحس بأنه بعد نزهته القصيرة، بزحير في بطنه، فمكث في الدار، فقامت أمه، فأعدت له اليرموع،، وشراب الأقسما بالليمون والخل مع نبات السذاب، ليريح معدته التي قالت إن البرد قد دخل إليها، وجلبت له فراء السبنجونة، فقد كان جالسا عاري الظنابيب، وقد رفع جلّابته، من ضيق سببته له آلام جوفه، وقد رمى بلغته فوق شرابيل أمه عند المدخل.

من الصباح الباكر، أسرى فزعه بذكر اللّه، وما إن شقت الشمس طريقها، وقبل أن تنبسط على الأفق، خرج يطلب السوق، يبحث عن وراقين ينسخون له بعض الأوراق، ليدوّن أشياء تفيده، فصادفه الرجل الأندلسي صموئيل بن إبراهيم الذي حكم والده عليه قبل سنوات في قصة الجارية السبية، وحاول تجنبه لأنه يعرف أنه متفيهق، كعين ماء ثرثارة، لا تسكت، ولا يقف هديرها، ولا ألفة في كنفه، وقد انتبه إلى أنه يبني الأساقل حول دكاكينه، مكسية بالحجر الرومي، وهيأته نظيفة، ويرتدي قفطاناً حريرياً، على غير ماكان عليه، فاستنتج أنه قد فاض ماله، حتى بطلت ادعاءاته بالحاجة، وتأدبت ألفاظه، واستقامت كلماته، فلم يعد يعترض المارين بالألفاظ النابية، ولا يحتك بأحد.

عرض تقديم خدماته على ابن بطوطة، ورحب به أشد ترحيب، فجلسا على مقربة من ميدان مجاور للسور العتيق، فآثر على نفسه، تحمّل الوزر الثقيل، لبلوغ إربه، فهذا التاجر يعرف الكثير عن أمور المدن الساحيلة والقديمة، فقد سمع عن علاقاته التجارية، ولو أنه بخيل في كل شيء، لكن هذه المرة لم يبخل عليه بعلم، وانهل على مضيفه بالفوائد، وكأن الأقدار مسخرة لخدمة الفتى، فكل الخزائن تتفتح أمامه، يغرف ما يشاء من كنوزها، ويغذي عقله، ويفتح أمام بصيرته الطرق المظلمة بنور بدا يتكشف شيئا فشيئا، فلم يستغن بعد عن كل من يساعده، وكأنهم متفقون على رفده بكل ما يحتاج، ويريدون منه أن يخرج من طنجة، التي تضيق بهم.

وعرف صموئيل من محمد أنه يريد السفر للحج، وكان يعرف أن رحلة الحج تمر بمصر، فأعطاه عناوين تجار يهود سيخدمونه، ويقدمون له ما يحتاجه، من كل شيء، ووعده أن يكتب له خطابا، مدموغا بختمه، فكل تاجر يهودي في أي مدينة من مدن العرب وفارس، سيخدمه، فهذا سليل عائلة يهوذا، ويقدره ويقدسه كل يهودي مؤمن بالتعاليم.

عندما استقرت الشمس، وتمكنت من مزاحمة الغيوم واستعادت مكانها، جلسا يستندان إلى جدار شبه متكسر، مدببة أحجاره، وظاهرة أضلاعه،

وأمامهما طاولة من خشب، تبللت من الندى البارد، الذي ينسل من ورق شجيرات الرمان، والمختلط مع زهورها الحمراء المتفتحة في الشتاء كالنجوم، فيولد طرياً صغير القطرات، وسرعان ما يرتمي، مثل لحظات ولادة الجنين ونزوله من رحم أمه.

أخذ صموئيل على عاتقه تنظيم جولة لابن بطوطة في سوق طنجة، ليجمع ما يحتاج من أمور تفيده في سفره، ونصحه بالاستفادة من أسواق وحرفيي المنسوجات، والدباغة، والوراقين، فحرفة النسج مرغوبة، وصناعة الجلابيب والكندورات والقفاطين ميزة في بلاد المغرب، والصوف والجلود المجلوبة من البراري للخراف البربرية الصغيرة، ذات الصوف الغض الدافىء، والثعالب الأوروبية غالية أثمان فراؤها، وبقية الوحوش الإفريقية، وبالنسبة للنسخ فإن علماء الأندلس، قد جعلوا هذه التجارة تزدهر، فجميع من في المعمورة يطلب نسخ كتب من العلوم والهندسة والعمارة، والفلسفة، فهم ينكبون على الترجمة، والتأليف، مثلما ينكب رجال العرب وسلاطينهم على الدنيا والنساء، وقد قال له هذه العبارة، وأمعن النظر في علامات وجهه ليرى هل أنه متفاجىء من هذا الوصف الأشبه بالذم، ولكن ابن بطوطة لم يتفاعل، وكأنه يعرف المعلومة والصفة، ولم يقل اليهودي شيئا جديدا.

اعترض طريقهما رجل أحدب الظهر بشكل مقوس، لدرجة أن رأسه مطأطأ كل الوقت، لا يقوى على رفع عينيه إلا بصعوبة، وهو لا يحتاجها لأنه كفيف، يستجدي طريقه بعصا رفيعة، لم يعطه ابن بطوطة اهتماما، ولكنه نادى عليه بصوت مخنوق، فتربطت رجلاه، والتفت إليه، ليعرف حاجته.

- **إني لك ناصح،يا ابن بطوطة، لا تعد لهذه الديار.**
- **وكيف عرفتني، وعرفت لقبي؟**

لا أحد في طنجة يناديه إلا بمحمد بن عبدالله اللواتي، فهو من سادة القوم، والوجهاء المعروفين، ووالده القاضي، والمقرب من السلطان عثمان بن يعقوب، والوزير الزبيدي الذي بيديه الأمر كله، دقّه وجلّه.

رد الأعمى وقد توقفت عصاه عن تفرّس الأرض، وضرب الطين، وأكمل سيل كلامه المتقطع، لأن فمه أعوج، ولسانه شبه مربوط:

- **معك حق، شكلي تغير، أنا من جيلك، وكنت ألعب معك في جادة السوق، وبين أساطين البيوت، لكن شكلي يوحي بأني غير ذلك، فكنت لا أتوقف عن الركض من**

بيت إلى بيت، وينعم علي أهل طنجة بالطعام، ويمطروني بالحنان، فأنا ابن أبي، وابن الميناء الذي وجدوني فيه، وعشت كل عمري، ضحية لحظة نشوة أب غرته فحولته، وأم مغلوب على أمرها، أو قد ضحك عليها، وبيتي الشارع.

أمطر النقاش بمطر ضحكاته العوجاء، ليستهزىء بنفسه، واكتفى ابن بطوطة واليهودي بالسكوت، فلا شيء يستدعي الضحك، ولا الكلام.

يبدو أكبر من عمره بكثير، وقص على صاحبه القديم، ما حصل معه، فظن أهل طنجة أن عيناً ضربته، أو أنه تعرض لحادث فأصابه خرغ، فشلّت أعضاؤه، أو عند بلوغه جاءته الأمراض ولا أحد يرعاه، ومن شدة الحرارة تفتقت أعضاؤه، ولم يكبر جسده، فتقوّس الظهر، وجف ماء العينين.

- **لقد تذكرتك، سبحان اللّه مغير الأحوال، وكيف عرفت أني مسافر؟**
- **قالت لي عيوني المنتشرة في المدينة، فأنا أتلصص على كل شيء، فلا يغرنك ضعف حالتي، بل ركّز في قوة حيلتي، وأنت نابغة، وابن عصرك، وعليك ألا تعود إلى هنا، وخذ ما تيسّر لك من زاد يوصلك إلى أقرب مدينة، واكفف نفسك شر الموت لا يعرفك أحد، ويأكل الملح تراب قبرك، ويمحو أثرك الزمن، اجعل من عنفوانك مصلاً للصبر، والعزيمة، ومن شبابك كتاباً بلا حد لصفحاته، وارحل، ولا تعد.**
- **أنا ذاهب للحج، وعائد.**
- **لا تعد، ولا شيء يقول إنك عائد، حتى أهلك وأنت نفسك تعرف أن طريق العودة شاق، وأن سحر الشرق سيأخذك، ولو عاد إلي بصري سألحق بك، أبحث عن أهلي ومصيري، ويا ليتني أستطيع الاستغناء عن هذه العصا، لأترك بلدي، الذي ليس لي فيه موطن، وأسافر في الجهات الأربع.**

بطيبة قلب، ومحبة فائضة مثل الماء الطافح على جابية خلف الزاوية، استطرد الشاب الضرير، يصف جشع ابن آدم، ونكرانه للفضل، وعلّل تسميه بالإنسان، لأن جوهر وجوده النسيان، فينسى الأهل، لو وجد أهلا أفضل منهم، وينسى وطنه، فإن عاد إليه بصره، فأول أمر يفعله، سيرمي العصا التي هي عيناه، ويداه، ورفيقه، وابن آدم أسير حاجته، ورغباته، وفي اغتراب دائم، منذ النزول من الجنة، ولا وطن له في الأرض.

الرحلة المقدسة

إذا قيل: رفقاً! قال: للحلم موضعٌ

وحلم الفتى في غير موضعه جهلُ

المتنبي

الخميس 2 رجب 725هـ

القيظ وصل بسلامة وترحيب، بعد ربيع ليس بالقصير ولا بالطويل، تتعاقب الفصول على طنجة، وكذلك الممالك، وهي صامدة في وجه التاريخ، وتندمج مع الحضارات، تعطي وتأخذ من غيرها، كباقي المدن الساحلية، تنفتح، وتتقبل الآخرين بصدر رحب، وتلفظ أبناءها كما يلفظ محيطها المظلم حيتانه.

أزفت ساعة الرحيل، وعلى ابن بطوطة أن يجهز راحلته، فقد اختار ذلك، وسمع الكثير من النصائح، بأن لا يأخذ معه حصانا، فيطمع به قطاع الطرق، بل يركب حمارا، أو بغلاً، يجعل من يراه، يرأف بحاله، ويتصدق عليه، بدلا من سرقته.

ولم يسمع كلام والدته بالسفر مع قافلة الحج، لكي يستريح، ويتجول في المدن والبلاد، وسيرحل مبكراً قبل الحج بأكثر من ثلاثمائة وثلاثين ليلة بقليل.

تجوّل في طنجة، يودع طرقاتها المتعالية على البحر، وهضابها، وبربرها وعربها وعجمها، ونساءها الجميلات، ولم يعرف أحد، إن كان قد سكن إلى واحدة من فتياتها، أو جواريها المجلوبات من كل مكان، ولم ينس الموانىء وأساطيل السفن، وزفرة البحر، ونوارسه، وبحارته، وتجار السوق، من أعاجم ويهود ومسيحين، وعرب، ومن سكان المغرب الأصليين.

وترقرق الدمع في عينيه، وهمى كالغيث، يكفكف دمعه بكم جلابته، كي لا يلمح أو يقرأ أحد حزنه، ولم يتنازل الوزير أن يخرج ليودعه، ولا ابنة جبرين التي ذهب إليها، فوجدها باسمة الثغر، ضاحكة العينين، وفي يديها قدح من الشراب، ومزاجها قد فك الصدأ المكبل به من سنين، ووقفت ثم مدت إليه

يدها الناعمة، وأعطته قبلة طويلة، فأحس بطعم الخمر الحاد في فمه، وهو لم يعتد عليه، أو يذقه من قبل، فتجلّد واستسلم حتى توقفت، وابتعدت.

متأرجح الخطى، يشعر بأنه ثمل من القبلة، والعناق الأخير، فهو كمن يودع شيئا منه، وهي باتت كالمقبرة تودع ميتها الذي تشيع، وحمل نفسه بعيدا عن مكانه المفترض، وأبى أن يموت حتف أنفه، وطنجة تبدو مثلها، مقبرة سكانها موتى على قيد الحياة، ويفارقها ابنها، وهي مؤمنة مثل أمه أنه سيعود، وإحساس الأمهات لا يخيب، ولو طال السفر، وهو مربوط بمرساة الحب والحنين، والتراب، وعرق البحر ورطوبته، وزبد المحيط، وجبال وسهول، وقرى، وصوفيين ثملون بحزنهم، في الزاوية، يتناثرون في سكناتها كالجرذان الممقوتة المتخبطة.

خرج من عنق القنينة، إلى آخر نقطة يلحقه فيه أهله، ومعارفه، وساعيا في غدوته، يحث خطاه نحو مقصده، مدينة تلمسان، ورمى خلف ظهره كل شيء، وفي جيبه بضعة دنانير، وقد دكّ ملابسه في شوال من قماش خشن، وآخر يجلس عليه، فكان يؤذي مؤخرته، وقد اعتاد على الديباج والحرير، والقطن المندوف، والصوف المنكوش، والفراء الناعمة، ولم يكن لديه إلا ما يكفيه من الزاد والماء، ولبن يسد به صوت بطنه، قبل أن يدلج ليله.

فخرج صوت قرينه فوصل إلى قلبه:

«ها أنت قد بت وحيدا، وقد فارقت وكرك، وهجرت الأحباب، من الذكور والإناث، ومعهم والدك، ويستحملان ما ستستحمله، وقد لقيت من فراقهما نصبا وصبا».

وعلى مسير ليس بطويل، سيلحق بقافلة، عرف أنها تسير إلى تلمسان، وتقصد تونس، والرحلة في مأمن، فلا سارق أو قطاع طرق في مملكة بني مرين، وعليه اللحاق بالآخرين قبل الوصول إلى تلمسان التابعة لأبي تاشفين عبد الرحمن بن موسى بن زيان، وهناك هو على موعد سري مع رسولي ملك إفريقية قاضي تونس محمد بن أبي بكر النفزاوي، والشيخ محمد بن الحسين القرشي، ولا أحد يعلم لمَ أرسلهما الملك إلى تلمسان، ولم يكملا طريقهما إلى طنجة، ولا يعرف الرسول الشاب ما يفعله، فكل الذي قال له والده، أن يلحق بهما، ويسير إلى تونس، وهما سيرتبان له كل ما يريد ويحتاج، وسيمكث في لدن الحفصيين، الحلفاء لبني مرين، وناصري الحق بالعلم والصوارم، وعند وصوله إلى تلمسان هبة الصحراء، لم يجد الرسولين، وقد رحلا عنه، فأصابه من الشجن ما يكفيه، وتورم أنفه، رغماً عنه، وحل به

الشؤم من هذه الرحلة، وقد بانت ملامحها الصعبة، فليس أمامه إلا أن يجلس في تلمسان يتدبر أو يستأجر من يدله على الطريق من عرب الصحراء المعتادين على الدروب، ولا يتوهون فيها، وبعد ثلاث أيام من الراحة والتفكير، وقضاء المآرب، وصله خبر أن الرجلين قد سبقاه إلى مدينة «مليانة» وهي أكثر ملاءمة للالتقاء به، من تلمسان، وعيون أبو تاشفين، وقد لمسا عداءه المحموم للدولتين، وتحالفهما، ولا يريدان أن ينسفا رحلة ابن بطوطة قبل أن تبدأ، فتبع آثارهما، ولم يسلك طرقاً وعرة، وعرف ما عليه فعله، وأعانته العيون، والمساعدون من كل الأعوان في تلمسان، وأحس بعودة الحياة له، وشد حبل الأمل، وتحزّم به، وتلقف خيط دربه الموصل لهما، وأكمل السير إليهما.

ما إن وصل حتى وجد المحمدين ينتظرانه، مثلما ينتظر الصائمون العيد، وقد هلّ عليهما في عصر يوم حار، وفي الأفق عجاج، يحجب الرؤية، فحمدا اللّه، أن يكونا متواريين عن الأنظار بقدرة الخالق، ولا أحد يتوقع أن يسقط الشيخ النفزاوي بضيق تنفس، ويشحذ الهواء، ولن يتمكن من الحديث، ولا يقوى على إخراج ما بجوفه من أسرار، ولن يسمع ما عند ابن بطوطة، وما سيحمله من أمانة، في طريقه إلى مصر.

مرض الفقيه طوى عشرة أيام وتسع ليال، فأوقف القافلة، واستشار الوفد بعضه، وقرروا العودة إلى مليانة، التي كانوا قد تركوها، وآثروا الإبطاء، والتريث، والبحث عن طبيب معالج، ولكن سقطت ورقة الفقيه الفاضل، والعالم الشامل، قبل أن يلحقه طبيب، أو يكشف سبب علته، ودائه، فظن رفاقه أنه قد يكون دُسّ له السم في طعامه، وخافوا من عيون تلاحقهم، وقوى تقتفي أثرهم، وشكوا في قلة خبرة ابن بطوطة، أن يكون قد فضفض لامرأة خلى بها، أو رفاق وجدهم على طريقه، ولكنهم طردوا الشك باليقين، عندما عاشروه، ووجدوه حاذقا، يزن كلامه، كما يزن الصائغ قيراط الذهب بدقة.

هكذا مرت الأيام الأولى من رحلة ابن بطوطة، متسارعة الأحداث، فبعد وفاة النفزاوي، توجه إلى الجزائر، لكي لا يثير الانتباه، وارتحل مع رجلين من أتباع السلطان هما مسعود المنتصر، وابن الحجر، وقد كانا شديدي الحرص في التعامل، والانتقال، لأن طريقهما موصوم بالخطر، فهما يتنقلان بين أرضي صديق وعدو، لا يستطيعان أخذ راحتيهما في الحانات، ولا التوقف في الواحات، للاستمتاع بشواء التيوس، ويكتفيان بتجارة التمر الصحراوي الجاف، المطلوب في المدن الساحلية، مع أن خمره غير وفير، لأنه ناشف وليس به ماء وفير.

في الطريق إلى الجزائر، أصابت الحمى ابن بطوطة، لدرجة أنه كان يهذي بابنة جبرين، وطعمها اللذيذ، وكانت حرارة جسده مرتفعة، ولكي لا يفضح من هم معه، جلبوا له جارية تدفيه، وهو غائب عن وعيه، غارق في عرقه، ويلف رداءه عليه، كما تتستر المرأة، والماء ينز منها، وهو مثل كومة قماش خشن، فاجتمع الغلمان على أن ينزعوا عنه ملابسه، وأوهموه أن هذه الجارية هي امرأته وحلاله، ووضعوا يده في يدها، ولقنوه كلاما سريعا، كعقد قران، وبصعوبة بالغة، أجبروه على التعري، وشرب حليب بقر ساخن مع البصل، ووجدوا «الظهير» وهو المرسوم الذي يحمله بختم السلطان المريني، لتسهيل مهمته، في أي مكان من أراضي الدولة الإسلامية يقصده، وحمدوا اللّه أن ضربته السخونة، وأوقعته، فلو وقع في أسر أحد، في هذه البقعة أو بقاع أخرى، ربما يقتلونه شر قتلة، ويرمونه في الصحراء، ولا توجد رحمة خصوصا في بلاد الموحدين الذين شاهد بعينيه البطش، والجبروت الذي يوصفون به، وولاتهم على الناس يسبون كل من لديه مال، وكل عابر يمر من ديارهم، ما لم يتق شرهم بالرشى.

لم تكن الأراضي التي مروا بها آمنة، والأمانة المكلفين بحمايتها، وهي الرسول السلطاني، الذود عنها، شبه مستحيل، وقد نفدت الأموال، وعليهم التحرك شرقا، فساروا نحو قسنطينة، ففيها من الجبال، وقرى البربر المتعالية في القمم، فأكرمهم عملاؤهم فيها، ومن حلوا عليه في أخبيته، وساحوا في الأرض أياما قليلة، يريدون أن يبيعوا الأحصنة والبغال، ليحصلوا على نقود تكفيهم في رحلتهم، حتى يصلوا إلى مدينة تونس.

وكان كبيرهم قد عرف بأمر ابن بطوطة، فطلب من غلامه تأمين إحرام بعلبكي مما في حوانيت طريق الحج، فاغتسل الضيف، وأحرم مبكرا، وباع دابته، وأمنوا له طريقا مع الذين التحق بهم.

مشدودا بعمامته إلى الدابة، خوفا من السقوط، وهو نائم، ولكي لا يقضي عليه الهلع، من هوائل الرحيل، وصل محمد بن عبدالله اللواتي برفقة الرسل والتجار، إلى تونس، بعد معاناة طويلة، يحمله شوقه وحاجته إلى الأمان، واستكمال رحلة الإيمان، ولكن المرض اشتد عليه، حتى كاد يموت، وتحمل وعثاء السفر، ليراه الناس رجلا قويا، وعند بروز علماء المدينة وأعيانها لاستقبال الضيوف، على أطراف المدينة، أخذوا بعضهم بالأحضان، فهم يعرفون بعضهم، وهذا ضيف جديد في وفد السلطان، ورد على رجال أبي يحيى بن أبي حفص، فأمطرهم ببحر من الدموع، وقد تأسى على حاله، وعلى فراق أهله، وعلى غير إرادته انفجرت حرارة جوفه، فتركوه حتى يهدأ، والتمسوا له العذر.

رست قافلة الراحلين في صفاقس، بعد أن نصحهم وزير السلطان البلنسي، بأن يتخذوا الطريق الساحلي عبر سوسة وصفاقس ومن ثم طرابلس، للوصول إلى مصر، ثم ركوب بحر النيل، لينزل ابن بطوطة فيها، وتكتمل معالم رحلته، ولو كان هناك من يتتبعه، سيصدق مسار رحلته التي تأخرت لموت النفراوي، ومرضه.

استأنس ابن بطوطة في رحاب تونس، واستقر بجانب خطيبها وفقيه البلاد والبلاد المجاورة كلها عمر الهواري، وإمام جامع الزيتونة، وبقية الفقهاء الذين كانوا يتحركون بحرية أكثر، وسطوع لعلمهم، بلا حذر، ولا خوف من وشاية، أو عداوة، باستثناء الأعراب في الأمصار، المتمرسين في الغارات، لا يهابون جانب أحد، ولا يخضعون للسلاطين والولاة.

جلس يراقب ازدحام الناس، واكتظاظهم على الفقيه، يطلبون فتاويه، وعليه حرس من الجند، لكي لا يكون هناك مدسوس بينهم، يريد بالشيخ شراً، وفي برهة من الوقت، وجد نفسه محصورا بين الخدم، وهيعة السكان، والمستفتين، وجنود بيض وسمر، ليمر موكب السلطان أبي يحيى، بمشية منتظمة، وعلى إيقاع واحد، حتى توقفوا في أسطون الزيتونة، لحضور الخطبة، وشبت في عروقه العزيمة، وما إن انتهت الخطبة، حتى فز، يقدم نفسه للسلطان:

- **حييت يا مولاي، وأمير المسلمين، أنا محمد بن عبدالله اللواتي ابن قاضي طنجة، ومن أتباع سلطاننا أدام اللّه عزه، وصارمه ضد الكفر، وعُظّمت مسالكه في طريق الحق.**

ضحك السلطان، لجرأة الفتى الذي أوقف السرب، وأعجب بشجاعته، وفصاحته، فأراد إكرامه بطيبه المعهود، ولسمعة الذين ذكرهم، فسيحظى بكرامتهم، ويفتح له باب الفضائل.

- **ابن قاض ومن نسل قضاة، ومن رعية إمام ابن أئمة، عرفت بوصولكم، وستمثكون عندنا حتى العيد.**
- **هذا فضل كبير، وندعو اللّه أن توازيه صنائعنا، فشرف لي أن أخاطب سلطان الحفصيين، وظلال العلماء، وقاهر الغي بالرشد، وطارد الجهل، فلا يظلم عندكم أحد، ولا يجهل علينا معتد.**

كاد آمر الجند أن يهوي على الشاب، بمؤخرة سيفه، ويركله برجله التي تشبه خف الجمل، ونعله الطويل كأنه طير كاسر، مسربلا بالحديد، فأبعده، وأعطوه خبراً بأن يلحق بالقصر مع الخدم، وارتمى على مؤخرته، وقد دخلت بها أحجار الطريق المدببة، فوخزته، وصرخ بالتأوهات، وتجمهر الشهود حوله، فاغري الأفواه، بوجوه كالحة، والشيخ الهواري يمشط لحيته بيده، عائدا لإعطاء الفتاوى، ويوزعها على طالبيها قبل أن يعود لبيته.

تدافع الناس على الفقيه، واهتمامهم بأمور دنياهم، شجعته على التريث، وإيجاد عمل له، يكسب منه ما يتيسر، فهو يمنع على نفسه حمل المال، لأن في جمعه ضياعه، وسيقوده الطمع إلى التهلكة.

جاءه الوالي إلى حيث يسكن في زاوية من زوايا الصوفيين، واجتمع معه أكثر من مرة، ورأى فيه شابا متقداً، قادراً على الاعتماد على نفسه، وخطيبا يجيد سبك الكلام، والجمل الرنانة، ويمكن أن يعيش لو سافر إلى مصر، ففيها الناس والبيوت على مدى النظر، وجلس يختلس النظر إلى المارين، ويمعن، ويدقق في كل من تمر من النساء الجميلات، لكنه خاف من قوتهن، فقد رأى بعينه، وسمع الصراخ، والقتال بين الأزواج في الدروب، ومن خلال نوافذ البيوت المنخفضة التي يمر بها، في الذهاب والإياب، وترحم على أيام طنجة، التي لا يسمع صوت أحد، ولا تقوى النساء على رفع الأصوات على الرجال، تقديرا وخوفا، وعادة.

ما إن جاءه الأمر، وأوصل مافي جعبته من وصايا، ورتّب كل شيء له يربطه مع بلاد الحفصيين، وعلمائها الأجلاء، أعد أغراضه للرحيل، وقبل ذلك لم يكن لديه إلا أسماله، وقد أنعم عليه السلطان، وأمر له بصرة دنانير، واشترى لنفسه ما يحتاج، وفكّر في أن يكمل نصف دينه، وألا يبرح هذا المكان، إلا بعد أن يضع فيه له سكن، وامرأة تغدو من الأرض ذاتها، يحس بانتماء لها، وينتمي لبلدها، ويعتاد عليه، فتكون لباسا له، وكي يقوي علاقاته مع أهل المدينة، فيصاهر إما عالما أو تاجرا، وسمعته وأوامر السلطان ساعدته على توفير كل ما يريد، أغرته، وحب المنفعة، والعودة والاستقرار بين الحين والآخر في بلاد تتوسط كل شيء، بين المشرق والمغرب، وفيها سلطان يقف مع سلطان الدولة المرينية، وشهم وصميدع وعادل، وقد وافق له السلطان على أن يعمل قاضيا، ويكتسب رزقه من فتاويه، ويتنقل بين المدن، يقدم خدماته الشرعية، وأهل هذه البلاد مالكيون يجلّون ويقدرون كل فقيه مالكي، ورهط لا بأس منهم صوفي، يؤمن بالكرامات الصوفية، وبأن هناك أولياء صالحين، لهم قدرات خارقة، وجاه بلا حد، وابن بطوطة ممن يتوسمون فيه الخير.

الظاهر من الأمر، رحلة إلى الحاجز، والباطن المخفي، الجلوس في تونس لعدة أشهر، ولم تكن الأسباب معلومة عن سبب مكوثه، وربما يكون الحذر، ولوجود أسرار، أو أن هناك من يتحداهم على الطريق، فنزع إحرامه، وقص شعره الأملح الطويل، فأغسان الناس طيبة، ونفوسهم طيبها شط عما آلت إليه حالهم في الجزائر، فالجود نزر هناك، ولا ممالة لهم من قبل أتباع الموحدين، فارتاحوا واستجمعوا القوى، فزم الحاج إحرامه، وخرج يسعى في الترهات، وقد بانت ترائب صدره. وشعره يتدلى كشجر محمل بالأفانين، وانتابه السرور، في المكوث بهذه البلاد، متنقلا بين صحرائها جنوبا، وخضرتها شمالا، وشد رحاله إلى الصيد في البراري، حتى تعمق في إفريقية، لاصطياد الأراوي والأرانب.

وخلال الخروج من صفاقس رافقهم مائة فارس من أمهر رماة قبيلة المصامدة، لتأمين الطريق، ولحمايته، حتى يصل إلى طرابلس بسلام، ولا يوقفه أحد في سرت، وقد أمضوا في قابس شهرا كاملا، لتوفير المؤن، وتجميع القوى، والاجتماع ببعض القبائل، فأعجبه منطقهم، فلأول مرة، يقترب من الشرق، ويجالس قبائل عربية، من الرعاة، وأهل البيد، فكان كل عمره يراهم في الحواضر، وفي مدن البربر، متقعطين، وليسوا بجموع كأسراب الجراد، يتحركون ويتنقلون سويا، واندمج في خضم حياتهم، وانذهل من صرامتهم، وشظف عيشهم، واعتمادهم على التمر والحليب، والخبز أحيانا، وحبهم للمطر، كحب النصارى لصليب المسيح. ولولعهم به، فيخرجون عاريي الرؤوس، يرقصون معه، ولاحظ اختلاف لهجاتهم، وبلاغتهم، ودقق كثيراً في عاميتهم الأقرب للغة القرآن.

وأراد ابن بطوطة أن يكسب ود أهل المنطقة، وابتعد عن وصاية السلطان، واكتفى بقبول ما أمره به، بتأجيل الحج، فاستأجر وراقا، ليخط مكتوباً إلى والده، ومعه دينارين من الذهب، كسلام وهدية لوالدته، وتضمنت رسالته، تحية لابنة جبرين، فهي لم تفارق خياله، وأصيب بالحمى، وهذى بها حتى عرف كل من في القافلة، اسمها، وأوصافها، ولم يذكر شيئا لها في الرسالة، وفي نفسه تعج الأمنيات بمرافقته في رحلته الطويلة، ومتعددة الأماكن، ولولا الحياء، والمهام التي يحسب أنها لا تعلم عنها شيئا، والحذر الشديد الذي كان يعتريه، والخوف الذي يتلبسه.

ولكن في هذه الديار، ومع المال الذي بدأ يكتسبه في صفاقس، من عمله كقاض يصرف أحوال الناس في الحوائج اليومية، وجد رجلا محبا للصوفية، وأراد أن يسافر معه إلى مصر، ولا مانع لديه من تزويجه ابنته، بلا مهر، أو تأمين مسكن، ولا أي شيء، وهو يريد التقرب من الفقيه الشاب، وابن

بطوطة يريد أن يحيا حياة الجاه، والسلطة، فقبل أن يتزوج بالفتاة، ويقوي علاقاته بالأعراب من أهل المدينة، ويضمن وصوله إلى طرابلس، فيعلو شأنه ومكانته.

وابتاع لنفسه فراشا، وملبسا جديدا، ولم يشتر للعروس حتى خرقة، ولا شيئا تتزين به له، لذلك سرعان ما دب الخلاف، ولم تعجبه، فألقى عليها يمين الطلاق، وأعجبه أن القوم يتسابقون لإرضائه، ويتباركون به، فإذا بأحد التجار يعرض عليه التعويض بتزويجه بابنته، ولكنه هذه المرة كان أكثر تريثا، وحكمة، فلم يستعجل، ولم يبخل عليها بالمسكن في طرابلس، والسكن إليها، واشترط أن يراها، وأن يكون له الحق في النظر إلى وجهها، وأن تقف أمامه، ويتحدث معها، ولو أنها عذراء، يقطر منها الحياء، كما يقطر العسل من بيت النحل.

لم يفصح القاضي المسافر عن نواياه، وعن حبه للتغيير، وعدم الجلوس في مكان ولا الصبر على امرأة واحدة، ولو أعجبته ووجد فيها كل ما يريد، وما يطيب له، من حسن المظهر، ولطف المعشر، ودفء الملمس، وهذه الزوجة التي كناها بأم عبدالله أراد أن تنجب له ولدا، ومن شدة حبه لها، جلس شهراً كاملا، لا يخرج من البيت، ولا يرى النور، حتى زاد وزنه، وتعبت منه، وأصاب وجهها الجفاف من كثرة التقبيل، وتدلت شفتاها، وامتدت، ونحل عودها، فلا يدعها تنام الليل، وفي النهار تقوم على خدمته، وتدليله.

ومع انتهاء العام، واكتمال بدر ذو الحجة، وانتهاء العيد، عزم ابن بطوطة على استكمال طريق الحج الذي كان ينوي إتمامه، ولو فات عليه الفرض، فلا مانع من أداء العمرة، والمكوث في مكة، وفي حوزته أمور كثيرة سينقلها للعلماء، ويقوم بها، ويقف عليها بنفسه، وقبل الوصول إلى الحجاز، هناك محطة مهمة في طريق الرحيل المقدس، فعليه الذهاب إلى الإسكندرية، والاتصال بالمماليك فيها، خدّام الدين، وحلفاء كل من يسعى للذود عنه، وقطع دابر الفتن.

دب الملل إلى روحه، فبحث عن أعذار تجعله يفارق الزوجة، ولكن هذه المرة، على وعد العودة إليها قريبا، وأعطاها من الوعد ما يجعلها تتصبر، وترتضي فراقه، في رحلته إلى مصر.

- **ستجد الكثير من نساء مصر المعروفين بالغنج، والسحر، وتنوعهن بين عجم وعرب، وترك وسودان، وقبط ومسلمين.**

- أنا ما زلت عريساً، وقد تزوجت أعرابية من علياء قومها، ولا أستبدلها بأية امرأة.
- أذهب معك، فقد سمعت أن مصر تسحر الألباب، وأن أهلها لا ينامون.
- دعي عنك هذه الخرافات، ولتجلسي في بيتك، على أمل أن يتم اللّه علينا نعمه، وتحملين لي نبأ سارا، وتكوني حبلى، وأصبح أباً.
- انقطع الطمث عني، ولم ينزل علي دم، وأنا في لهفة أن يبقى شيء منك بي، وأن يختلط دمي بدمك.

حل الخبر على قلبه كالغيمة السوداء الحبلى بالرزم، واختلط الفرح بالخوف من المجهول، وآثر الصمت المعتاد، وقد تدربت ملامحه عليه، وأصبحت محايدة أمام أي شعور يخالجه، فلا تعقد حواجبه، أو تبرق عينيه بسهولة، ولم يقصر من دربوه، أو أعانوه على هذا الأمر المهم، لكي لا يقرأ أحد وجهه، أو يستطيع فك رموز عاطفته، من خوف أو حب، وحزن، بل يبقى بنصف ابتسامة حين يحتاجها، ووجه يصلح لكل الفصول والأحوال.

لم يشأ أن يكني زوجته بأم عبدالله، ولم يختر اسماً للولد، واحتال عليها بأنه عائد لتسميته، والاحتفال ببكره، وسيرسل لأبويه ليختاروا اسماً، وإن تأخرت عودته، فلها حرية التسمية، وقد ترك لها بيتاً أجماً، ولم يترك لها مالاً، معتمدا على وضع أنسابه المرتاح، ولم تبخل عليه، بتجهيزه بكل ما يحتاج، فاشترت له عبداً أبطش الأنف، وكبير الدماغ، وعريض المنكبين، كأنه غول، يعينه ويحميه، وإن احتاج مالا، فوق ما أعطته من نقود ذهبية، يسطيع بيعه بثمن عال، وهو يجيد الطبخ، واستخدام الرمح، والمقلاع.

خلال المرور بسوق العبيد، أحب أن يملأ عينيه، بلا موانع، من النساء الحمر، والبيض، والسمر، وأخذ رداءه الطويل يكنس الأرض المتسخة، حتى نهاه نسيبه عن الليس الطويل، لأنه لن يستطيع الصلاة به، وسلامة الملبس من النجاسة مشكوك فيها، خصوصا وأن العبيد يبولون في أماكنهم وهم مقيدون، والخلاء المسموح لهم به، عبارة عن سطل، تتم إزالتها بعد كل تبرز، ما إن يجتمع عليها الذباب، وتعلو الرائحة المتخمرة، فلا يعطون أكلا كثيرا، لكي لا تكون لهم فضلات أكثر، ويتعبون أسيادهم، الذين لا يفهمون لغاتهم، وأكثرهم مجلوبين من بلاد بعيدة، فيكتفون برمي خبز يابس لهم في الصباح، وماء فاتر، مهما كانت درجة الحرارة، ووعاء لقضاء الحاجة.

سار ابن بطوطة يشد على أنفه بكفه، ويطبق عليه بالإبهام والسبابة، ويلف طيلسانه على وجهه، حتى لا يعرفه أحد، فهو القاضي الغريب، الذي يحكم بين الناس، ويرد إليه أهل البحر والبر، ليفصل بينهم، ويحكم لهم، فماذا يفعل مع العامة، وقد يكون مرصودا، من قبل البصاصين، والمتتبعين للحركة السرية، مع أن لا أحد يعرف عنه شيئا، ولم يحس به، لا الفرنجة ولا الروم، ولا المنافقين، أو حتى الغيورين على الإسلام والفدائيين، بل كان الحرص على أن تبقى الأنشطة، والجهود طي الكتمان، ولا يسمح بالخطأ، أو الكلام، ولا الكتابة في هذا الموضوع، ولا تواصل إلا على نطاق ضيق، بين الحكماء من الولاة والقضاة، والسلاطين المجاهدين، فقد نجحوا في حبك العلاقات، واستعانوا ببقايا العباسيين، من رجال الدولة المتأثرين بالفرس، وأهل خراسان والمماليك والكرد والترك، بعلاقاتهم، وخبراتهم الإدارية، وتغلغلهم في الدول، والمجتمعات، كما استعانوا بعلاقات العرب بين بعضهم، وشجاعة رجالهم، والمتطوعين من قادة الجند الذين قدموا تضحيات في جيوش المماليك الذين تصدوا للصليبيين والمغول، شرقا وغربا، وحموا بيت المقدس من التنديس، وأوقفوا سيل الزحف للكفار والنصارى، للوصول إلى الحجاز.

وبينما هو يتجول يمتطي صهوة عنفوانه، يرفع أطراف جلبابه، لكي لا يصل إليه أي تراب أو وسخ من أوساخ الدروب، زم ثيابه وأراد الدخول إلى المسجد، فوجدهم خارجين، ولم يلحق على صلاة الجماعة، فإذ بدرويش يفترش التراب، ويحمل الكثير من الخرق، وقد توسد التراب، حتى بانت بقاياه على وجهه، ولحيته الصفراء، راح ينفض التراب وصغار الحصى العالق على خده، وفروة رأسه، ويتمتم قائلا:

- إخرج يا قاضي، واتبع الماضي، واتخذ زوجا من كل الأراضي.

أحس بأنه يعرف هذا العجوز، وعندما سمع كلامه، عرف أنه يقصده، ولكن لم يعطه الدرويش أي مجال للحديث معه، وتحدث كأنه مجنون، يرمي عبثاً الكلام للهواء، وفهم ابن بطوطة الرسالة، ولم يتذكر أن هذا الرجل قد شاهده في ليانة وفي طنجة، وسيشاهده في رحلته كثيرا، وكأنه يرافقه ويحرسه، أو يوصل له الرسائل، من دون أن يثير الانتباه.

عاد من وسط المسجد، ولم يستطع الصلاة لوحده، والخوف والحذر يسيطران عليه، وأقنع نفسه بالصلاة في البيت، مادامت صلاة الجماعة قد فاتت، وثيابه عالق فيها بول أو نجاسة.

لم يطق صبراً عن الرحيل، ولم ينجز كل أموره، أو يشتري دابة تقله، ولم ينتظر ليؤمن المال الكافي لرحلة مصر ومن ثم الحجاز، وأخذ الإشارة التي وصلته على محمل الأمر والجد، واستأذن زوجته ووالدها، وأخبرهم أن يوصلوا السلام لمن يهمهم أمره، من أصحاب العقد والربط والسلطة.

حلت ساعة الفراق مع الزوجة المغلوب على أمرها، وغير القادرة على الاعتراض، فهي قد رضت به، لتكمل نصف دينها، وتستر نفسها، وهي مدركة أنه مفارقها، وربما بلا رجعة، وبإحساس المرأة وتركيزها، شعرت أنه غير عائد، وأن زواجها قد استمر شهرين فقط، وكان مثل الحلم، ولا بد لها أن تصحو من خدره، وسحره.

- **أفارقك يا كل الأحباب، يامن عوضتني عن الأهل وأسكنت روحي، وآنست وحشتي، وسترت عيبي، وحمتني من السؤال واليباب.**
- **كنت لي خير زوج، وقضيت معك أجمل أيام العمر، وستتركني لتذهب لغيري، كما فعلت مع من هن قبلي.**
- **أنت مختلفة، وأم ولدي، وابنة الحسب والنسب العربي، والجاه التونسي، وسأقيم بدارك.**
- **دعني أطرح عليك سؤالا، ولتسمح لي، وتعذرني.**
- **قولي ما شئت.**
- **أنت مسافر، أم مهاجر؟ قلبي يقول إنك لن تعود، ولو صرت لك من أديم هذه الأرض سكنى، وزرعت بي من غرسك ودمك ولدا، فتأهبك وحرصك وتجهيزك لرحلة بلا عودة، لا لسفر، وحج، ولم تترك لك شيئا هنا، وما سرعتك، وبناء بيتك، إلا ذر للرماد في العيون.**

تلعثم الزوج، وتعرقت جبهته، وتهاوت جدران صمته، فشد عزمه، وتقدم إليها، ليتدارك الموقف، بالقبل، والعناق، فدفعته، وهي تحس بنفسها، قد عافته، بعدما أحبته، وهامت به، فلا تريد أن تضعف قواها، ويحس بضعفها، وهي مجبورة على التحمل، والتخلي عن حقوقها، ووافقت على شرطه منذ البداية، أن تتحمل غربته، وتصبر ولا تعترض.

ودّعها بعدما رضخت له، وأعطت حقه الزوجي في الفراش، فباشرها برفث أخير، واغتسل سريعا من الجنابة، وهو منتعش، ونفض الغبار عن ملابس

السفر، من سروال طويل وقميص، وعمامة وطيلسان، لتساعده على الحركة، ولا تكون ثقيلة أو معوقة لحركته، وقبل الوصول إلى الإسكندرية، سيأوي إلى أقرب خان أو فندق، يستحم، ويرتدي ملابس القضاة، ذات الهيبة، والطراز الفاخر الذي يعكس الوجاهة.

دنى ابن بطوطة إلى بطن زوجته، وطبع قبلة طويلة، وطوقها بذراعيه، كأنه ذاهب للموت، أو لطريق لا عودة فيه، ولم ينفك ويتوقف، حتى هبطت على وجهه دموع الزوجة المغلوبة، وعبده «فيروز» يقف حائرا، وصفير أنفه يخدش صمت الزوجين المنشغلين بوداع حزين جدا، وبلا دموع، وبينهما طفل، لم يكن في الحسبان، ومنع طلاق الأم، فلا طلاق لحبلى، ولا يمكن للأب أن يعود عن درب سلكه، ويترك مهمته التي يعتمد عليه فيها سلاطين دويلات الإسلام، وهو لم يبدأ، وقد وثقوا فيه، واستمسكوا به، وجاءته الإشارات، والبشارات، أن يسافر إلى الإسكندرية، ويجوب كفور مصر وأقاليمها، يدور بين الزوايا، والمساجد، ودور الولاة، ليحصل من جباياتها، وينفق على رحلته، وليس معه في هذه الرحلة إلا فيروز الذي لا يحسن أي لغة، وحصيرا ونطعا، وآنية وجرة ماء.

في رحلته إلى الإسكندرية، لم يجد من يتكلم معه، فعبده كالجلمود، لا يسمع ولا يرى، ولا يتكلم، ويكتفي بهز رأسه، والصراخ عند الجوع، وكل قرية أو منزل لأعراب يقفون عنده، يهجم على الأكل، بلا استئذان، وقبل أن يفكر سيده في الدفع لهم، إن كان مر بدكان، أو من يفترشون الأراضي في الأسواق، وما إن يعرفوا أو يأتي إليهم رسول يخبرهم عن قدوم الضيف، ويعرفهم به، حتى يهجموا عليه، يتمسحون بثيابه، ويقدمون أرغفة الخبز، واللبن، والتمر، ويطلبوا منه أن يمسح على رؤوس الأطفال، ويتامى السوق، ويرقص الدراويش، وفاقدي العقل أمامه، يهللون ويرحبون به.

قبل الوصول إلى الوجهة الكبرى في الرحلة المهمة، جلس ابن بطوطة يفكر في حاله، ويسأل نفسه عما سيكون عليه، وقد أحس بنفحة حزن، وكسرة قلب، بتركه فلذة كبده، وقبلهم أمه وأباه، وسمع صوت قلبه، يتردد في صدره، ليعرف أن الأمل مفتاح الأبواب المغلقة، وتضحيته الجليلة، ستخدم الأمة، وسيعيش حياته بالطول والعرض، وفي كل مكان يترك له شيئا منه، وهناك من سيراعيهم، وينتبه لهم، وستصرف لهم المؤن والرواتب، وراح يحدث نفسه بصوت مسموع يذره للرياح والصحاري:

«ما أنا فاعل بنفسي، ما أنا إلا ورقة تنقلها الريح، إلى حيث يريدون، أتقلب، وأتبدل حيثما يكون رزقي ومهمتي، أجوب البلاد، وأكابد المخاطر، والوحوش،

وقسوة العرب، بين النعف والطلول، وأعلام شقائي بائنة، وجبال همي سامقة، لكن أغصان روحي باسقة، وأحلامي كالفقاع، بارزة في درب قلبي، وبرحت خفائي، وما تبلدت، وما تبدلت نيتي، ولو تلبدت الغيوم حولي، وأنا في أول رحلتي، وستبلغ الأمم منتهاي الحميد، ويشكرون مسعاي المجيد».

وصل ابن بطوطة إلى باب السدرة من جهة الغرب لمدينة الاسكندرية، وزاحم المقبلين على أبوابها بعود أودع، حيث قصد أهل المعرفة لسؤالهم، مستعجبا من مبانيها، وتحصينها من ناحية الصحراء، وجهة مصر والقبلة، ومن ناحية بحر الروم، وكأن حصونها، وأسوارها، شاهدة على أصالتها، وصمودها، وأحس بحنين لطنجة، منذ أن شاهد البحر، وشهد ارتماء المدينة القديمة في أحضانه، وكأنها بوابة بين الشرق والغرب، وشهد على المنار مهدم الأجزاء، ولا تزال ذاهبة في السماء، وأبواب الخشب التي تفرش في النهار، وترفع في الليل، وفي أوقات التهديدات، وما أثار دهشته المرسومة على وجهه، السواري، والأشجار الكثيفة في المزارع المتناثرة على أطرافها، فأودع في قلبه أمنية ونية بأن ينام في زاوية قريبة، ويتخذ له مأكلا ومشربا من بساتين ونخل قريب، فلا يكلف على أحد، ولا يثقل عليهم، ولكنه وجد القاضيان عماد الدين الكندي، وفخر الدين الريغي ينتظرانه، ووصلتهم وصايا قضاة إفريقية، والمغرب، واستعجب لكثرة الولاة الصالحين والقضاة والفقهاء المقيمين في المدينة الساحلية، القادمين من المغرب، والهاربين من الشام، والمحبين للعلم من الهند، والمتصوفين المنتشرين في زواياها.

- **حللت بدار سلم، ووصلت خفيف الحمل، وقد صار الأمر إلى النزعة.**

هكذا رحب به القاضي الصنهاجي، بعد ما فرغ من مجالسة القضاة، وطلب منه الصعود إلى سطح الزاوية، فيفترش له مكانا، ويضع نطعه، وليترك عبده غير المسلم، فلم يروه يقم للصلاة، واستهجنوا ذلك، وفكر في بيعه، أو إهدائه للشيخ الجليل، ذو المكاشفة ومعرفة الأمور الغيبية.

- **ماعندي لأهديك يا شيخنا، إلا هذا العبد، وأني لأطلب المكاشفة منك، عن حالي، وما ستؤول إليه.**
- **لقد حلمت بك قبل أن تصلنا، وأخبرت الشيخين عن رؤياي، وصحت ياحي ياقيوم، لكل هذه الكرامات التي يحملها صبي وشاب في أول الرجولة، ورأيتك تحمل على ظهرك نورا، وتجوب ديارا خضرا، بالسياحة**

والجولان، فتصل إلى أقاصي الهند والصين وبلاد الترك وعراق العجم، ويرمي إليك أهل السلام والإسلام الدنانير كحب القمح، ولكن ستعود بعد عقود خالي الوفاض من متاع الدنيا، وقاضيا دراسا، وفقيها في متاع الدين، المعين على الآخرة، ولسانك بارع، وقلبك خاشع، وعلمك يجوب الأرجاء، ومحاطا بالحكماء والحكام والعلماء والأولياء.

- **هذا سحر، وضرب من المحال.**
- **لقد طلبت، ولبيت لك، فكن حذرا يا بني، ولا تقصص رؤياي على أحد.، ولا تبصص إلي كثيراً.**
- **بركاتك يا شيخي، واللهم اجعل بيننا وبين الكفار سدا، فلا يبصرون دونه، ولا يستطيعون المضي أو المجيء إلينا، فقد شاهت الوجوه والأحوال، وعنت إلى الحي القيوم، وخاب كل ظالم، وكل جبار آثم، طس طس، حم، عسق، حم حم الأمر وجاء النصر، ستر العرش مسبول علينا، وعين اللّه تحمينا.**

وسط ذهول لما سمع، كان الخوف يمتلك ابن بطوطة، وارتجف حتى طقطقت أسنانه، وتوقف شعر رأسه، وجسده الكثيف، وراح يبحث عن رداء يزمل نفسه به، ويستر عري ملامحه الوجلة، فأعطاه الشيخ خرقته، واعتبره من مريديه، وأثنى على سلوكه، وأدخله في إرادته، وقبل مسلكه.

واستغرب المريد من تصرف شيخه، برميه في الزاوية، ولكنه أدرك متأخرا، أن الزهد ديدن الصوفيين، والبذخ طريق التسلل إلى الدين، وغاب المسلمون في ملذات الواقع من حرير وأموال ونساء، مما جرأ صهب السبال من الروم، وسود الأكباد من المغول والأنداد.

وأكمل الشيخ الحديث، والشرح الطويل لابن بطوطة، ونزع عنه عمامته، وبان طلحه وشعره الأشعث، وسكنت أنفاس الفتى، وهدأ زفيره المتواتر.

شاع صيت القاضي اليافع، ومرتاد الزوايا المغربي من نسل القضاة، وسيد قومه، وذاع خبره في مدن مصر، حتى أصبح الشيوخ والقضاة، يطلبونه ويقدمون له الدعوات لزيارتهم، والاستفادة من سمعته الطيبة، وقربه من بلاط السلطان الناصر، والوزراء المماليك، حتى أنه صار يسافر إلى دمنهور،

ودمياط، والمحلة، ثم إلى صعيد مصر، ذهابا ومجيئا، يستمتع بالأجواء، والتعرف إلى كرامات شيوخها، وأوليائها، ويحظى بالمقدرة العالية من قضاتها الشافعيين، على الرغم من أنه مالكي، وصوفي، وغيور على الدين، فهو لا يمانع أن ينصهر في بوتقة الدين، وفي حضرة الإسلام يذوب، وينهل من كل العلوم.

عرفه الناس القاضي المالكي محمد بن عبدالله المغربي، وينادونه بأبي عبدالله، ومن كثرة العطاءات، والخير الوفير الذي انصب عليه كالمطر ود لو أنه يستقر في مصر، ولا يغادرها، فمن زاوية لأخرى، كانت سعادته واضحة على ملامحه التي كانت ذابلة، فتفتحت أساريره، وأمسى عريضا، ممتلىء الجسد، وبطنه بارزة، يستلقي كالأشجار التي يلعب بها ماء النيل الغزير، وفي البساتين والمزارع يربض بين جنانها، مستأنساً بالهواء العليل، والخضرة الممتدة، والثمار والطيور، حتى اعتاد على أكل حوت البوري، وشرب ألبان الجاموس، ولا حاجة له أن ينام في أي زاوية، ويتصدق عليه الخدم ويعطونه ما يحتاج.

وفي نهار حار، وقف يطلب الماء من السقائين على الجمال الذين يطوفون في القاهرة، يسقون عربها وعجمها، جاءه شاب حليق اللحية والحاجبين، يطلبه أن يدخل الحانوت في السوق، بعيدا عن الصادر والوارد، وقد باتت تموج المدينة بالناس، أو الخروج إلى بساتين الروضة، والقنطرة، لأمر مهم، قبل مغيب الشمس، ويأنس في الطرب، واللهو المباح، فأبى أن يرافق الفتى، حتى يعرف ما وراءه، فهمس بأذنه أن سيدته الخاتون تطلبه، بل وتأمره أن يحضر بلا تأخير أو اعتذار.

تجول في الحوانيت المزينة بالحلل والفوانيس، المتباهية بحسن العمارة، ومن ثم تبع الفتى، في الزحام، تخنقه رائحة العرق المعتق، الممزوجة بعطور السوق وتوابله، ورائحة تراب البغال والجمال، فاختطلت على أنفه الروائح، وأصابه الزكام، ونوبة من العطاس، فكان يقف بين حين وآخر، فيعود الشاب إليه ويسحبه من ردائه، ويقبل يديه أن يقيه شر غضب سيدته.

بطيبة أهل مصر، وتقبلهم للغرباء، وبعربية مكسرة، وعامية غير كاملة، هللت السيدة ورحبت به، وعلى يمينها ويسارها جواريها، والسجاد الملون، وأثياب الحرير الناعم والمبهر للعين، وقف الضيف والفتى، فركع الشاب يقدم الولاء والطاعة لمولاته، وراح يجر قميص ابن بطوطة، ويطلب منه أن يقلده في الحركة، ولكنه بقي واقفا، وكله أنفة.

وجدها تقلب الحاء إلى هاء، في اسمه، والعين في اسم أبيه جعلتها ألفا، فشاح عنها، وتباعد، وزرع بصره في الأرض، وطأطأ رأسه بإيماءة خفيفة، تقديرا واحتراما.

وعرفت المضيفة نفسها بأنها «عصمة الدين» القبقجية، وهي من أمراء المماليك، وتريد التبرك بهذا الشيخ الجليل، وإعانته على ما جاء به، والاستعانة به على خدمة العلماء والشرفاء والصالحين، والمريدين في المدارس، والزوايا، والترب، والقرافة العظيمة، وخصوصا في الترب المقدسة للإمام الحسين، والسيدة نفيسة، لتنال البركات، وتجتهد بالعبادات، وتتعلم على يديه أصول الدين، وتمده بالمال والرجال، لخدمة والناس وعنايتهم، وقد اتضح له غناها الذي يفيض على من حولها، حتى أنه وجد في قصرها الماء يصب بالأنانبيب، وطلب قنينة ليتوضأ قبل أن تطوف صلاة المغرب، وهو محافظ على الصلوات في وقتها على مذهبه المالكي، فدله الخدم على ما رأى من الإتقان البديع للبناء، والإحكام للغرف، وكيف يتم توصيل ماء النيل، إلى الداخل، ورفض الوضوء من خلال الصنبور، فضحكت منه، وعرفت أنه كباقي المذاهب، لم يجيزوا بعد استعمالها للوضوء، إلا بإناء يصب منه الماء لاحتساب عدد مرات الغسل، وذكرت له أن اسمها في مصر «حنفية» لأن الأحناف يجيزون الوضوء منها.

وبعد أن توضأ وصلى، رفض الجلوس على كراسي الحرير، فجلبوا له كرسيا من كراسي الخدم، وطافوا عليه بصنوف المآكل، وما لذ وطاب من الحلوى، وعندما هبط الظلام، وحل الدجى، استوحش المكان، ورجف قلبه من الداخل، وأحس بخدر وكسل، وحل عليه التعب، فجهزوا له مكانا للمبيت، وقد اعتاد على النوم على الحصير، ورفض أن ينام على ديباج من حرير، أو سرير، وافترش الأرض، وأبلغ الخدم سيدتهم، فضحكت حتى بان سن الذهب الذي تزين فمها به، وفركت أنفها، وسال كحلها الغامق، على خدها الأبيض، مع دموع الضحك، على حالة ضيفها الزاهد الملتزم، والمعذب لنفسه، والمتحلي بالأدب غير المعتاد في مصر التي تغيب عن رجالها مظاهر الالتزام، وفي الوقت نفسه، هم من أكثر الناس حرصا وخدمة للدين وأهله، وأكثر العاملين في بناء المساجد، والمنفقين في سبيل اللّه.

قام مع صوت العصافير في البساتين، ووقف ينظر إلى انسياب بحر النيل، واتساعه، فاعتمد على نفسه في صب الماء بإناء صغير، وتوضأ وصلى، وجلس ينتظر حتى يأتيه الفرج، من حيث لا يعلم، ولم يناقش أحداً في سبب مجيئه، ودعوته، ويبدو أنه قد تم إبلاغه أو فهم أن هذا أمر مرتب له، وأن كرامة السيدة الأميرة، لا ترد، وخيرها سابق ولاحق، وعطاؤها شاهق،

وسيحظى بنفحة من كرمها، وأن هناك رسائل، وترتيبات تخص الحج ومكة هذا العام، وسيتولاها هذا المغربي، مع العرب من الخدم وأهل البر والجمال في صحراء الصعيد، وسينقلون ذهبا من زكاة المماليك، وخراج قرى السلطان والمماليك، الذين يطبقون فرائض اللّه بحذافيرها.

واستغرب خروج الفتى معه أعرابي يرتدي عباءة صوف في حر الضحى، وله جدائل كظفائر النساء، ولحية غير مشذبة، حتى وصلوا إلى طرف النيل، فقاس الرجل بذراعه، وراح يعد وراءه بسره، حتى بلغ ستة عشر ذراعا، فأومأ بيده تعبيرا عن الغبطة، وتأبط طرف عباءته، وهرول باتجاههم، وذكر لهم أنه لو زاد الماء عن ثمانية عشر ذراعا سيحل الفيض بالقرى والنجوع، والخراب للمحاصيل، ولو نقص فإن الخراج سينقص، ولكنه كان جيدا، وفي الوسط بلا نقصان أو زيادة، واستبشروا خيرا بابن بطوطة، وصلوا ركعتين شكرا للّه الذي حماهم من الطوفان.

وبعدها جلسوا وحكى لهم الأعرابي أنه يمتهن تأجير الجمال في مصر، وقد ورث هذه المهنة أبا عن جد، وأن أهله أكثر الناس خبرة في النيل، من أهل المعمورة وأم البلاد، وأنه يعرف ويحفظ صحراء الطور، وبلاد غزة والخليل، وكان أبوه خبيرا بأرض جنوب مصر، وأن أمه سمراء من أهل أسوان، ولأخواله لغة يتحدث بها، كما يتحدث القبطية، وحكى لهم عن قرى القبط والمسلمين عند تفرعات النيل بعد خروجه من مصر، وكان يمتاز بأنه حكاء مشاء طاف البلاد، وطوى أخبارها، ولو افترى عليها لما عرف أحد عنه شيئا.

وتعلق الأعرابي بابن بطوطة، وراح يتمسح ويتبرك به، ملمحاً إلى أن فيه نزعة صوفية، لكن لم يدخل في حياته زاوية، لأنه شب على حب الصنعة، والسفر والعيش بين الجمال.، ولو تلقفه أحد عليم، لكانت معلوماته وخبراته تصب في مصلحة البشر، والدولة، وبعد تناول الغداء، استأذنه أن يصحبه إلى الأهرامات بالجانب الغربي من النيل، وراح يقص عليه من الأساطير الكثيرة، شيء يصدق، وشيء لا يمكن تصديقه من عاقل أو حتى مجنون.

ولم ينكر ابن بطوطة فضوله في التعرف على تاريخ هذه الصروح، والعلوم التي يقول أهل مصر إن النبي أدريس من بناها، ومن يقول إن الجن بنوها، وإن المأمون سعى لهدمها، ليكشتف ما فيها، وتمنى لو أنه نجح في ثلم حجارتها وفتح بواباتها، ومعرفة أسرارها، وحكى الأعرابي الأمي أن المأمون له فضائل كثيرة، وتجاوزات عظيمة، ومن أشهرها سجن الإمام أحمد بن حنبل.

بقي ابن بطوطة في ضيافة الأمراء، ولقى ضالته في الأعرابي الذي يعرف المداخل والمخارج، ومفاتيح الوصول إلى القصور من أقربائه الأعراب، والقبط، والعجم المتنفذين، فأوصله بأتباع بكتمور وقلاوون، وطشط الأخضر، صاحب الصدقات الكثيرة، والعطف على الحرافيش الأيتام، أبناء الشوارع والترب التائهين، بلا مأوى ولا أهالي.

طمع الأعرابي، وسيلان لعابه على كل ما يلمع، جعله يركض ويجتهد في فتح كل الأبواب المغلقة، فتمكن من الوصول للملك الناصر، وإيصال ابن بطوطة للأعيان، وقادة العسكر من الترك.

في مجلس الملك أحس بالرفعة، والمنزلة العالية، والتقدير العظيم، ولم يغب عن مجلس الأميرة عصبة، فلها الفضل، وطوال شهرين عرف أشياء، لم تكن في الحسبان، وتقاطعت مع عمله، ومهمته، وسعى أن يوفق بين عمله، وشغفه، وخدمته التي نذر نفسه لها، ولو أفنى شبابه، وعزم الابتعاد عن الملذات، ولو كانت بالحلال، وقاوم رغباته وفحولته، ولم يستسلم لعواطفه، وما يجول في نفس الشاب القوي في هذا العمر، ولم يغره حسن الجواري ولا الأميرات، وسمع التعليمات التي كانت تصله، ألا يطيل المكوث في أم البلاد، لأن سحرها لا يقاوم، ورغدها وفضائلها تتعدى القدرة على مقاومتها، فلا زواج، ولا اتخاذ عمل أو بناء بيت في مصر، ومغادرتها إلى الشام، لكي يلتقي بالتاجر بن جابر.

أحس بالرسالة التي وصلته كأنها غمامة سوداء، لا تنقشع من سماء باله، وفكر كيف سيواجه الصديق القديم، والشخص الذي طلّق والده امرأته، وتزوجها سرا من دون أن يعلم أحد، وتركها على ذمته، وزوجها غائب، ومنقطع عنها لسنوات، ولو سأله عنها ماذا عساه أن يقول؟ وهل يكشف له السر؟ أم تراه يعرف، وغير آبه بنصيبها وحظها من بعده؟.

عمق العلاقة مع «عصمة الدين» جعله محتارا في أمره، فهي تعرف ابنة جبرين، وتعرف أنه سيلتقي زوجها السابق في دمشق، وطرد الوسواس من رأسه، وشجب صوته قرين، الذي يقول له إنها تعرف كل شيء، واكتفى بالتظاهر بأنه مسكين، متصوف، ويطمح في عطايا السلاطين، ويمتهن القضاء، وقد وجد في تنوع مذاهب المسلمين الأربعة في مصر ضالته.

في ليلة مقمرة، وبينما كان يتأهب للذهاب إلى مجلس الملك الذي يستقبل فيه ضيوفه ماعدا يومي الاثنين والخميس، جلست الأميرة تحاوره وتحاول أن تقدم له ما يريد وتقنعه بالبقاء في ديارهم.

- **لو بنينا لك بيتا، وصرفنا لك معاشا هل تجلس عندنا يا محمد؟**
- **كرمكم كماء النيل الذي نحن وأنتم ضيوف وغرباء عليه، وما هو بغريب عليكم حسن المعشر، والوقوف مع الفقراء مثلي، ولكني مرتبط.**
- **أعرف ارتباطاتك، ولكن لماذا لا تتخذ لك زوجة وبيتا، وتعود إلى مصر، مثلما فعلت في طنجة وبقية الديار على طريق الحج الذي مررت به.**

بقي فاغرا فاه مدة ليست بالطويلة ولا القصيرة، وتلعثم، وهو الداهية، المتمكن، ولكن معرفة التفاصيل التي لم يحكها لأحد، ولم يعرف عنها أي إنسان، وقوة صبره وصمته، ولم يكن يعرف أن البصاصين كانوا يراقبونه، وأنه كان مرصودا، وأن الدراويش المساكين كانوا يتبعونه، وكل شيء عليه مسجل ومحفوظ عند أشخاص لا يعرفهم، ولم يترك أمره عبثا، أو يتم إدخاله في الحلقة الخاصة للعمل السري بشكل غير مدروس، وبلا رقابة، ولا اهتمام.

عادت إلى محاورته، والتفاوض معه، وإقناعه، ومحاولة الإيقاع به، ليتعثر في الكلام، وتختبره.

- **لا أطلب منك أن تجيبني، ولكن سنجد لك زوجة عربية، فأنت لم تتزوج إلا عربيات، وتترك لك ولدا في بلدنا، فتجبر على العودة، وتحن إليهم.**
- **نسير وفق ماكتب اللّه لنا، ولو انعقد النصيب، لا حل له.**

خرج من عندها والأعرابي ينتظره عند باب القصر المتربع في قلب البستان شرقي النيل، وهمّا مسرعين، لكي يلحقا بالجلسة، قبل وصول الملك، فلو وصل تقفل الأبواب، ويمنع الدخول والخروج، وعند وصوله تفاجأ بأعداد الناس المتزاحمين، في صفوف طويلة، وبعضهم جالس في الفناء الواسع، وما إن حضر الناصر، حتى صمتت الأفواه، وتربطت الألسنة، ولم يجرؤ أحد على الحديث إلا الشعراء العرب، فكل شاعر يقف أمام الجمع، ينثر نظمه، ويهز الحاضرون رؤوسهم، وهم لا يفهمون أكثر الكلام، ويأتي حاجب يرمي صرة من الدنانير عليه ويجلسه في مكان على يمين أو يسار السلطان،

فيندهش الجالسون من جرأتهم وشجاعتهم، ويشرح الأعرابي لابن بطوطة عاداتهم، وتقربهم من المماليك، بحثا عن المال والجاه، ويجد ابن بطوطة أفصح وأقوى منه على فهم الوضع، والتعليق على الشاعر منهم، وتفنيده عن الناظمين وهم كثر، ولاحظ كيف يمتدح أبناء البادية المماليك والعجم، ويحفظون تاريخهم، ويعدون مناقبهم من بيبرس وقطز وأم خليل «شجرة الدر» وغيرهم، وكيف يحسبون الأيوبيين عليهم، ويستشهدون بصنائع أهل المنصورة ضد الكفار، وحرق جنودهم ذوي الجلود الحمر بالماء والزيت، وأسر ملكهم قلب الأسد.

لم يعد ابن بطوطة إلى قصر الأميرة، بل بحث عن الدراويش، وأحس بأنه يحتاج بعض الكرامات، ليستدل على دربه، ويكشفون له الأسرار الكامنة، فبحث عن مقبرة يجد فيها من يأنس بصحبته، فوجد الناس مجتمعين في منتصف الليل، وإذا برجل طويل القامة، عريض المنكبين، ولحية سوداء عظيمة، وشعر أبيض، وبلا حاجبين، فرآه يبكي، يتوسط الناس، وناده باسمه، ولما اقترب منه، تذكر أن هذا الرجل هو نفسه من طلب منه السفر إلى مصر، وهو الدرويش ذاته الذي يلاحقه، لكن هذه المرة بلحية سوداء، وجسم مختلف، فعرف أنه صاحب كرامة، وسر عظيم، وسيبقى مرافقا له كالطير، فآثر السكوت، ولم ينتبه أحد كيف أنه يعرف اسمه، فحسبوه من أهل الموتى الذين يبكي الناس عليهم أو الرجال المستأجرين للسير في جنازات الأعيان، ويعرفه الشيوخ، وزوار المقابر ومرتادوها.

وأد الخوف الذي بداخله، ونحر التردد، وكل ما يثني عزائمه، وصمم على التركيز على أمله، واسترجع ذكريات الطفولة والصبا، وكيف كان يحلم أن يفر من عشه، إلى سماء الحرية، ومن المدينة إلى العالم، وحتى البحر لم يشبع طموحه، ولم يصبر على نفسه، بل قفز من سفينة الأهل والأصحاب، وترجل ليسير في هذا الطريق السري، ولا يزال في البداية، ولم يواجه إلا صعوبات طفيفة، وكل من يصادفه يفتح له الطرقات، والأبواب.

انكب بعد الجولان في صعيد مصر ومدنها، على الاجتماعات السرية مع رجال الملك، والأمراء، وبعض الأعراب من القبائل التي لها تواصل مع المغرب والمشرق، وساهم في بعض الأفكار، حتى أن الكثير من القادة كانوا يستغربون جلسة هذا الشاب معهم، وهو قليل الكلام، كثير التأمل، وتوزيع النظرات، ولكنه ينأى بنفسه عن المساءلة، وعن المكائد والدسائس، ويعرف أن الهمسة محسوبة عليه، فلم يذهب مع الشبان أو الرجال المشكوك في أمرهم، ممن يتناولون ما يسمى الحشيش، أو العشب المخدر، أو من محبي جلسات السهر والطرب، وهي مباحة ويحبها العامة، ولا مع أي ممن يحبون

شرب الخمر،ويعتمدون على النبيذ في الخروج من الواقع، للانبساط، والانشراح، أو من يلاحقون الفتيات والنساء في الأسواق، ويرتادون البيوت التي عليها رايات.

ألم بكل شيء، وجاءه الخبر والأمر بالمكوث في مصر، وعدم السفر من خلال الصعيد باتجاه بحر القلزم، والوصول إلى الديار المقدسة، بل الحج من طريق البر، والذهاب إلى الشام، ولكن عليه التريث قليلا، لتفحص الطريق، ولوجود تهديدات ضد المماليك من بعض العرب، وأعوان أنداد الدولة، والمتمردين وقطاع الطرق، كما أن هناك وفودا تصل من بلاد فارس وبلخ والأندلس، ولا أحد يعرف الأسباب، وفحوى الزيارات، وهو منشغل في الزوايا، يبحث عن ذاته، ويغوص في إيمانياته مع الشيوخ، ويتعبد بعمق، وبزهد كي يتعاظم شأنه.

وبينما هو غارق في هيامه، رأى نفسه يتجسد كطير صغير، على جناح طائر أخضر يكاد يغطي منظر السماء في العيون، يحمله شرقا، وينهل من النيل والفرات، ويتحدث لغات غير مفهومة، وصادف في طريقه والديه، يجلسان ينظران إليه، والشيخ ابن تيمية واقف وحال بينهما واد سحيق، ولم يستطع رؤية وجهه، وقوم يأجوج ومأجوج، واليهود يحركون أرجلهم، وهم قصار القامة، كعقل الأصابع، ويقفزون وهم واقفين، مربوطين بحبال من نور، ونيران يتأجج لهيبها، ويسمع أصواتا تقول جاءكم العلماء، والحكام، ولو ألهتم الدنيا واللذات، فهم أهل الشهادتين، والحق، ويغفر اللّه ذنوبهم ما داموا يعلون رايته، ويبنون المساجد، ويكفون المظالم عن دروب العباد والبلاد.

ورأى بعينه الشيخ عبد القادر الجيلاني، وابن حزم وابن عربي، ورجل ينادونه مولانا، ولم يعرف من يكون، لكنه يسكن في ديار الترك، وهو رومي الأصل والفصل، ولسانه عربي فصيح.

ولم يتوقف هذيانه، حتى أحس بيدين تطوقانه، وصاحبهما «عطيل» يصرخ فيه، أنت وريثي وأنا حي، أنت مجدي، وبرهاني، أنت امتدادي من طنجة إلى مصر، فالشام وبغداد والحجاز، وأصفهان وبلخ وسمرقند، والقسطنطينية وغزنة.

توطدت علاقة ابن بطوطة مع «عصمة الدين» ليعرف أن أهلها من القبجاق قد أكرهوا على بيعها لدفع الضرائب، ومعها أربعمائة مملوك ومئتا جارية، وقد رأت بعينها كيف هلك كثير ممن كانوا معها من أطفال قريتها في البحر، الذين سيقوا إلى مصر وبلاد الشام، عن طريق ميناء سيواس، ومن ثم نقلوا

إلى سوق تبريز ثم بيثينا وبورصة، كهدية من توكتا خان إلى الملك، الذي دمر ميناء كافا، وهجر التجار الجنويين والإيطاليين، واستولى على تجارتهم وعبيدهم، وأراد أن يكسب ود الملك الجديد، وأهدى له في عرسه على الأميرة تولنباي، ولم يكتف الناصر بهذا العدد، بل اشترى من تاجر جنوي وهو سمسار لدى الحكام يدعى» سيغورانو ساليفو» بربع مليون درهم أربعمائة وأربعون مملوكا، جاؤوا يرافقون الأميرة ابنة أخ أوزبك خان، فكانت من ضمن جواريها، حتى تم تزويجها من رفيق لها بالرحلة، الشاب الوسيم «قوصون» الذي كان شكله أبيضا وحراً، ولم يكن مسوغا أن يكون عبدا ومملوكا، فباع نفسه ولم يكن من عبيد القصر، وتم تجنيده في الجيش، وسرعان ما أصبح له نفوذ بعدما وجد الكثيرين من بني جنسه قواداً وأمراء، وخلال ثمان سنوات عاد إلى القصر قائدا وأميراً، ومن جلساء الملك لا عبدا من عبيده.

كانت تحكي لابن بطوطة بصوت مخنوق، رغم أن صوتها في الغناء شجي، ومطبوع ليس به ما يثير النفور والخروج، لكنها لم تكن تستطع أن تغني القصائد، ولم يكن بعض الأمراء يحبون العربية، فتغني بلغاتهم المتعددة، وتثير الأشجان لكبار القادة ممن تولوا المناصب، وهم كانوا عبيدا تم شراؤهم من أسواق النخاسة، من شركس وأرمن وفرسان أفغان، وزنج وأحباش، وأكثرهم من الترك الأقوياء ذوي البأس الشديد والقوام القوي في الحروب، ومنها عرف كيف ربح بيبرس الحرب ضد المغول، ولم يكن يعرف أن «بيبرس» نفسه قد هرب من بطش المغول الكفار، ولكن تم الإيقاع به وبأهله، وبيع كمملوك لضابط من جيش الصالح أيوب في حماة، ليصبح بعد ذلك مملوكا مصرياً، وفي جيشها، وتدرج حتى أصبح القائد، والسلطان، ويحارب المغول أنفسهم، من أحفاد الجنكيز خانية، ويغلبهم برعاياهم من أبناء المغول وغيرهم من الأطفال والعبيد الذين كان الجنويون يخطفونهم، ومن يبيعهم تجار الحروب والنخاسين، وتحالف مع ملك القسطنطينية وأهداه أسرى من المغول الكفار مع أحصنتهم الغريبة، العريضة القوية ومعها حيوانات الملوك، كما تحالف مع المغولي المسلم الملك بركة خان، الذي كانت مآذن مساجد القاهرة تدعو له، وتمجده مع ذكر الخليفة العباسي.

- **من أين لك كل هذه المعلومات؟**
- **لا تنس أنني كنت في القصر، وزوجة أمير، وأختلط بالبكوات من الأمراء المماليك، ولي حظوة عند الأميرة.**
- **أكان بيبرس عبداً، وضحية للمغول؟**
- **لو كانوا يعلمون.**

وقد صدقت فلم يكونوا يدركون، ولا حتى يتخيلون أن هذا القائد ممن نكثوا به، وأوقدوا في قلبه ثأراً، حتى استطاع أن يجمع من أفعالهم حطباً يوقد فيه ناراً يحرقهم بها، فقد تحالف، وحاك الاتفاقيات، وجلب الجنود والعبيد من الشمال والشرق والغرب، وحتى الجنوب، وجنّد قبائل العرب، تحت راية الإسلام، ونجح في دحرهم، كما نجح المماليك في بلاد الشام في السيطرة على البلاد الواسعة، وذات الخير الكثير، واستمروا على نهجه في شراء العبيد، وأصبحت قلقيليا وموانئها بوابة وصول تجار العبيد إلى بلاد المماليك، ومن ثم نقلهم إلى مصر، ومع إلغاء الضرائب على هذه التجارة، زاد الازدهار، وأقام الكثيرون في هذه المناطق ووطدوا العلاقات مع تجار وعملاء لهم، حتى تشكلت الشبكات التابعة لبعضها البعض في تبريز وبورصة، وبيثينا، وجنوة، والإسكندرية، وكافا، وسيواس، وسوادق، لتوريد العبيد المطلوبين لبناء الدولة وحمايتها، والاشتغال فيها.

دوافع كثيرة جعلت من الشاب المغربي فضوليا متتبعاً لكل خبر، ومعلومة، لتغذية الشبكة بالمعلومات، وهذه المرأة تقدم له المساعدات بشكل خفي غير ملحوظ، وهو في مصر لهذه المهمة، لكي يرتبط، ويتعامل مع تجار الرقيق، ويعرف أنهم قوة لا يستهان بها، وهم المسيطرون على كثير من الأرجاء والموانىء والطرق، والمماليك ليسوا على قلب رجل واحد، ولكنهم من شعوب كثيرة، ومنصاعون لخدمة الدولة والدين، ومنهم قادتها، الذين يسطيرون على الكتائب والجيوش، وكل قائد لديه من بلاده وشعبه قادة وأمراء، فيتحكمون وتصعب زلزلتهم أو الدخول بينهم، فعندما حاول الصالح أيوب إخضاع كل الأمراء له، كادوا له واغتالوا ابنه ووريث عرشه، ونصبوا من يريدون، ووجد أن مماليك البحرية من بين الأقوى نفوذا، ومتصلون مع أمراء من ذوي جلدتهم لديهم ألوية كاملة كالعزيزية وجيش الناصرية التابع لأمير حلب.

لم تبح أو تُفش عصمة الدين كل أسرارها، لكنه عرف أنها أسلمت قبل زواجها، وعرف ممن حولها أنها لم تنجب، وقد تركت حياة الأنس والطرب،إلا في الضرورات، وهجرت الغناء، بعدما كانت جيدة الصنعة والضرب، وحسنة الطباع في الغناء، واهتمت بأمور أخرى، ومنها مساعدة الفقراء والمحتاجين، وتوفير المؤن، والأموال للزوايا والمدارس، وشغلت نفسها في الإتصال بتجار العبيد في الإسكندرية، وبقية المدن، ولم تبرح مكانها، ولم تخرج من القاهرة منذ أن دخلتها قبل سنوات، بل عن طريق الحجاب، والسفارات التي تصل إلى العاصمة.

- **ألا يناديك أحد باسمك القديم؟**

- **لم أقل لأحد عن اسمي، وكل أبناء قريتي الذين دفعهم أهلهم في سنوات الجوع، وقلة المحاصيل، بدلا من الضرائب، قد ماتوا في البحر، إلا قريبة لي وبعض الرجال من الأمراء، وقد أطلقوا علي هذا الاسم منذ وصولنا إلى المدينة، وفحصونا من البهاق، ومن الصفار، وسوء الرائحة، وقد فحصوا فمي وأسناني كلها، وجسدي كله، ووجدوني بكراً، فأدركوا عفتي، ومعي كثيرات من سني، كان اللعب والإيقاع بالرجال، أمرا معتادا لهن، وقد أخذن للعمل عند أرجل الأمراء، والجند.**
- **أين الأمير قوصون؟**
- **إنه منشغل في أمور الجيوش، والرباط، وفي قصره ولديه الكثير من المحظيات، ويحب الأرمنيات والشركسيات، لشدة البياض والاحمرار، ويعرف لغاتهن، فيتغنجن له بما يحب، ولا يطيق الكلام بالعربية إلا في الصلاة وقراءة القرآن في رمضان، حتى أن خطيب مسجد القصر، يقرأ خطبة الجمعة بلغتنا، والعبيد المجلوبون من تلك الديار، يجندهم في سراياه، ويوزعهم على الأمصار، وهم مصدر ثقة الملك، ومعه قادة أوزبك وغزنيين كثر.**
- **ألا تغارين عليه؟**
- **ماذا تفيد الغيرة، فهذه طبائع الأمراء والرجال، فلا أقوى على منعه، وهذا حال كل من حولك، وسيكون لك يوما ما، مثلهم جاه، وجوارٍ، فلا تستغرب، كل معشر الرجال لا تكفيهم امرأة واحدة ولو أحببتوها، فبالتأكيد قد سمعت عن حبه لي، ومباركته لنفوذي، فقد تحولت العلاقة إلى شراكة، وسمو في الهدف، بأن نخدم ديننا الذي دخلناه سويا، عن محض إرادة، لا إجبار.**

انتبهت لنفسها، وهي تسترسل بالكلام.

- **ألم تلحظ أني أتكلم كثيرا، وعربيتي مكسرة وهذه**

مشقة كبيرة علي، وأنت فعلاً قليل الكلام، ولكنك كثير الصمت والتأمل، من اختارك أجاد وأحسن.

- **أنت مطلعة، ولديك الكثير، أما أنا فقد تربيت على ذلك، وحديث التجربة، فليس عندي ما عندك، من آلام وأخبار، وقصص، وأحداث.**

ألغى الحواجز والفوارق بينهما، ولم يعد يناديها بسيادة الأميرة، ومولاته، ولم تكترث فقد جعلتها نوبة الحزن، والحنين إلى ديارها وأهلها وماضيها أكثر قرباً للتواضع والبساطة، وكانت هذه المرة الأولى التي يتصادق فيها مع غير الناطقين بالعربية أو الأمازيغية، حتى وإن تعامل عن بعد أو قرب مع القشتاليين، أو تجار جنوة والإفرنجة في ميناء سبتة.

ارتاحت الأميرة لابن بطوطة، والتقت المهام والأفكار، واستطاع بحنكته الوصول إلى المعلومات وحفظها بقلبه عن المماليك البحرية والعزية، وأتباع السلطان أيبك، واستخدم الصوفية المنتشرة بقوة، والتي ينضم تحت طرائقها الكثير من القادة المهمين، ووجد في نسج العلاقات مع التجار والوجهاء كنزا في صحراء المهمة التي لم تنبت زهورها، ووجد في العديد من المكاتبات الشيء اليسير في فهم التوجهات، والأحكام، والتعمق في أمور الدول.

عاود الخروج سراً إلى الميدان أسفل القلعة، وتنقل بين قصر يلبغا، وقصر قوصون، ليمر من خلال سوق الخيل ومصاطبه، إلى سوق المرحلين، ليعد العدة لرحيله، ويجهز راحلته بالأقتاب، والمحمل، ومن بعد انتهاء هذه المهمة السهلة، يسير إلى القلعة ليكحل عينيه بالحب العذري الطاهر، وهو يراقب الجارية التي مال قلبه نحوها، ويمرر بصره على كل قوامها وبياضها الذي يكاد يكون قمراً ينعكس عليه ضوء الشمس، ويحرق العيون التي ترقبه.

بقي مندهشا من تنظيم المماليك وسيرهم في خطوط منظم أثناء التدريبات في الميدان، استعدادا لعتقهم، وتوزيعهم على الطبلخاناه، وكل منهم لديه رنك متخذ يميزه جنود الأمير عن غيرهم بلباسهم الأصفر والشرابيش والكلوتة والقمجون، مع البروكار الحريري الذي يرتديه الجنود في الاستعراض أمام السلطان.

ولم يستكمل الوقوف، فهو أحد الضيوف المدعوين لمرافقة السلطان مع البكواتية، والأغوات، واليلبغاوية، وكبار الأمراء طقصبا، ومغلطاي الجمالي وزير مصر، ومشدو الدواوين، وكتاب السر السامريين، وسيكون في مصف

الدوادار حامل ختم السلطان والأتابكية، لكي ينزل الناصر كرمه على المماليك المعتوقين، ويمنحهم ثياب التشريف من الخلعات وفراء السمون والوشق، والأحزمة السلطانية، ليدخلوا سلك العسكر والأتابك، والحرس.

ومع مروره اليومي بين القصور، وجد جميلة الجميلات، وسيدة الحسن الفرنجي، تنتظره، فانهمر عرقه حتى فاحت رائحة إبطيه، وتقاطر الماء من جبهته وأنفه، فتبلل صدره وبانت أضلعه من خلف ثيابه الكتانية البيضاء الخفيفة، مع التصاقها بجسده من شدة التبلل، وتسابق هو ونبض قلبه، ليصل إليها، واستجمع قواه، ليستطيع الكلام، ورمي الخوف جانباً، وأمام أعين الحرس الأشداء، وهو المحمي بأمر من المماليك القبجاق الأقوياء، فطلب منها منحه وقتا للحديث، والسير معه ليس ببعيد عن القصور، هربا من أعين أولاد الناس المنتشرين بكل مكان، ممن يلاحقون النساء، وحتى الصبية، إلا من تم إخصاؤه فيصبح رقيبا على الجميع، وساهرا على حماية الأمن، وعينا مزروعة تراقبهم، وتبلغ عمن يخالفون التعاليم.

ولحظه العاثر، وجد أنها لا تفهم حديثه، ولا تتقن العربية، فأخرج من جيبه دراهم فضية، ليعطيها لصاحب حانوت في سوق القيصرية، يبيع الفقاع، ويدس قنينة خمر يبيع منها كؤوسا بالسر للقبط والسامريين، ويخاف من عقوبة البيع للمسلمين، فقد عرف من العُجمة في حديثه الذي جعله رواد السوق من الأعراب والمصريين، وأصحاب القوافل والرحّل، توقيتاً للضحك، والسخرية منه، بينما وجد ابن بطوطة فيه ضالته، وبسرعة بديهة، دس النقود في يديه، ووشوش له في أذنه، وتحمل لكنة لسانه الثقيلة، لكي يعرف ما تقول هذه الأرمنية، ومن حسن الحظ أن البياع يتقن لغتها التي لم تتغير، وهو من الترك، ويتقن لغات الشركس والأرمن، والقرميين، لاختلاطه منذ طفولته بمدارس وثكنات العبيد الأطفال من أقوام عدة، فيتقنون لغات بعضهم، فقد كان فضولياً جيدا، ويزرع نفسه في كل جماعة، ويعرض خدماته قبل أن يطلبها أو يحتاجه أحد، ولكن هذه الأعمال لم تمنحه حق العتق، رغم إسلامه، وتحوله من النصرانية النسطورية إلى الإسلام، ورفقاؤه الذين قدموا معه ومن جاؤوا بعده، انخرطوا في جيوش السلطان، وبقي هو عبداً مملوكاً، يبيع لصالح صاحبه، ومخصياً لكي لا يثير غيرة الأمير على نسائه ومحظياته.

ولم يعرف ابن بطوطة هذه الأشياء عنه، فقد اختلط نفخه من الحر، مع غضبه، حتى كان يتفطر أنفه، وهذا الوضيع يوزع نظراته، ويرطن بكلام مطول مع الجارية، ويحاول مداعبتها والمزاح معها، مما جعل الغيرة تتقد، فعصفت به صفعة،قلبت كيانه، وجعلته يقف عما كان يفعله، من مراودة للجارية، التي عرف أنها تبيع الهوى، وتوقع الأعيان وتسحرهم بأسلوبها،

وجمالها الساحر، واقترب ليقبلها على خدها بغتةً، ولكن يد عاشقها القوية، قطعت عليه الطريق، وعندما رآها تضحك، وبعين قوية، تكمل كلامها معه، ومع زبائنه الكثر من العرب، مستخدمين الإشارات، ومهللين ومصفقين لها، وقد اجتمعوا حولها في السوق الضيق، يرمون عليها كلام الغزل الفاضح، فتتمايل وهي لا تعرف معناه، وقد ظنوا أن من معها ليس بعربي، ولا يفهم لغتهم، فود لو أن الأرض تنشق فتبتلعه، أو تهب ريح فتطير به بعيدا، وقلبه يوشك أن يتوقف من شدة الوجع الذي حل به، والجرح الذي ينزف خذلانها له.

استمر أنينه ووجعه الذي تسبب بحمى لازمته ثلاثة أيام، لم يبرح فراشه، حتى أن الأميرة أرسلت من يطمئن عليه، ويحضر له من يقدم له يد المساعدة، فأخبرهم أنه محموم، ويهذي بامرأة شقراء، سحرته وخانته، فبحثوا عنها، وقدموا لعصمة الدين تقريرا، يفيد بأنها لعوب، تتجول بين القصور، والأسواق، وأحياء الأمراء، وتدعي أنها لا تتقن العربية، لكي تبيع نفسها بأعلى الأثمان، مقابل لحظات يتخلسها ضعيفو النفوس معها، وخافت الأميرة أن تكون قد سحرته، وطلبت أن يحضروا لها كبار الرقاة والمهرة في فك طلاسم السحور، وعندما تفحصوه، أخبروها بأنه عارض صدمة لا أكثر، فالسحر يجعل المسحور يعشق، لا يهذي بالوجع، والعتب، بل يتلبسه عشق لصفات ساحره ولا يرى سوءه.

ولتطمئن أكثر، فقد أرسلت مملوكا ماهرا في استخدام النشاب، ليضرب هذه الفتاة في رأسها، ويصرعها في مكانها انتقاما لما فعلته، ولتقطع دابر الفتنة الحرام والبغي، وهي تصفق كفاً بكف، على حال القاهرة التي كثرت فيها حفلات المماليك، وانتشرت فيها حالات البغي، وعشق الجواري والغلمان.

بعد مرور ثلاثة أيام، قدمت إلى الجناح المخصص لابن بطوطة، بعدما جلبه العبيد من الزاوية التي كان يرقد فيها، وجعلته ينام في أفخم مكان بالقصر، حيث الشرفة الخشبية الواسعة، والهواء العليل القادم من فوق النهر، والمكان الرحيب على جانبي النيل بين القيلوبية شمالا، والجيزة غرباً.

وجدته قد استعاد وعيه، وتلاشت الحمى، واختفت من جسده، فأمرت أستادار القصر، بجلب إفطار من الفول المسلوق وبيض البط، وأن يعدوا له إداماً من لحم الجاموس، وحماما محشوا بالرز والصنوبر، وحليب النوق، وحذرته من عقابها الشديد لو لم يأكل بكثرة، فامتثل لأمرها، وهي جالسة أمامه، وشرر الغضب يتطاير من عينيها الحمراوتان.

مع صلاة العصر، اجتمع الرعية مع أولاد الناس في الميدان أسفل القلعة، واصطفوا مرحبين بالسلطان في حفل عتق المماليك الذين تجاوز عددهم أربعة آلاف شاب، وتناقل أهل القاهرة وصعيد مصر، عن عددهم المهول، وكيف حوتهم القلعة، واستبشروا خيرا في تجنيد الدولة لكل هذه الأعداد من الصبية الذين تم شراؤهم من القرم وبلاد الترك والأرمن، ومن جنوة وتبريز، ليخدموا في جيش الإسلام.

واستلم ابن بطوطة مهمته الجديدة في نقل كل ما شاهده لنواب حلب ودمشق وحماة، ويعرف منهم أحوال الضرائب والخراج من الغيطان والكفور والمزارع، وأعطاه الأمير بكتمر، وحاكم قوص بعضا من أخبار الروك الناصرية في ربوع مصر، ودواويرها وكفورها وقراها، وحاجة الجيوش والأمراء للأموال، لحماية الحجاز، ومد خراسان بالأموال الكافية لحماية الحدود، وفتحوا له المجال للجلوس مع أمير العرب وضيف الشرف، وحليف السلطنة ضد الإلخانيين.

وقد وصلته رسائل الحمام بأن رفيقيه مسعود بن جابر، وأبو عبدالله قد عادا من حماة إلى دمشق، لأن الأمير في مصر، وسيجلب معه دعماً بمئات الآلاف من الدنانير، ومنحاً إضافية من الناصر..

بادر ابن بطوطة بإلقاء التحية، فرحب الأمير به، وبدأ الكلام بصدق وفرح عميقين:

- **أخيرا قد وجدت عربيا مثلي في أرض المماليك.**
- **إنه شرف لي يا أمير العرب أن ألتقيك، وقد ملأ صيتكم الأرض، ووصل صداه إلى المغرب.**
- **إنه لمبلغ الغاية والأرب، أن نفزع ونهرع لنصرة الأمة، ونحن نقدم النفيس ونضحي بعاداتنا وما نحب، لبلوغ مآرب دولتنا الفتية.**
- **كنا نود أن نلتقيكم في دياركم، لا في بلد غربة، ونأنس بصحبتكم.**
- **لا أنصحك، فنحن بدو رحل، ونعيش فترة تحول، بعد الاستقرار في الديار الجديدة، فبعد أن جئنا من نجد لنقاتل إلى جانب بيبرس، مكثنا في بوادي الشام فهي امتداد لنا، حتى حوران وتدمر وسهول الفرات.**

- كنت أريد الرحيل معكم إلى دمشق، وهذا ما أبلغني به الأمير قوصون.

اقترب من أذن ابن بطوطة، وهمس قائلا:

- هؤلاء الترك الأعاجم ليس لهم حسنة وفضيلة، إلا أنهم خلصونا من المغول، ويمطروننا بالأموال والمراتب، ولا يحبون أن يعلو شأن عربي على شأنهم، فقد اعترفوا بإمارتي حفاظا على حلفي ومؤازرتي، وسد باب اعتداءات العرب عليهم، ولدي الكثير معهم، فارحل لعملك، وبوركت ابنة عمنا التي اكتشفت قدراتك، وقدمتك لنا.

كان الأمير يقصد ابنة جبرين، وبابتسامة رمادية خفيفة، جعلت ابن بطوطة يتلعثم، ويؤثر السكوت، وإيقاف الكلام، وليتلقى تعليمات جديدة، بأنه سينقل في مهام إلى حلب، ودمشق، ويذهب للحجاز، ومن ثم إلى بغداد، ولم يكن يعرف عن أمر فارس وخراسان بعد شيئا.

ومكوث الأمير كان لمحاولته انتزاع عفو من الناصر، لابن تيمية، لكي يوطد أركان حكمه، في حلفه العربي، وهو يعرف أن ابن تيمية محل تقدير، ويجله قومه والقبائل التي تتبعه، وقد أوقعت به وشايا الصوفيين والمذاهب الأخرى، ولكن هذه الأمور بقيت بعيدة عن ابن بطوطة وخارج المهام المسندة إليه.

الأمير العربي، وهو صاحب العباءة المقصبة، والوحيد المسموح له بالدخول على الناصر محمد بن قلاوون، بدون أن يتجرد من سيفه، أو ينحني وهو يسير باتجاه الملك، ويقبل يده أو رجله، كما يفعل الجميع، ومن بينهم ابن بطوطة الذي اصطحبه الأمير المعجب به، ولا يناديه إلا بالمالكي العربي، ويبرز سنه الذهبي، وتنبسط ملامحه الخشنة، ولحيته الكثيفة، عندما يرى الشاب الفتي، والرحالة الإسلامي.

بمعية الملوك تصبح ملكاً، هكذا أحس ابن بطوطة، وهو يتخلى عن الإنحناء، ويجلس في الصدر، ويجد التقدير والتبجيل من كل الذين في القصر، وعلاوة على الاهتمام، فقد أشار السلطان بيده، وشاوره الأمير بجانبه، فقدم إليه رجل سمين، لدرجة أن بطنه تكاد تلحس الأرض، ووضع في حضن الرحالة خريطة، وقد وشى صوت الدنانير المتضاربة بفحواها، واندمج ابن بطوطة

يفكر في سبب إعطائه إياها، ولم يجرؤ أن يفتحها، أو يمد يده في مجلس السلطان المزدحم بالناس، والمماليك في كل ركن، فراح يفكر في «الناظر الخاص» الذي سمعهم ينادونه، ولم يعرف وظيفته، واستنتج أنه مقرب من الملك، ومن النعمة الظاهرة على جسده، أجزم في قرارة نفسه، أنه حارس النعم، ومطعم الجياع، ومسؤول الأعمال والمؤن لكل ما يخص السلطان وقصوره، وسمع السلطان بعربية سليمة على عكس ما توقع، يمازحه، بقوله:

- **أريد أن أعرف أيها الناظر، كيف تستطع أن تجامع زوجاتك، وخليلاتك، وبطنك يغطي على كل شيء، ويتدلى إلى ركبتيك.**

صمت الحاضرون بمن فيهم أمير العرب، والأمير قوصون، والأستادار، وبقية الأمراء، حتى سمعوا ضحكة الملك العالية، وانفجرت الضحكات غير المنتظمة مع بعضها، فاحمر وجه الناظر، ووقف يحرك يديه، ولكنه تدارك موقفه، وجلس على مؤخرته، واستلقى على ظهره، وقال:

- **مولاي، حضرتنا، ينام على ظهره، وهذا البطن يصبح كرة، ومسنداً.**
- **قاطعه الملك، وصرخ به ضاحكا:**
- **قم، فضحتنا، وفضحت نفسك، لم أطلب منك التمثيل، فلا تكمل.**

وبعامية وعُجمة فظة، يرطن العجوز السمين، فقد جعله الغضب يخرج عن طوره وتوازنه، فقام له الملك بنفسه، ويبدو أنه يقدره ويحبه، ولاحظ ابن بطوطة كيف أنه أعرج، ورجله ضعيفة، فازداد إعجابه بمن استطاع أن يبسط العدل في بلاد المسلمين، بعدما كادت تضيع بسبب قلاقل المماليك وتمردهم، ونهبهم لأموال العامة والدولة، وخصوصا ششنكير الذي صادر الناصر أمواله، وكل مصر تحكي كيف أخذ الملك أمواله وقد بلغت مليون درهم ذهبي، وأربعة قناطير من الأساور والفصوص والخواتم وباقي الحلي، وأغلق خانقاه التي زينها بغنائم المغول، وأعاد للناس حقوقهم، والدفة إلى مكانها الصحيح، وخفت المجاعة التي فتكت بالرعية.

وبقوته أوقف سيل تسلط قازان الذي يريد استعادة أمجاد القبيلة الذهبية، ويثأر لمجد أجداده المغول، الذي حطمه المماليك، وأعوانهم من العرب

والعجم المسلمين.

ازداد الضحك حتى أن الملك خرج من وقاره، وأدمعت عيناه من شدة الضحك، وتدحرجت عمائم أئمة المذاهب الأربعة الذين يجلسون على الأرائك الخلفية، فحضورهم يعني أنها جلسة رسمية، وقد يطلب منهم شيء، في خضم الحديث عن الشام الشافعية، والعرب الحنابلة، ومصر الحنفية، وإفريقية المالكية.

بعد وصلة الضحك، استشار الملك بعض الأئمة في الأحوال، ودار نقاش وجدل، حول سجن ابن تيمية، ولم يترك الملك مجالا للأمير لكي يتوسط مثلما فعل سابقا، وربما كانت لدى الملك مخاوف، من تقوية شوكة الأعراب على يد الشيخ الذي يجلونه، وارتفع صيته لعنان السماء، وانتشر في كل الأركان، ولم يسلم الإمام تقي الدين من حبك المؤامرات وتأثير الأمراء، والإسفهلار، والأغوات، الذين يريدون التمتع بالغناء والرقص، والإنحلال، ومصاحبة الخليلات، وانتشار الألحان المبكية والمثيرة للوجدان لدى الصوفيين منهم، ولم ينسوا له فتواه بحرمة التبرك بالقبور، وآخرها التي كانت سبب سجنه بأن يمين الطلاق الكاذب يوقعه، والواحد عن ثلاث، وقد خسر الكثير منهم نساءهم، واضطروا لتزويجهن لمماليكهم، وانذلوا وتمرغت وجوههم في الأتربة.

سال لعاب ابن بطوطة، وأراد أن يخرج ليرى ما في الصُرة، وهو الذي لم يجن في حياته أكثر من دينارين ذهبيين، وكل ظنه أن عطايا الملك لن تزيد عن بضعة دوكات بندقية، أو نقرات، أو دراهم فضية، ولكن عند القيام لكي يحظى بشرف تناول العشاء مع الملك الناصر، أدام اللّه عدله، وبركة يده، استطاع أن يرفع الخريطة، وكاد صفار الذهب أن يسكت قلبه، وينهي حياته، من هول الصدمة، ومن كرم الملك، فوجد أمير العرب، وهو يربت على كتفه، ويحشر فمه في أذنه الطويلة، ويهمس له:

- إنها عطايا الملوك، لا مثيل لها، فيعطي حتى لا يجعلك تأخذ من غيره، وتستكفي حد الغنى، وهذه الأموال، لكي تعدل بها حالك، وسيأمر لك بسفاتج مستمرة، وبورقا مخطوطا برقاع، تأخذه معك، في رحلتك التي ستدوم طويلا، وستخرج من دمشق ويستقبلك إبنيّ فياض وحيار ويحرسان حجكم وقوافل المسلمين في الذهاب والغدوة، ويؤمنان وصولك إلى سلطان العراق،

ومن ثم أتابك فارس، وأصفهان، وهلم جراَ.

- **هلم جرّأ؟ أخبرني ما هي مهمتي.**
- **ستصل لنائب دمشق، وستجد زوجة لك، تعقد عليها، وبيتاً وبستاناً، وكل ما تحتاجه، وستحج إلى البيت الحرام، وتأنس وتزوّد قلبك بعبق الإيمان، والسلوان، والطمأنينة من أحبائك المتصوفين، وتشبع من مجالستهم، وصحبتهم، سنين طويلة، غير منتهية، والله أعلم متى يُؤمر لك بالخلاص؟**
- **أخيراً ستكون لي زوجة وبيت، إن كرم الملك لا مثيل له.**

قالها ابن بطوطة بوشوشة لا يسمعها أحد حولهما، وانصرفها يستمتعان بالموائد العظيمة، من الخراف المطهوة بالكامل، والمزينة بالزبيب والجوز والصنوبر، والمحشية بالأرز، مع الغزلان التي يصطادها الملك بنفسه في رحلات صيده.

بعد العشاء، انصرف الملك إلى قسمه الخاص، ودعا قوصون الأمير وابن بطوطة إلى قصره، ليستكلما السمرة، ويرتاحا من جلسات الساسة، ويرميا عن كاهلهما الهم الكبير الذي يحملانه، لكن ابن بطوطة أودع ماله لدى الأمير، وأخرج ديناراً ذهبياً واحدا راح يفركه بقوة، وبحوزته دنانير أخرى من عطايا عصمة الدين، التي أصبح كرمها معه بخلاً مقارنة مع كرم السلطان، وقبل أن يرحل، استأذن أن يطرح بعض الأسئلة على الأميرين:

- **هل مسموح لي أن أغادر سريعا؟**

نادى قوصون على ترجمان قريب، لكي لا يتعثر لسانه بالكلمات الصعبة، فهو يفهم العربية جيدا، ولكن لتسهيل الأمور أمام سادة العرب، وترك المجال للأمير حتى يحضر من يفك له الكلام.

- **يا ولدي،هناك قافلة ستأخذك، ولتعتاد على اللحاق بالقوافل والراحلين، لكي لا تثير الشبهات.**

وصل ترجمان محلف، ومقرب من قوصون، فتحدث له بتركية لا يتقنها العرب، وأخبره الترجمان أن الأمير قوصون يبلغه بأن الناصر أذن له بالسفر، والدولة المملوكية لن تقصر مع من يخدم الدين الإسلامي، ولأنه محب

للكلام بكثرة، فقد جنح بحديثه يشرح لهم أنه قد أسلم بعد أن بلغ العشرين من عمره، وقد كان مسيحيا أباً عن جد، وبعد أن عتقه السلطان، وجعله يبيع نفسه لمن يريد، واستمر في المثابرة، والنشاط حتى وصل إلى مكان عال في الجيش الناصري، وتحالف مع مماليك البحرية الأقوياء.

ولم ينم ابن بطوطة تلك الليلة في الزاوية، بل في قصر الضيافة، ليكون قريبا من السويقة، ولكن الأميرين جلسا يتسامران، وقوصون يحتسي الخمر بكثرة، ولا يحسب لكلامه أي ميزان، فمرة يتحدث بجدية، ومرة أخرى يبكي ويتذكر أهله، وبلاده الخضراء وقريته على سفح جبل وعلى ضفة نهر، وإخوته الصغار، ويسقط دمعه في قدح الخمر، ويشربه بشراهة، وبلاهة.

- **خذ معي كأساً ولا تتركني وحدي.**
- **أنا ليس لي بالمدام، أيها الأمير.**
- **لماذا تحرمون الخمر؟**

واستمر يحكي بلسان ثقيل، بما معناه أنه أمر يساعد على السلوى، ونفرغ به ما لا نقوى على قوله في الصحو، ويسعف العقل على التعطل، والتوقف عن التفكير والراحة، لكي يعاود العمل، والخدمة بقوة أكثر، وهو يرى أن الخمرة تجعله يصبح أقوى، وأكثر نفعا للدولة والأمة، ثم قال بشكل صريح:

- **ديننا واحد، ولو اختلفت المذاهب، والحلال بيّن.**

لم يجبه الأمير قوصون، ولم يحترم حضوره، وتغافل عن كل شيء، وراح ينادي مملوكا له، وإمام مسجد القصر، ليطلب من الأخير أن يعقد له على خليلته الجديدة، فالسُكر جعله يخرج ما في قلبه من غيرة وشك، لميل امرأته لشاب وسيم، وقوي البنية، قد اعتاد حمل الحديد، والأحجار، ويأكل خروفا لوحده، ولا يعلم أن العبد المملوك قد تزوج بها وهو لا يعلم، ولذلك تتمنع عن فراشه منذ مدة، ولا يمكن أن يتزوجها مرة أخرى.

أفاق من سكرته، عندما صرخ المملوك في وجه أستاذه، بأنها زوجته، ولم يجعله يلمسها، وأنه لا يريد أن يزوجه بها، فجن جنونه، واحمرت عيناه وقد أصبحتا كجمرتين، من لهيب الغضب.

- **أتعي ما تقول، كيف تتزوج من دون أذني، وأنت مملوك، ولست حراً؟**
- **على سنة اللّه ورسوله.**

- **ومن أذن لك؟**
- **كتاب اللّه، والحب.**

تدخل أمير العرب، بسؤال مقيت:

- **ألا تخصون العبيد، في قصوركم، وتتركونهم مع الحريم، ويفكرون فيهن بشهوة؟**
- **من خصانا لكي نخصيهم، ونحن مثلهم، ومن نفس الديار، والمصير؟**
- **إذن، أعتقه، ولتبارك لهما، وقد طلبتك إن كان لي جاه، ومكانة عندك.**

لم يتردد بأن يعتق المملوك قوتنباي، ويجلس على الأرض متكئاً على أصيص في الشرفة، ويستجمع قواه، بعد الصحو وزوال السكرة، ثم يقول له:

- **لقد احترمت غيرتك، وعدم خوفك من الموت المحقق، أو السجن والعذاب.**
- **إن الإنسان ليموت دون عرضه وبلده.**
- **أي بلد أيها المسكين، كلنا تركنا مدننا، وبلادنا وراءنا.**
- **هذا بلدي، وبلاد المسلمين كلها أيضاً بلدي، فأنا جئت إلى هنا صغيراً، حتى بلغت الآن سن الشباب، وحفظت القرآن في صدري، وأكملت نصف ديني.**

كان هذا الشاب من جملة آلاف العبيد الذين تجندوا، وسكنوا لسنوات في ثكنات القصر، واعتنقوا الإسلام، واستمر المعلمون المكلفون من الأستدار والأمراء بتدريسهم أصول الدين، وتحفظيهم القرآن، حتى نسوا أهاليهم، ونجحت الدولة في غسيل ذكريات وأشواق قلوب الصغار منهم، بينما الكبار الذين وصلوا إلى مصر بأعمار كبيرة، فلا يزال الحنين يعتصرهم، ويصعب تغيير هوياتهم، والتي أساسها لغاتهم المتعددة، واختلاف مشاربهم، فتم توزيعهم على مناطق متعددة، وتعيين أستاذ لكل مجموعة من ذات العرق والبلاد، لكي لا تكون الدولة والزمن عليهم معاً، وينفجرون من الكبد واستقلاب الهموم، والأوجاع التي لا تبرأ، أو تندمل، وبين حين وآخر يجدون أن بعضهم لم يحتملوا الآلام، ويموتون كمدا، أو قاتلي أنفسهم، أو يلقون بأنفسهم في النيل، والمهالك، أو يعتدون على الأمراء من أبناء الجلدة

وينتقمون منهم، أو يحدثون الثورات، ويعتدون على الآخرين، ورجال الحسبة ورجال الدولة بالمرصاد لهم، فيقطعون رؤوسهم إن لم يموتوا قبل محاكمتهم، وهم المحكوم عليهم بالظلم والعذاب السرمدي، فأكثرهم تم انتزاعهم من بين أحضان أهاليهم عنوة، وسوقهم إلى قوافل الرقيق، ومنهم من سرقهم التجار والسماسرة، وخطفوا من بلاد تموج بها القلاقل، ويعيث بها الفقر، والضياع، فكيف هو الحال لمن فارق الأهل والأرض، وجاء ليخدم ويبيع نفسه، فإن أهينوا لم يحتملوا، ونجح الناصر بن قلاوون في أن يدر بعطفه عليهم، ويكسبهم ويجندهم، واستعمل الناس والعلماء، وسحر ماء النيل الذي يشربه يتيم بأرضه، فتسكن الفتيات منهم إلى مساكن وغرف الأمراء، ويتعايشن بفرح شبه حقيقي، وتدعي الكثيرات منهن الحب والوفاء، ومنهن من تتيم وتقنع نفسها بنصيبها، وكثيرات منهن لا يحببن أحضان العرب، ولا استعبادهم لهن، وعدم إتقانهم لفنون الحب، والتدليل، وإخراج واستفزاز الفطرة بدواخلهن.

طنجة 726هـ

عند الفجر، وقبل بزوغ الشفق، أحس عبدالله اللواتي بضيق حاد في التنفس لم يمر عليه من قبل، فزع من نومه، وبدت علامات الضيق في جفاف وجهه، وشفتيه السمراوتين، فنهض من مكانه يبحث عن شربة ماء، واستعاذ من الشيطان، وذكر الشهادتين، مع شهيق عميق من هواء الصبح الصافي، فعادت إليه روحه، اتكأ على يديه حتى وصل إلى أسطوان القصر الكبير الذي أهداه له السلطان، نظير خدماته للدولة التي قامت على يدي القضاة والعلماء والأجناد المخلصين.

حرثت الذكريات حقل خياله القاحل، والماضي المحدد بين العمل والبيت، لم يكن يملك شيئا إلا الإخلاص لمهنته التي ورثها أبا عن جد، وبرع فيها، بحماية دولة الإسلام، فالبربر تعاونوا مع العرب منذ الفتوحات الإسلامية، وأخلصوا في إسلامهم، وعائلته هجرت البراري والصحاري، وتغلغت في مسائل العلم، ومفاصل الدولة، وقدمت الكثير من التضحيات المدونة في التاريخ، ويحفظها الولاة والقادة والحكام، والعلماء.

كل هذه التضحيات مرت على باله، وهو يراجع نفسه، وماذا فعل بابنه غير العائد، وتساءل هل سيراه مجددا، وهل يسافر وراءه، ويلتقيه في حج هذا العام بمكة، وكل مسالك الحج والسفر مؤمنة من خلال الشبكة السرية.

وصلت المعلومات بسرعة غريبة عن النجاحات التي حققها الفتى، وما يحققه التابعون في كل الأصقاع، من كسر لشوكة الأعداء، والتركيز على إعادة زرع الثقة في البقاع وقلوب الرعايا، وتشجيع العلم، وتذكر أن مكانه مهم جدا، فهناك الحاجة لعلماء الأندلس، وتجارتها المفيدة مع الممالك المسيحية، حتى وإن كانت هناك مناوشات، كما أن جبايات الجزية والخراج من الضروري أن تصل لإسناد من يحتاج إلى سند وعون.

عاد إلى مكتبته التي هجرها منذ أشهر، فكل زاوية وكل مخطوطة يشم فيها رائحة ابنه محمد، فتح الباب، وخنقته رائحة الغبار على الأرائك، وعلى رفوف الكتب، وفوق السجاد، وانصرف يكتب بنفسه رسالة ولكن غير معروف لمن يريد توجيهها، وكيف سيوصلها، وهذا ما وجدته عليه زوجته التي أحست بفراغ بجانبها، وهي تحرك أرجلها المفتولة، فتحسست مكانه، ولم يلمس لحمها لحمه في السرير الحديدي الضيق، الذي تأبى أن تغيره، لكي تبقى ملتصقة به، وقريبة منه، وصريره كلما تقلبا يتداخل مع أنين الأشواق وتنهداتهما المتبادلة.

قالت وهي تتثاءب:

- **ما الذي تفعله في المكتبة، وماذا تكتب يا سيدي، وهل بك شيء فوجهك مخطوف اللون؟**
- **لا شيء، ربما يكون كابوساً أفزعني، لكني لا أتذكر منه شيئا، وقمت لأكتب رسالة مهمة، سأعيد لف الورق، وسأسافر هذا اليوم إلى فاس، وعند عودتي سأركب البحر إلى الأندلس، لأعد تقريرا وتحقيقا مهما.**
- **قم للصلاة، ولن أتركك تسافر لوحدك، فقد ذهب ولدي، ولن أترك زوجي يذهب من بين يدي.**
- **ماذا تقولين، ابنك عائد، فاته الحج، ووصلتنا رسالته بزواجه الميمون من فتاة ذات حسب ونسب من شرفاء ووجهاء العرب، وسيرزقنا اللّه حفيدا، دعي عنك الظنون، ولترافقيني إلى جارتنا القديمة ابنة جبرين، بعد شروق الشمس.**

لم يتأخرا كثيرا في الصلاة، ولا في تناول الإفطار، وخرجا يطلبان المرأة العربية الباقية في المغرب، لم تغادره شرقا منذ أن قدمت إليه قبل عقد

من الزمن، واستقبلتهما بعدما أيقظها الخدم، وهي تنام كالعادة متأخرة، ولا تصحو باكرا، بل إنها باتت في حالة عداء مع الشمس والنهار، استجمعت شتات شعرها المتناثر، ولفته تحت الحجاب، وغسلت وجهها بماء مخلوط بالليمون، والياسمين، وخرجت لهما، وهللت ورحبت بأحب الناس إليها في المغرب، والعالم، ومن وقفوا معها في شدتها، وفي وحدتها، واستمعت لما يريد الشيخ الجليل، فهو يطلب منها أن تسافر للحج معهم، وكل منهما يمارس اللف والدوران على الآخر، فهو لديه هدف غير معلن، وهي تدعي وتوهمه بأنها لا تعرف، وهي بالأصل مجندة، وعطيل والسلطان ووزيره، وحتى قادة مسيحيين، وقضاة أقباط في مصر في نفس هذا التحزب، ولا أحد يعرف عن الآخر، ومعهم مشايخ في الإسكندرية والمدينة، وبلاد الشام، وفارس وخراسان والهند والسودان.

لم تعطه إجابة شافية، وذكرت له أن لديها بعض الأعمال، وكانت قد وصلتها عن طريق العملاء رسائل خاصة من ابن بطوطة، وهو تصله معلومات وأخبار، وسيسافر إلى فاس، ليلتقي بالوزير، ويفهم من التوجهات ما عليهم فعله، ويأخذ الإذن بالسفر، فلا أحد يغادر إلا بختم سلطاني.

قال القاضي:

- **سنسافر سويا يا ابنة جبرين، ونحج بإذن اللّه، وسنلتقي بابننا محمد، وسأراسله لنتواعد لدى القضاة المالكيين في المدينة، وأنت تذهبين لرؤية ذويك ووطنك، ونعود في قافلة السلطان.**
- **ما حاجتي أن أسافر معكم، ولماذا للحج، فابنكم ذهب ليحج، وعرفت من أمه أنه تأخر، وتزوج في رحلته.**

لم تكن الأم تعلم، ولم يكن يأبه بأنه يفشى سره، وقد يكون قد رمى عليها يمين الطلاق، أو اتفقا على ذلك، واعتادت على أن تتزوج ممن ليسوا لأنفسهم، ولا يملكون قرار حياتهم، والمشبعين بالشغف، والمغامرات.

ولم يشأ أن تبقى منتظرة له، وقد علمت من خلال علاقاتها، أن مسعود سيصل في زيارة سرية إلى طنجة، ويلتقي القاضي، ولكنها ستحرص أن تلتقيه في جنح الظلام، أو تدبر طريقا لتصل إلى مخدعه، وتواجهه، وتشفي غليلها بشتمه، أو مواجهة حقيقته، وتمنت لو تستطيع فعل ذلك، وأن تعرف بأنها تزوجت بعده، وأنها لم تمت، وقامت من انكسارها، وتشافت جروحها، والزمن قام بواجبه معها.

السر الذي لم يعرفه أحد أن ابن بطوطة كان له ابن منها، وقد أخفيا الأمر حتى عن أهله القريبين منها مكانا، وقد دبر لها ابن بطوطة قبل سفره سفرا إلى الأندلس، وجلست هناك حتى اكتمل حملها، فلا يعرفها أحد، ولا يلحظ انتفاخ بطنها، وكانت بارعة في إخفاء الحمل، وولدت له ابنه البكر، قبل أن تدخل في سن اليأس، ولم يكونا يعرفان أن لا شيء يخفى عن العيون الخفية، وأن والده كان يعرف عن طريق أعوانه، ولكنه بطباعه التي ورثها لابنه، لا يستطيع أحد فك ملامحه، ولا يلحظ عليه شيئا، ويستطيع التحكم بمشاعره، وإخفاء حزنه، او غضبه، خلف وجهه الحاد، والجاد.

هكذا كان ابن بطوطة في كل مكان يترك شيئا منه، لتذكره الأرض، وليكمل نسله طريقه السري، والارتحالات الأبدية، وقد ترك رحيله فجوة لا يمكن سدها، وأحدث خللا وراءه، وكل طنجة تئن، وتحس بالفراغ، وكل ما حولها، من الجبال والشواطىء والموانىء والأشجار والأنهار صامتة، والبحرين يمارسان الحزن والحداد من دون أن يلتفت لهما أحد.

ومتى سيعرف بما يصنع العالم، ومتى سيعرف أنه خيط في نسيج كبير، لسجادة الحضارة والأمة، ولن يستيطع معرفة ذلك إلا بعد زمن طويل، ولو استعجل، وحاول جاهدا، فلن يجد إلا التعب، وعليه مكابدة الصبر طويلا.

بعد ما خرج القاضي والزوجة فاطمة من عند الجارة العربية، رمت نفسها على الأرض، لتكمل نومها، ونجحت في إخفاء كل ما يدل أن هناك طفل لديها، ووقفت على عدم وصول صوت بكائه، أو حركته لمسامع جديه، وأطلقت العنان لأحلامها، وتصفية حساباتها مع زوجيها السابقين، وحبيباها اللذين تركاها، ولكن الأخير، ترك لها ولدا، يملأ وحدتها، وحياتها، ويكون ثمرة عمرها المهدور، وقد بان التعب من تحت عينيها، وأرهقتها السنون، والأسفار، وقبلها قد أهلكت أهلها الحروب، والنضال ضد المحتلين، وانخرطوا في جنود صلاح الدين، وكذلك عند المماليك لصد المغول، واشتغلوا مع الولاة والحكماء، من أجل الذود عن حمى الحدود وهم في قلب أرض العرب.

عندما صحت مع غياب الشمس، التي تستعد للنوم، انتفض قلبها الميت، وقام كما تنبت الأزهار من تحت الركام، وذهبت إلى مرآة فارسية كبيرة، معلقة ومهملة في غرفة صغيرة، كان ابن بطوطة يحب أن ينزوي بها معها، وزرعت نفسها أمامها، فنمصت حاجبيها، وسرحت شعرها، الذي أطلقته، وفكت قيده منذ مدة طويلة، لينطلق كطفل مرح حتى بات يكنس الأرض، وهي تدور حول نفسها أمام المرآة.

وتفحصت صدرها الذابل، وتحسست بطنها لتطمئن على جسمها الممشوق، ونتوءات أنوثتها، وتدويرها بلا زاويا، أو ترهلات، وغرست أصابعها في رقبتها، حتى كاد قلبها يقفز من مكانه، من شدة الضغط، وتوسعت عيناها الواسعتان أصلا، وبرزت خارج الوجه الذي دب الدم به، وتوضأ بالفرح.

استعدت للكتابة، والتدوين، وتزينت لها كعروس جديدة، واستحمت بالعطور، حتى لاحظ الخدم، وشم العبيد المخصيون عطرها وهم في حجراتهم خارج البيت الكبير.

طلبت من الخادمة عدم قطع حبل أفكارها، وإزعاجها، وشمرت عن ذراعيها، لتحتضن يديها الحبر والقرطاس، وأحكمت قفل الباب، ولم تخرج من خلوتها، حتى الصباح، وأخفت بسرية تامة ما خطت يداها، وبعد خروجها للحياة، أقفلت وراءها الباب، ليكون هذا مخدعها، وفيه أوراق كثيرة، كانت تصل عن ابن بطوطة، وعن الكثير من البلاد، والرحلات في المشرق والمغرب، ولكن طلبت من الخادم، أن يوصلها إلى دار القضاء، ومعها رسالة وطلب للسفر، يحمله القاضي معه إلى فاس، وستنتظر أين تكون الوجهة، واستعدت بقوة للعمل، والمهمات القادمة، فطريقها طويل.

وصل القاضي إلى فاس، واستقبله الوزير على عجالة، ودخلا في جلسة سرية، لم يستطع أي أحد في القصر من إنس أو جن الوصول لما يقولانه، وتركه الوزير برهة من الوقت، ليذهب إلى السلطان، ويخبره إن حظي بشرف الموافقة أن يحج بالقافلة، على نفقة السلطان حامي الحمى، وأمير المسلمين.

- **لا نريد أن يلاحظ أحد شيئاً، ستذهب للحج، وابننا محمد قد وصله خبر بالعودة وعدم ركوب البحر للعبور إلى الحجاز، وسيسلك طريق البر، لكن لن يلتقي بابن تيمية، فهو مسجون، ويا حسرتنا.**
- **يا للخسارة، لكن قدر اللّه وما شاء فعل، كم كنا نتوق أن يتتلمذ على يديه، وينهل من علمه الغزير، ولكن الفقيه المالكي ابن الزهراء موجود في دمشق، ولن يفوت عليه الفرصة للتزود من علمه، وأدعو اللّه أن يترك عنه الجنون واللهث وراء الزوايا والكرامات.**
- **اتركه يتشكل كيفما شاء، ما زال في طور التدرب والتعلم، ولدينا في الزاويا والمدارس والمساجد الكثير**

من خدام الدين، والدولة، وهم يقومون بالواجب، والكرامات الجليلة تغطينا كلنا، فلو شئت طاروا بك الآن إليه، أو أعادوه إليك، قدس اللّه أسرارهم.

- **أنا لا أؤمن بالطرق الصوفية، ولكني أحترم زهدهم، وتعبدهم، بلا تجاوزات، وأقدر طرقا كثيرة، وكل شيخ وله طريقة يا حضرة الوزير المبجل.**
- **تعجبني طريقتك أيها القاضي، وأنت شيخ جليل، وفقيه مفوه وعالم عظيم، تتقبل الجميع، وتنفذ ما يطلب منك بإتقان، لا ما تريده أو ما يروق لك.**
- **هذا ما علمتنا إياه الحياة.**

في طريق العودة إلى المنزل لم يكن يعرف أن الزوجة كانت تنتظره بعين قوية، وليس كما اعتاد عليها طوال سنوات العمر التي قضتها معه، مسالمة، وخاضعة لأوامره، وما إن وصل حتى استقبله الخدم، وهي تدير ظهرها لخبر وصوله، ولم تهرع، أو تهرول لتقف أمامه كالجماد، قبل أن تقبل يديه، وتنتحي لتقديم الولاء والطاعة، ولا ترفع ظهرها حتى يأذن لها.

- **ما بك يا امرأة؟**

كأن فمها مغلق بقفل، وأسنانها البارزة، مختفية تماما، ولم ترد، وفهم أن الأمر أكبر من غضب عابر، أو عقلية النساء، المحبة للدلال، فعندما أخبرها بما جلب لها من قفاطين، وسروايل، وأساور فضة، وهدايا السلطان والوزير من الذهب، وهو المعتاد على عدم قبول الهدايا، لكن لا يمكنه رفض هدايا أمير المسلمين، وقائد المجاهدين.

- **أريد ابني يا ابن أم عبدالله، ولا يرضيني غير عودة قطعة مني إلي.**
- **وما علاقة ابنك الآن؟**
- **لقد أرسلتم ابني إلى حروبكم المقدسة، فلا تغرك طيبتي وخضوعي، وأعرف أننا كلنا نذهب فداء للّه والرسول، ونفدي بدمائنا القدس والحرمين، وأراضي المسلمين، وقد ذهب أبي ولم يعد مع المغاربة الذين تطوعوا في حروب المغول، وأهلي ذهبوا من قبل مع**

السلاجقة والروم المسلمين، لكنه ابني يا عبدالله، وكنت أعشّم نفسي، بأنه رحالة وسياسي يخدم في بلاط السلاطين، وطوال عمرها كانت المغرب تعطي الإسلام، من الأبناء والمال، ولكني مشتاقة، وأخاف ألا يعود، وقد فقدت قبلها أبي، ولم أره في حياتي، فكبرت يتيمة، ولا أريد أن ينتهي عمري، وأنا ثكلى.

- **وما حربنا إلا حرب حق، وما طريق الحق إلا وعر وصعب.**
- **وكيف يذهب إلى غير الحج، ولا تأخذون أذني؟**
- **ومنذ متى أستأذنك، ومنذ متى نستشير النساء في أمور الرجال؟ وهل لك أن تعصي أمرا لي؟ ومن قال إنه غير عائد، وما الذي دعاك لهذا الحديث وهذا التمرد، في هذا التوقيت ولم يمض على رحلته أشهراً؟**
- **عفواً، ليس تمرداً، بل هو غضب الأم وحبها، وأريد منك وعداً أن تعيد لي ابني، وأراه قبل موتي.**
- **كفي عن هذا الغي، ولا تكوني كالأجالة التي فقدت زوجها.**

استطاع أن يخفي ارتباكه، وحزنه، وتأييده لكلامها، وتعاطفه معاه، بغضبه، وزمجرته بصوته الحاد الأقرب إلى الصراخ، ليرتعد قلبها من الخوف، فهرولت إليه وهي أثِلة، وأمسكت يده بكلتا يديها، وأمطرتها بقبل، ومع تمتمة، ورجاء العفو والدعوى للّه أن يتقبل توبتها، وألا يصب غضبه عليها، وبصقت على يسارها، ولعنت الشيطان بالعربية والبربرية، وعادت خطوتين إلى الوراء، بعد أن أشار بيده، إيذاناً لها بالانصراف، ودلفت إلى المطبخ الكبير، وجلبت له طاسا مليئا بلبن يعلوه لون أصفر، مليء بالزبدة، ليكون دسماً، ويسند طوله، ويقتل جوع السفر.

وجلب الخدم صينية مليئة بالإجاص، والقرس، وجلبت درباسا والتاكوت، ورمته في الأرض، ولم يعرف عن ذلك شيئا، وتركها لخزعبلاتها، وقد أكرى حصانا، من الأختاجي، ليجلب لهم جراد البحر والحبار، والحيتان الصغيرة، لتعد له وجبة فيها من الزفر ما يصلح ما أفسدته الشيخوخة في الفراش.

وهي تقوم بتسخين الماء، لتنظيف ثمار البحر، وخيراته، حدثت نفسها كثيرا، وراجعت ما قالته، وأيقنت أنها لم تخطىء، لكنها مدركة أنها مسلوبة الإرادة،

ولا تملك دليلا يؤكد أن ابنها ذاهب إلى الهلاك، مثلما حصل مع الجنود المغاربة الذين حموا الأقصى، ومدينة القدس، والشام، وسمعت كثيرا عن المغاربة المنتشرين في المشرق، ليتعلموا ويعلموا، ومن ذهبوا ولم يعودوا، ولكنها تساءلت لماذا المغاربة يقدمون للمشرق كل هذه الولاءات، والتضحيات، ويذهب الكثير من أهل المغرب في الحروب، وفي الرباط بالأندلس، وشرق الأرض، وفي البحار، وأقنعت نفسها أن عمل القضاء، وما يقدمه آل لوات من علم وفقه، وينشرونه في الأرض، شيء يدعو للفخر والكبرياء.

فهمت مغزى اهتمام القاضي الرصين بما جلبه لها، وهو الرجل غير المعتاد على التدخل في أمور المأكل والمشرب، ويعرف خبرتها، وإخلاصها في الطبخ، والإشراف بنفسها على طاولة الطعام الطويلة يوميا، حتى بعد الانتقال إلى القصر، فقد كبرت موائدهم، ولم تصغر، ولم تترك عادتها الحميدة، في طبخ الأكل اللذيذ، فرأت أنه من المهم أن تعود لصديقتها وجارتها القديمة، وتأخذ منها بعض فنون العرب القديمة، وفنون النساء في كسب قلوب الرجال، واستفزاز مشاعرهم، وإثارتهم، ومؤانستهم وإمتاعهم.

ولجأت إلى النساء من البربر في الخبرة المغربية في الغواية، وتدليل الرجال، فأعدت الحمام لتجعله يستحم على يديها، وبالغت في إطعامه بيديها، ونثر الورود، ووضع الديباج بألوان مثيرة، ووضعت أصباغا على وجهها، ونثرت العطور المعتقة من العود الهندي الذي دلتها عليه ابنة جبرين، فهي سلطانة الغواية، وشيطانة السحر، كما تسميها نساء المدينة.

جنة الدنيا

إن في الدنيا جنة من لم يدخلها، لن يدخل جنة الآخرة

ابن تيمية

دمشق 726 هـ

يتزاحم الناس في داخل المدينة المختنقة بأسوارها العتيقة، حتى تكاد تنفجر بالناس، وفوق زحام الزحام، احتشد جمع غفير من الغاضبين بالقرب من المسجد الأموي، وانضم له الفلاحون من بساتين بردى والقرى، ما إن سمعوا عن سجن الإمام تقي الدين أحمد الحراني أبي العباس ابن تيمية، بعد خدمته الجليلة للشام وأهلها، ثم يسجن وهو في هذا العمر، بعدما وقف

كالجبل للتتار، والصوفيين المتجاوزين، والنصارى المعادين للإسلام والرسول الكريم.

صرخ الجميع بصوت واحد «أخرجوا الشيخ الفقيه»

ولكن ذهب صراخهم أدراج الرياح، لأن فقهاء المدينة تحالفوا عليه، وكان له من الأعداء ما ليوسف من غيرة شديدة من إخوته، وفشلت كل الوساطات لإخراجه، فالسلطان المملوكي في مصر، غارق في صوفيته، وتقديسه لها، وحب زيارة القبور والتكيات، فقد أخرجه الناصر محمد بن قلاوون من السجن، وأكرمه، وربطه مع علماء الأمة الغيورين، وأيد دعوته على مضض من حاشيته والأمراء، وأعطى تعليماته للوزراء والعلماء في القاهرة والإسكندرية بأن ينهلوا من علمه، وقد أيدوه في معارضته لفكر الحلاج والقونوي وغيرهم، وأراد السلطان ذلك، وتهاون بعضهم عن تأييده، وعارضه قليل منهم، وكان خائفا على مستقبل المُلك، كما سمع حديث من حوله، وأمر بمنعه من الكتابة في السجن، وخشي من تأثيره في العامة، وفي الثورة على الملوك والنواب والولاة.

تأزمت دمشق، وهاجت أسواقها، وحاول الملك في القاهرة الاتصال بمماليك الشام، ونائب دمشق، واتهمه الناس بمحاولة كسب العامة، وانقلب على الحنابلة، وأراد نشر الصوفية، وقد وضع في المدينة أربعة قضاة للمذاهب الأربعة، وذهب آخرون إلى أن مثل هذا الشيخ القوي وصاحب السمعة والمؤيدين، يقف أمام الصوفية، ويعتبر أكبر تهديد لانقياد العامة وراء المماليك الذين توطد حكمهم، ولم يعودوا مهتمين كثيرا بالجهاد والعباد، بل أخذتهم حياة البذخ واللهو، وانجرفوا مع التجاوزات، وتظاهروا بدعم «ابن تيمية» وفي الخفاء كانوا وراء سجنه، ومحاربته، ويحسب أنه أوقف انتشار فكره، ولم يعلم أنه وصل لكل مكان ولم يغادر أسوار دمشق سوى عند خروجه لقازان التتاري، والذهاب لمصر لنجدة الشام، وقالها في وجه «الناصر» وأمام الأمراء، وحاشيته، إن كان هو سلطان على مصر والشام، فليدافع عنها، ويلتحم الجيشان، ولا يترك دمشق لوحدها، ولم يكن يخشى في قول الحق لومة لائم، وربما حفظها له الملك، حتى وإن أيده، وتشجع من كلامه، فلا يريد أن ينسب الفضل لغيره، في كسر قازان، وجيوشه، فمعركة الكسوة، وشقحب، لا تزال ذكراها ترن في أذني الناصر، وتمجيد الناس لتقي الدين، محل غيرة عند الولاة والقضاة، والنواب والأمراء، وقد تكون الغيرة تسللت لقلب الناصر.

وسط تلاحم الناس مع بعضهم، وجد مسعود بن جابر القادم من قلب آسية إلى دمشق، نفسه محاصرا، وغير قادر على فعل أو قول شيء، وتأثر بما يحصل من غلاء، وتحكم العسكر في كل شيء، وأذعن لأمر الملك، وقرار القاضي بدمشق بسجنه، وبقي حبه لهذا الرجل في قلبه، حتى وإن حسب الناس ومن يعرفه أنه انحرف وترك مذهبه، ولو أنه غير مذهبه، فلم يغير دينه، وحتى وإن اختلف الساسة، ومصالح الحكم تطغى على حقوق الأفراد، فإن شعبية الفقيه تقي الدين ثابتة وتجعل من لا يحترمه يقف احتراما على الأقل لعلمه الغزير.

بصعوبة بالغة، وصل إلى الخان الذي يمكث فيها بين حين وآخر، ويعرف صاحبه النصراني، وبينهما علاقة تجاوزت حدود الاختلاف الديني، وعلى الرغم من فرح صاحب الخان بسجن ابن تيمية، لكنه احترم مشاعر المسلمين، وأوقف توزيع الحلوى، ومنع الجهال من المسلمين والمسيحين ممن يرتادون خانه ومطعمه، من شتمه، وأخفى كرهه للإسلام والرسول، ولكن بريق عينيه في وضح النهار لا يمكن إخفاؤه.

- **مرحباً بالتاجر العربي، وصلت في يوم غضب وحزن للمسلمين.**
- **عرفت، ولكن لا يضر الإسلام سجن عالم، فنور ما يقدمه يتسلل من بين القضبان، ولا يمنعه حارس وسجان.**
- **سيخرج بإذن الرب، فهي ليست المرة الأولى ولا الأخيرة، سيبقى معارضا، وحادا في آرائه ولا يهادن أو يساوم، ولا ينفع ذلك في هذا الوقت بالذات.**
- **سمعت أنه ذهب إلى سجنه سعيدا، لينصرف ويتفرغ للتأليف، فهم وفروا له عزلة إجبارية، ومجانية.**
- **أعرف ثقتك بي، ولكن لا يسمع بقولك أحد، فقد تذهب ضحية وشاية.**
- **من يوصل لهؤلاء العجم؟ وقد حان الوقت للثورة عليهم، وعودة الخلافة لنا.**
- **إذن الأمر أكبر من سجن عالم، وطموحاتكم أكبر.**
- **ليست طموحات، بل هو ملكٌ مستحق ومسترد شئنا أم أبينا، قد خدموا وسادوا وقتا، ولا ضير أن تعود الوصاية**

لأهل الأرض، ومن اختارهم اللّه ونزلت بينهم الرسالة، ونشروها في بقاع الأرض، وأنتم شهود على عدلنا، وعلى مجدنا.

- **اسمع يا بني، نحن استمررنا في الشام لأنها أرضنا منذ الأزل، ولم تخرجونا، ونعيش معكم بسلام، وندفع الجزية بانتظام منذ عهد عمر، ولكن لا ننكر أننا نتمنى أن تعود دمشق والشام كلها مسيحية خالصة لدين عيسى، مثلما تحلم أن تعود السيادة والخلافة للعرب، لكن الأماني مستحيلة، ولم تعد ممكنة، وقيام الساعة آت، ونلتقي في الآخرة، وهناك الفصل والحساب.**

وصل الكلام في الدين إلى طريق مسدودة، ونهاية لأبعد شيء يذكر، فالتعايش الدنيوي يفرض نفسه، ويترك كل منهما الآخر لحين آخرته، وكلاهما مؤمن بطريقته ويسلك دربه الديني.

ذهبا إلى تبادل أطراف الحديث عما فات «عطيل» منذ أن غادر دمشق، ولم يعد خلال السنوات الماضية، وسرح يفكر في صديقه المسيحي «حنّا» المختفي في بيت المقدس، فهذا مرابٍ ويعمل في كل شيء، وبيع حتى رفث البقر لمن لا يجدون مالا يشترون به حطبا في أيام لا يستطيعون الخروج للتحطيب، أو يزداد برد هذه المدينة المختلف في نخر العظام، وتجميد الأطراف.

أراد عطيل أن يحصل على زوجة، ويعرف أن صاحب الخان يؤمن للنزلاء كل ما يريدون من سبل الراحة والمتعة، وليالي الأنس، والطرب، وحتى الخشخاش والقيان المغنيات والراقصات، والراقصين من المخصيين الذين يشتريهم من السوق، أو الذين هم ليسوا برجال أو نساء، وقد تقطعت بهم السبل، وتبرأ منهم أهاليهم، فيأويهم عنده، ويجعلهم في فرق يقدمون الخدمات للمسافرين على مفترق القارات من أوروبة وإفريقية وآسية، وقد تعاظمت تجارته، وتوسعت دائرة زبائنه، حتى وإن كان المغول أكثرهم والصليبيون، فقد انفتحت الدنيا على دمشق والشام، وانتعشت طرق التجارة، وتمرس في هذه المهن، لكن عطيل المؤمن العامل في الفصيل السري، لا يرى في هذه الأمور إلا قشورا وتفاهات، ويجد فيه قدرة على تأمين كل ما يريد من خيل عربي أصيل، أو كديش وبغال، وكذلك صبيته متغلغلون في أزقة دمشق وبيوتها، ويصلون لكل مكان، كما أنه أراد هذه المرة أن يحصل على زوجة لذا فإنه يريد أن يدله على زوجة بعد شهور من

السفر ما بين خراسان وشيراز والعراق، وأمامه طريق طويل وقحط وصحراء قاحلة في رحلة الحج مع ابن بطوطة، ورمضان على الأبواب، فلا يريد التأخير، ولا يضمن العودة بعد الحج إلى الشام.

- **أريد منك زوجة صالحة، وتقبل الزواج من رجل على باب الشيخوخة، لا يريد ولدا، ويدفع لها صداقها بكرم وسخاء.**
- **أما زلت عند عاداتك بالزواج في أي أرض تحل بها، ولمَ التعب والارتباط، أعرض عليك مجموعة من أنواع وأشكال جميلة، تختار ما تشاء، وتأخذها بعد أن تتلو عليها تراتيلكم.**
- **كيف ذلك؟ العياذ بالله، هذه تجارة الهوى لا أتبضع منها.**
- **كثير من التجار المسلمين زبائن عندي، ونقدم لهم هذه الخدمات التي كسدت وقتا، وانتعشت هذه الأيام والفضل للنائب، ونسيان الفقهاء في المنابر، وندعو اللّه أن يتم النسيان، وينشغلوا بقضاياهم الكبيرة عن قضايا الإمتاع والإتجار.**
- **لهذا تهللون لسجن ابن تيمية، فقد أغضبكم سابقا لمساهمته في طرد المغول، والجهاد ضدهم، ومحاربته هو ومؤيديه لبيع الخمر، والإفطار في رمضان، وقد كسر الخمارات، وأراق الخمور، وشق الظروف.**
- **عدنا إلى هذا الحديث؟ دعنا في قصص الزواج، سأجعل الرجال يبحثون لك عن مرأة مناسبة.**
- **أريدها على سنة اللّه ورسوله، لا يهم إن كانت ذمية، أو مسلمة، عربية أو رومية.**
- **اعتدت على العجم، وذقت ما لم تذقه في بلاد العرب!**
- **أريد السهلة المحتشمة، التي تريد الستر، وتتحلى بالعفة، وكما تعلم أنا أحب النساء بالحلال، وأبتعد عما حرم اللّه، وإن تعاملت مع أمثالك، ومن أديان أخرى، فلم أتغير حتى بعد أن خالطت الكفار، والزرادشتيين، والصابئة، واليهود والمسيحين.**
- **هل جربت الزواج من يهودية؟**

- **ولماذا اليهودية تحديدا؟**
- **لأنهم أغنياء، ولا أظن أنك تجد يهودية فقيرة، أو تقبل بالزواج من أجل حفنة من الدنانير، كما أنها لا تروم شرفا من عربي.**
- **ويحك لقد أوغلت في إهانتي.**
- **ما قصدت ورب مريم، ولن أحلف بيسوع، حتى لا تغضب.**
- **هل سنمكث كثيرا في الجدل، أين الطعام، وأواني اللبن الشائط، واللحم والكلى والقلوب والخصيان المشوية، وأين المطعم المليء برائحتها؟ أم وجدت تجارة مربحة أكثر؟**
- **لا لا.. أخذنا الحديث، كل شيء سيصل بعد قليل، لترتح قليلا، وسيأخذ الصبي حصانك إلى إسطبل الخيل، ولتعطينا متاعك لنصحبك إلى جناح من غرفتين لك.**
- **نادى العجوز ذو العينين الرماديتين، والحواجب ذات الشعر الطويل المختلط مع الرموش، والظهر المحدودب، وراح يسير ببطء، يجر خلفه الحصان من الرسن، فيحدث صوتا في الأرض، ويختلط مع التراب في الزقاق، وربطه في إسطبل مجاور، ووقف وأنزل سرواله الضيق، ليبول وهو واقف، بلا حياء من المسافر والمارة، ولم تستح منه امرأة مرت برفقة أبنائها، وصرخت به، قائلة:**
- **رائحة بولك الحامض نتنة، كصاحبها.**

كانت هذه المرأة تعرفه جيدا، فلا تتشجع على إطلاق سهام كلامها، وسبابها، لو لم تكن سمعة هذا الرجل منتشرة في السوق القديم، ولكنها توقفت عند هذا الحد، ولم تقل إنها رأت أعضاءه المتضائلة، والمتلاشية، منكمشة.

استعمل التاجر المسافر الخان لحين ترتيب بيت والده الكبير الذي تركه من سنوات، ودفع لصاحب الخان أجرة السمسرة، ليجلب له خادما، ويرسل الحرفيين المهرة، فيصلحوا الأبواب المكسرة، ويقصوا الشجر مختلط الأغصان وغير المشذب، وينظفوا الحجرات، ويعيدوا ترميم الجدران بالجص، ويغلقوا الفتحات التي باتت أوكارا للأفاعي، وأعشاشا للعصافير والحمام.

آلمته مناظر الفقر والهوان، والأزقة المترعة بالأتربة، والأوساخ على جنبات الطرقات، والساحات، والأسواق المليئة بالبضائع بلا زبائن، والمساجد المليئة بالمصلين، بلا فقهاء شجعان، وعلل نفسه بالآمال، عندما شاهد الصبية، كل واحد يحمل قرآنه بمخلاته، ويرتادون المساجد بلا انقطاع، وبساتين دمشق تعج بطيورها، وتمتلىء بكل أصناف التمور والفاكهة، وقد انتهى حصاد القمح، وبدأ موسم الذرة. والخضار.

توقفت جولة عينيه، عندما قطع الطريق الباعة المتجولين، من يبيع الماء، ويعمل بالسقاية، ويبيع في جراب الماء المغطاة بشوالات مبللة بماء بردى البارد أصلا، ومنهم من يبيع البطيخ المقطع، لمن لا يملك شراء بطيخة كاملة، أو يريد الارتواء من العطش، ومنهم من يبيع النبيذ، والعرق علناً، بمنظر يسودّ منه الوجه، ويود الناظر لو أصاب عينيه العمى عن هذه المناظر المزعجة والمحزنة.

وانفرط حبل أحزانه، وارتمت كالخرز أمام قلبه المدمل، وحبس دمعه بين عينيه، وقال في خلده إن كل هذه صغائر، والمهم أن تفرخ الأراضي والبيوت أئمة، ومصلحين، وحماة للأعراض والأراضي، وكل ساقط له لاقط، فإن وجدت المفاسد، فقد تكثر الفضائل في الوقت نفسه، ولم ينظر لأمر المماليك بعين الريبة أو الاستهجان، فعذرهم لأنهم يحكمون بسياسة مختلفة، ويريدون كسب الجميع، وأن تزدهر دولتهم، ويخدمون الدين، كما يفتحون المجال لكل الطوائف والأديان، ولكل الأذواق، وإيجاد كل البضائع في الأسواق، حتى بيع البشر، والمتاجرة بذلك.

انقضت أيام قليلة، قبل أن يخبره أهل الخان بوصول التاجر حنا من بيت المقدس، وأسرع إلى استقباله في بيته المجدد، وآثر المكوث فيه، من المبيت في مكان بقلب السوق، وحوله النخاسون والسماسرة، والباعة المتجولون، وقد باتت دمشق غير التي عرفها.

- **أخيرا التقيتك، بعد كل هذه السنوات يا حنا؟**
- **الحمد للرب أنك بخير، ومن أهل الدنيا.**
- **هل حسبتني أموت قبل أن أودعك؟ وهل عهدتني خائنا للود والعهد يا أخي؟**
- **أضحك اللّه سنك، ما زلت كما أنت، ولم تغيرك الأيام، ولا الغربة القاسية.**
- **كيف حالك وماهي أحوال بيت المقدس؟**

- **أخالك تعرف كل قاصية ودانية، والحمام بيننا يطير، ويصلك من كل حدب وصوب.**
- **ما أنفك أسمع الأخبار بأذني، ليطمئن قلبي، وتتعطر روحي بشذى السلام.**
- **لا سلام أبدي في الدنيا، وإني لأغبطك على هذه الغيرة، ولتبدل حزنك فرحاً، فالممالك أقوى، والمماليك يبلون بلاء حسناً.**
- **قل لي بربك وربي، أجد الشام تئن تحت وطأة الظلم.**
- **لا يا رجل، التشاؤم داء لا دواء له، بل إنها أفضل حالاً من عراقي العرب والعجم، وفارس، وغيرها، وأين كنا، وأين صرنا، كل شيء أفضل من التتار المجرمين، والصليبين الخبثاء الحاقدين، وإن كنا نرى في المماليك عيباً واعوجاجا، فلكل شيء نقصان، والكمال للّه وحده.**
- **صدقت، صدقت، الحكمة ضالة المؤمن، أيها النصراني المسلم.**

كانوا دائما ينادونه المسلم، ويتفق الجميع على أن الأخلاق الحميدة صفة كل إنسان من أي دين، وبعد نقاش طويل، لأشياء معروفة، وأشياء غير مدركة في الحال، واستمرا في التعمق بأوضاع الناس في بلاد العرب، والعجم، والبربر، والإفرنجة.

اتفق الرفيقان على أن يخرجا في نزهة،بعد راحة ومبيت يوم في دمشق، ويصلا إلى مضارب القبائل التي يتعامل معها مسعود بن جابر، حيث وصل إليهم خبر أنهم يخيمون في البادية، بعدما عم السلام، وتدفقت جماهير العرب للالتحاق بجيوش الملك الناصر من كهلان وغامد وزهران، فقد وجدوا في ذلك وظائف ما بين جند أو عمال وكتاب، وبعضهم يقصون الأثر، ومنهم الحراس، واستقطب المماليك في مصر والشام هؤلاء العرب ووظفوهم في جيوش الإسلام، وانخرطوا يقاتلون ببسالة، ويذودون عن الحمى، بعدما كانوا بدوا حفاة وشبه عراة، يملأ رؤوسهم القمل، ولا يجدون الماء ليتغسلوا، وليس لديهم أعمال إلا الرعي، والفرسان الأشاوس والمغامرين، يقطعون الطرق، في الرمال ما بين بلاد الشام ومصر، أو في تونس والجزائر، حتى المغرب، وعلى طريق الحج، وقد انتشروا كالقطا في الربوع والبوادي، وكالبعوض في كل المدن، حتى الصين.

وفي طريقهما من البادية التقيا بمحمد الشامي الصديق القديم، وصاحب القوافل التجارية، فقد خرج إلى حلب ليجهز قافلة الحج، ويأتي معه الراغبون بالحج ممن يستطيعون إليه سبيلا، وينتظر وصول ابن بطوطة، الذي وصلهم خبر أنه سيصل إلى الشام، وعليهم انتظاره، وأحس التاجر المقدسي بالانتعاش والسعادة ما إن سمع هذه الأخبار، وأن أصدقاءه سيحجون لبيت اللّه الحرام، وسيمكث هو يدبر الأمور، ويديرها، وهو الذي نذر نفسه أيضا لمحاربة الصليبين وأذنابهم من كل الطوائف والملل، وليدحر الأنداد والحساد، وقد استبسل في ذلك، أكثر من كثير من أهل الملة.

ما إن وصلا إلى البادية بين مدينة تدمر الأثرية وحمص، حتى تفاجأ بعدد الأعراب الذين احتلوا الأماكن، وباتت محاشرهم تغطي السهول والوديان، وجلسا بين السواري العالية، والأعمدة الصخرية الكبيرة، وعثرا على أعرابي لاكتراء الجمال منه، قبل الدخول في البيد.

لم يجدا ضالتهم، وعرفا أن القوم المقصودين قد انتقلوا بحثا عن الكلأ إلى جزيرة الفرات،ومنهم من ارتحل بعيدا عن الحروب، إلى مناطق أكثر توغلا في البادية والصحاري، حيث لا يوجد فيها حروب، والغزو مفتوح ومتاح على مصراعيه، ولا سلطات تمنعه، أو قبائل كثيرة وقوية تزاحمهم.

وأشار حنا على صاحبه بالعودة إلى دمشق، ومن ثم اللحاق بهم، فربما يصلهم في جعبر، أو قبل الوصول إلى الموصل، وهم أهل سهل، ولديهم آلاف الرؤوس من الغنم، فلا يمكن أن يصعدوا الجبال، أو يبقوا حتى الخريف، لأن تلك الديار مطرها غزير، وبردها مخيف، وقد يلحقهم الحيف، وتضربهم الثلوج والعواصف، والأرضي موهدة تجري بها السيول، فتبرك الجمال من الوحول، ولا يستعمل العرب البغال والحمير، وفي الوقت ذاته يخافون من أن تتعطل العشار، وينقطع الزاد، وتذهب المواسم سدى.

ولاحظا صلاح الحال لكثير من القبائل، ووجدا الناس يعيشون برغد، والأغنام سمينة، والمواسم غنية، والأموال وفيرة، والأسواق في حمص وحماة مزدهرة، وواسعة، وتثير الونس، وتجعل النفس تحس بارتياح، والمساجد تعلو أصوات مؤذنيها، وأجراس الكنائس تقرع في الآفاق.

وانهمرا إلى كوخ من سعف النخيل وأغصان الأشجار، بالقرب من خان، وساقية للسبيل على طريق القوافل، ووجدا نفرا من العرب يترنحون في وضح النهار تحت العرائش، وقد سكروا من أنبذة العنب وعصير التمر.

وسمعا دق الطبول، وضرب الحديد، وعج الوادي بصدى قهقهات ملؤها الغنج، وعرفا أن المكان للهو عابري السبيل، ومحطة للقادمين من جدب البيداء، بحثا عما تيسر من عاطفة مأجورة، ورقص وطرب.

ولم يمتنعا عن الجلوس، وثيابهما وهيئتهما تشيان بغناهما، فتركت الجواري الأعراب من الزبائن والتجار، والتفتن إليهما، وقد درن حول أنفسهن أمامهما بالقوام الرشيق كأعواد الخزيران، والظفائر المنسدلة كذيول المهر الأصيلة.

وأمهر الرفيقان في بحر السراب يتخيلان الغواني الحسان، وقد غابا في السكر، هربا من لجة الحياة، وذكريات الصدوف.

وما غابا عن الوعي تماما، حتى إن رئيسة المكان، والأم غير الحقيقية للفتيات الراقصات، انشغلت بهما، تراقب وضعهما، وهي جالسة بفم محروس بالوشوم الخضراء، ونصف حجاب لا يغطي شيئا من الشعر الأملح، وعيون بها حول قبيح.

اقتربت منهما، ونفثت شيئا من فهما عليهما، وجلست بصمت لبرهة، ثم صاحت ليسمعانها مع صوت الآلات والمغنية، قائلة:

- **من أين الأمراء؟**

لم يرد عليها أحد، لأنهما لم ينتبها، فكيف يتركان الحسن كالواحة في وسط الصحراء، ويلتفتان إلى امرأة عجوز أشبه بالغراب.

عاودت الكلام، وقد أمرت الفتيات بالتوقف، قائلة:

- **عند حضور الأعيان، يسكت العود، والمغني عن الغناء، وخصور بنات المتع وبقايا السبايا عن الحركة.**

ولم تكتف بذلك، بل واصلت:

- **أنتما، لا تنطللي علي الحيل، الفتيات أغرمن بكما، وستدفعان لوحدكما أجرة اليوم، فكثير من الرجال قد تركوا العريشة غاضبين.**

رمى عليها حنا النقود، فضربت برجلها اليابسة، وسمع الحاضرون خشخشة وخلخلة للدنانير، فسال لعابها، وارتمى على الأرض، وقال:

- **خذي ما لك، وحاجتك، وحاجتنا سويعات حتى تدنو شمس الأصيل، فنغادر قبل أن يهبط الليل.**
- **كيف ذلك يا سيدي، فبربكم الذي توحدونه، مبيتكم عندنا، ولكن بمداعبات، لا خلوات كاملة.**

ولم يكونا بكامل الأهبة، وفي غياب الاتزان والعقل، ليسألاها عن دينها، ومن أي أقوام هم، ولم يشدهما الفضول كما في الصحو، ليعرفا أنهن من بقايا المغول، الذين بقوا في الديار، ويسمونهم أبناء العراء، وهم أقوام متشرذمة لا تعرف أصولهم، ويمتهنون الغناء والرقص، ويخدمون كل قاصد لهم، ويمنعون الرجال من الاختلاء، حتى لا تهرم الفتيات، ويكسد السوق، وحتى لا يثرن البلبلة.

قفز شاب إلى حضن العجوز، وكان أشبه بالفتيات، ليحفظ النقود، وشده عطيل، طالبا منه أن يخشوشن في تحركاته، ولا يبدو كالنساء، فرد عليه المُتأنث بغمزة عين، وكأنه يقول له أنا أكثر منهن نعومة، وتغلب عليهن بالإفراط في التودد، والغنج الرخيص، والابتذال.

وهمت امرأة صار وجهها يتلألأ في كأس حنا، واقتربت منه حتى التصق صدرها بدرعه، فزمّت نهديها، وقالت له:

- **تعال**
- **أين؟**
- **إلى خيمة تعيد إليك الحياة.**
- **لا.. أقدر فديني يمنعني من أن أقرب غير زوجتي.**
- **اقترب وسأجعلك تكفر بكل الأديان، وتؤمن بسحر لا فكاك منه.**

دنت منه حتى التصق الجسدان، وتقابل الوجهان، وابتلعت شفتيه، فهام يتنهد حتى كاد ينقطع نفسه، وشدته بقوة من قميصه، حتى كاد ينشق، فتوقف كل شيء فيه، ووقفت له، وغرست يديها في ظهره، وأفلت منها كما تفلت الفريسة من الوحش.

وغادرها بعد أن أفلت من بين يديها وسحرها، وتبعه صاحبه الذي لم تتجرأ امرأة على سحبه، وربما تكون تلك الجارية، قد رمت شيئا في فمه، يجعله مفتونا، ويعاود المجيء إليهن، كما أخبرته، وهي تجزم، وتتوعده.

في طريقهما إلى الخان خشيا من قطع الطريق، وهما يترنحان، فراح يسأل حنا صديقه:

- **هل يقع الحب والفتنة لبائعة هوى؟**
- **الحب شيء لا يعرف ولا يحدد، يقع في القلب كالمطر، فإن أرطب روى وأحيا، وإن سال وزاد أتلف وأفنى.**
- **نهلت دفقة من ريق لا مثيل له.**
- **أي مثيل؟! وأنت لم تذق إلا زوجتك، وكنت تمارس رهبانية مقيتة.**
- **أهل القدس أدرى بشعابها يا مسعود.**

وأضاف على الجملة ضحكة فيها رائحة سكر.

لثمت أرجلهما تراب الطريق، وهما يسيران بخطى متثاقلة، وكل منهما يستند على الآخر، يجران أجسادهما بصعوبة، ويتوقفان عند كل حجر، وانحناءة زقاق، ولم يصلا إلى مكانهما، إلا بمساعدة من خرجوا لصلاة العشاء، وتأسفوا على حالهما، وبعضهم صب عليهما اللعنات، على هذا الفسق المستشري، وكتموا شتائم للمماليك وقضاتهم، على فتح المجال حتى في البراري والضواحي للفسق والمجون، وغفلوا عن كون الأقاليم النائية لم تصلها يد حاكم، ولا سلطة عادلة أو فاسدة منذ عهد الرومان.

منذ الصباح الباكر، صحى كل منهما مفزوعا، نادماً على ما اقترفه عقله من خطيئة، واستغفر ملء روحه، وبكى من داخله بصمت ونسك، وصلى كل منهما بطريقته، ومن ثم وصل النادل ليزيل فوضى السكر، من أقداح، وبعثرة للمكان، وانصبا على المداد والقرطاس، يدونان أشياء مهمة، ويجمعان مع بعضيهما المعلومات، والأخبار.

باغت حنا صديقه المنكب على الورق، مثلما يرقد العاشق على محبوبته قائلاً:

- **هل نعود اليوم لمضيفينا بالأمس؟**
- **ألا تراني منشغلاً، لا تنس عملنا وجهادنا.**
- **ترويح عن النفس، والله يغفر الذنوب جميعا، ولو كانت مثل زبد البحر، ولو كان بيدي لتزوجت مثلما تفعلون، وارتحت من عذابي في كل أسفاري.**

- **لماذا لا تنطق الشهادتين، وتبقي على مسيحيتك بداخلك، فلا يمنعك الدين عن حب المسيح، وكلنا أهل كتاب.**
- **أنا مسلم أكثر منك.**
- **أعلم ذلك، فأنت تحفظ كتاب اللّه، والدين عند اللّه الوحدانية، ولا أريد الدخول معك في جدل، وفي الأخير لو ركزت لوجدت أننا متفقون، ولكننا كالنعام نخفي رؤوسنا في الرمال، والمنطق يمر من فوقنا.**

أورد حنا آيات من سورة الشورى في القرآن، ولم يشأ أن يمس المصحف، المركون فوق مخلاة في طرف الحجرة، ولكنه فتح مصحف صدره وقرأ:

- **شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ.**

ولأن مسعود بن جابر ليس مطلق الجهل بعلوم القرآن وفي أمور الفقه، فقد ردّ عليه سريعا بآيات من القرآن:

- **وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.**

فأراد أن يقول له إنه لا جدال ولا دفع إلا بالتي هي أحسن، وكل أهل الكتاب مسلمون، ومن يراهما في الأمس، يجدهما في حال آخر، وسيقول حتماً، سبحان مغير الأحوال.

وانشغلا قليلا، وعاود عطيل الكلام، وطرح الأسئلة الصعبة، على صديقه الفقيه في أمور الدنيا:

- **ألا تجد أن هناك غرابة فيما شاهدنا أمس، من أولئك القوم؟**
- **وما الغرابة، فكثير من الحوانيت أو الحانات تقدم هذه**

الخدمات.

- **أعني أصلهم وحسبهم ونسبهم، لا دينهم.**
- **هناك الكثير من الأقوام لا يزالون على الديانات القديمة، وقد تستغرب أن تجد غير مسلمين في ديار المسلمين، وقد آمنت كل العرب، وبقي البعض من النصارى على دينهم، ومعهم اليهود والصابئة.**
- **صدقت صدقت، في أصفهان هناك زرادشتيون يعبدون النار، ومر عليهم الإسلام مرور الكرام، ولكن المغول في خراسان وسمرقند وبلخ أسلموا، وحتى في بلاد الهند.**
- **الله يهدي من يشاء، وهناك مسلمون أو متدينون بالاسم وبالشكل فقط، وأنت ترى بعض الولاة، ومن يطيلون اللحى في كل الأديان، وهم أشد ضراوة وظلما من ماجن أو فاسق، وأكثر فتكاً وعداوة لمن يقول الحق.**
- **السلطة مفسدة، تجذب الأسوأ، وتفسد الأفضل، ولا ينقاد لها إلا من عنده استعداد للانحطاط من أجلها.**

كل هذه النقاشات، جرت مع سيل الحبر، وانهمار الكلام، في الورق، وفي الهواء، وبعد أن تناولا إفطارا من لبن الماعز، وتمرا، وعسلا، مع خبز الشعير، ارتدى مسعود جبته وعمامته، وشد حنا شريطه الأسود حول خاصرته، وهو ما يميز المسيحين، كما هو متعارف ومفروض عليهم.

- **أبو عبدالله، ألا ترى أن المماليك قد خدموا الدين فعلا، بكثرتهم، وأنهم ورثوا العباسيين، ولكنهم لم يطوروا الحكم، ولا التعامل مع الأوضاع، فقد كانت الأعراف والأحكام قائمة منذ زمن طويل، بل غيروا لصالحهم ما يريدون من توارث الحكم، وأحكموا السيطرة، وخففوا قيود الشريعة.**
- **سؤالك سهل وصعب، لا ينكر فضلهم إلا جاحد، ومن لا يرى قسوتهم، وإفلات الأمور من أيديهم إلا مغفل وغافل، وشتان ما بين الإثنين.**

عاد الرجلان إلى عش الرقص المتجول، وقصد الراقصة، وانغمس أبو عبدالله في ملذاته، لكن هذه المرة، جعلته يئن من الظمأ عليها، دون أن يستطيع حتى الجلوس معها، فقد أذاقته وحرمته، وهذا ما جرت عليه عادات تاجرات الهوى والداعرات.

لكن العجوز جلست معهما في صحوتهما، فقد ضرب عطيل أقداح النبيذ بيديه، فشربته الأرض بدلا منهما، وهرب المتأنث، وقد رأى أسود الغضب تزأر في عينيه.

ولم تتحرك لها شعرة، فقد اعتادت على كثير من الزبائن وأصناف البشر، وأجناسهم المتعددة، فشقت طريق قذارتها، واستفتحت معهما الكلام:

- **لا تلومونا، فقد أكرمناكم بضيافة الأمس، واليوم الفتيات منشغلات برزقنا.**

رد عليها حنا، وقد جاوب قلبه، قبل لسانه، مع أنه اتفق مع زميله، أن يترك له زمام الأمر:

- **لكننا ندفع بسخاء.**
- **ليست المسألة مالاً، بل لا نريد أن نخسر العرب والتجار من أهل المدن، فأنتم راحلون، وهم دائمون، وأنتم زبائن نهار، وهم أهل الليل.**

هنا تداخل عطيل معها:

- **وما الفرق؟ أم أنها حيلة لندفع أكثر؟**
- **دعك من هذا يا سيدي، وحتى لا يصاب صاحبك بالصبوة.**
- **جدع اللّه أنفك المخزوم أيتها المحتالة.**

لم يقدر على انتشال صاحبه، وغرق هو الآخر في السحر الصحراوي، ونسيا محمد الشامي وابن بطوطة، واستمرا على هذا الحال ثلاثة أيام، حتى نفدت نقودهما.

وفي الأخير وجدا أن التعلق فيما ليس للمرء هوان ومصيبة، والتشطر لا يعد شطارة، ولو كان في رأسه نعارة وحزازة، وتحيا المروءة في وأد الشهوة.

وتوصلا إلى أن ما حصل مع دولة المماليك التي بدأت على أنقاض خلافة العرب، هو أن الترك والعجم، كانوا مخلصين، وخداما في سلك الدولة بإخلاص، وحال الدولة كحال الصاحبين اللذين خرجا للنزهة وزيارة العشيرة، هبت عليهما رياح الوجد والهيام، وعجاج الشهوات والملذات، وغشاوة الشيطان وحرفته.

في دمشق كل يغني على ليلاه، فالسخونة في الأجواء، وفي قلوب الناس، ودخل رمضان عليهم، ولا يزال الناس مشحونون أشد الشحن على الأمير سيف الدين تنكيز، لما وضعه من قضاة للمذاهب الأربعة، وميله للمالكية والحنفية، وما فعله بكتابه الذي أرسله للملك الناصر، ضد شيخ الإسلام، وفي تقارير عيونه، والعسس، الذين كانوا يرون فيه متشددا، ومتزمتاً، والناس على مشاربهم ومذاهبهم من أهل دمشق يعظمون «شيخ الإسلام» ويحسبونه قطعة من الجنة، وكلامه ومؤلفاته كنوز لا يقدر ثمنها ولا تعادلها كنوز النبيين سليمان وقارون.

صحراء تدمر 2017

تنقل الأمير بين صحراء الرمادي وبلاد الشام، هرباً من الموصل التي باتت مهددة بالحرب، ويحشد العالم لتحرير المدن من الذين يدعون الخلافة الجديدة التي آلت للأتراك على عهد ابن بطوطة القديم، وعاد مجددا لكن ليس كرحالة، بل كسجين وحكاء، وشاءت الصدف أن تكون الخلافة في أرض أمير العرب، والقبائل التي تم جلبها من شمال نجد للمساعدة في دحر الصليبين والمغول، وشهد ابن بطوطة على ذلك، وأسهب في مدحهم، وسرد بطولاتهم للطبيب الذي ينتمي لتلك الأحلاف نفسها.

اتهم الطبيب ابن بطوطة بالتحيز، وتحكم عاطفته به، ولم ينكر إعجابه بذاكرته الغزيرة، وبتعلقه بشخصيته في المخطوطة، وحبه للنساء، وبما أنه بلغ من العمر عتياً، أحب، وكانا وهما في سجن مفتوح، ينبطحان على الأرض، يحدقان في البدر المكتمل، ويتأملان السماء، ولم يبخل ابن بطوطة في وصف أنواع النساء، البيضاوات والسمراوات، الطويلات والقصيرات، والممتئلات والنحيفات، والعربيات والأعجميات، مع شرح مفصل لأطباع وأوصافهن الخاصة والعامة، وتجاربه مع كل هذه الأصناف، وولعه.

وباغته بسؤال ذكوري بحت:

- **هل ما زلت تتذكرهن؟**

- وهل يمكن أن ينسى رجل من أحب، وما أحب فيهن؟
- أعجبني فيك حيادك التام في الوصف، وخصوصاً ابنة جبرين، فهي شخصية محورية، أثرت فيك وفي تاريخ المنطقة، لكن ألم تبالغ؟
- بل أوجزت الكثير، ويكفي من سيقرأ مستقبلا، رؤوس الأقلام، ونترك له حرية التأويل.
- الواضح أنك كنت تحبها، رغم العلاقة المحدودة، فهل أحببت بعدها؟
- ربما لم أحب لا قبلها ولا بعدها، بل كنت منشغلاً بوجودي وخلودي، وقد أكون مفتوناً بجمالها.
- ماهو الوجود والخلود بالنسبة لك، أجبني كابن بطوطة، فلا تنزوي داخل الراعي، وتهرب من الإجابة.
- كنت أبحث في النساء والرحلات عن وجودي، وفي الإنجاب بكل بلد والارتحال عنهم خلوداً لي، فرحلاتي ونثر أبنائي في البلدان محاولة لتخليد ذكري، فلماذا ننجب الأبناء، أليس بحثاً عن الخلود، ولماذا أجوب البلاد، وأكتب رحلاتي، ويكتب الكاتب كتبه، أليست الكتب كالأبناء، محاولة للخلود؟ فملثما ننجب أبناء ليحملوا أسماءنا، فالكتب والقصائد تخلدنا، وتجعلنا على قيد الحياة، ومن هنا تتقد شعلة الطموح بالحياة والقلق في مكابدتهاوتحمل مشاقها.
- لقد نشف مخي، تسافر وتعقد علاقات، وتقبض من الحكام، وتتزوج كثيرا، ثم تقول لي إنك متدين، وفي الوقت نفسه تبحث عن الخلود والوجود، هذا الجنون بعينه، أو أني قد فقدت توزان عقلي، ولم أعد قادراً على استجماع أفكاري.
- دعنا نكمل سيرنا بين الأزمنة، وكما قلت لك، سنترك التأويل لمن سيقرأ.
- كل يوم تكبر أكثر، وتزيد من جرعة المعلومات، ولقد لخصنا الكثير، وأتعبتنا الكتابة، والسير خلف أحداث متشابكة.

- **لدينا مشوار طويل، فربما يعيدونا إلى السجن، فهنا في تدمر هناك أقبية، وسمعت منهم عن سجن كبير تحت الأرض، فيه أناس من عشرات السنين، لكن كله ظلام في ظلام، فلنتخر لنا مكاناً بين هذه الآثار الدارسة، والحضارة العظيمة، نستذكر شيئا من تاريخنا، ونؤمن زاوية جديدة للرؤية، ونكشف الكثير من الحقائق للتاريخ والمستقبل.**
- **سيعاد مجدك يابن بطوطة، فمنذ أن وصلنا إلى القاهرة، وقد التمست حراكاً كبيراً، وجهداً عظيماً، وازدادت حماستي، على الرغم من أني كهل، قد هبطت عزيمتي، ليس كأيام الشباب.**

تباطأت وتيرة الحديث، فكل منهما يزن كلامه، وينظم جمله، فقد احتدمت وتيرة التدوين، واشتدت الأحداث في كل الاتجاهات، ولم يعد مجرّد تتبع لمسائل هامشية في دفتر ذلك الزمن، بل هناك روابط معقدة، يحاول ابن بطوطة تلقينها للطبيب، ويسعى العجوز لفك الرموز، والتحليل، بعدما بدأ يؤمن بوجود شيء مذهل، ينتظره، وبعجالة كبار السن، وفقدان الصبر كالأطفال، يحث الخطى لتسريع الكلام واختصاره، وشهية الفضول في أعلى مستوياتها.

حل وقت الفجر، واستيقظ الجنود للصلاة، والعجوز يفرك صلعته الملساء، بعدما حطّت عليها بعوضة وجدت عرقاً أخضراً فيه دم على طرفها، بينما يجلس ابن بطوطة القرفصاء في الخلاء، يحاول قضاء الحاجة، ويحاول فتح قنينة في أسفلها قليل من الماء، وينظر في أعضاءه التناسلية المنسية.

كان الصاحبان قد انتقلا مع زمرة من القادة إلى صحراء تدمر التي تقع تحت سيطرتهم مع صحاري العراق، وبين الآثار وجد الجميع منزلاً ومقاماً آمنا، فلن تقصفهم الطائرات، فالعالم المتقدم يقدس الآثار والحضارات القديمة، وإذا وصلوا إليهم، سيقولون إنهم مجموعة بسيطة وليسوا من المقاتلين، وتعتمد هذه المجموعة على جلب الاحتياجات من سكان الصحاري وحمص التي دبت بها الحياة بعد تدميرها، ولا ضير أن يتعاونوا مع ثلة من المتنفذين من الحلفاء في دمشق، فيشترون منهم السلاح، والمؤن، وفي المقابل هناك اتفاقات خفية وسرية مع المعسكرات والجيوش التي تنشط في الصحاري، للسيطرة على منابع النفط، والشرق القديم، مهبط الديانات.

استكملا عملهما بعد شروق الشمس، وتناولا الإفطار الذي جلبه لهما بدوي متعاون مع الجماعة، ولكن ابن بطوطة خلد إلى النوم، بعد أن شرب الكثير من اللبن، بينما الرجل العجوز كان قليل الأكل، ولديه استثناء في التدخين المحرم، فأعطى البدوي سيجارة، وتجولا بين الرمال، ودفعه فضوله للسؤال والتقصي عن أهل الراعي، والعشائر التي تسكن المناطق الحدودية، مع إلغاء الحدود التي أقامها أتباع سايكس وبيكو، وأيقن أن البدو الذين قتلوا الضابط «ليشمن» في زمن لورنس وفيليبي، لم يكونوا مجرد بدو عراة، لا يفقهون شيئا، فقد أحسوا بالاعتداء والتهديد أكثر من الذين كانوا من أهل المدن على شاكلته، ولديهم فراسة، ولم تنطلي عليهم حيل المتخفين بزي العرب، وقسموا وخططوا، وطرأ على باله ما حصل لأمير العرب وقومه، وازداد يقينه بأن التاريخ يعيد نفسه، وأن هؤلاء العرب دهاة عندما يعودون لأصلهم، ولكن لا حيلة بيدهم، والشيطان وأعوانه أقوى منهم أحياناً.

وجدا معبداً قديما، وجلسا بين أعمدة صخرية بعضهما مهدم، وبين آثار مهملة على جرف حاد، واتخذا منه مكاناً للسكن، وكما توقعا سيطول المكوث في هذا المكان وتستكمل القصة، وخيم الظلام، فأرادا العودة للتدوين، فطلب ابن بطوطة أن يعودا بالتدوين إلى القاهرة فلديه ما يقوله، وسيكمل ما قصصه ورحلته إلى الشام، ولكن قبل أن يعود الطبيب للتدوين، عادا للنقاش الذي قطعه استيقاظ الجنود والصلاة فجراً.

وكما يدجج الجند بالقنابل والسلاح، كان الطبيب مدجج بالأسئلة الملحة:

- **هل ترى هذا المكان آمناً فلقد سئمت الارتحالات والتنقل؟ وهل سنبقى كل ما تبقى لنا من عمر في حياة بدائية؟**
- **أنا معتاد على الارتحال، وأتوقع أنه مكان مناسب، ومررت بهذه الديار ولم تتغير، ومن هنا مر عطيل وحنا، ووجدا الراقصات.**
- **لاحظت ذلك، فلدينا عمل كثير، وأنا أريد الاستقرار، فما زلنا في البداية، وعلينا إنهاء المخطوطة.**
- **سنحتاج إلى أجزاء كثيرة، فرحلة ثلاثين عاماً لن تكفيها مئات الصفحات، وما زلت في بدايتي وعامي الأول.**
- **سيعود الراعي إلى رشده.**
- **أخاف أن أتلبس بك، فلا تحتمل، وتموت علينا، وينتهي**

أمري.

ضحك العجوز، وبانت أسنانه وأخرج لسانه، تعبيرا عن الهزل، ثم أكمل حديثه وهو يعبث بحفنة رمل، غرس يده فيها.

- **ابنة جبرين هي من اكتشفت الفتى، فهل كانت تتعامل معكم؟**
- **قد تكون مثل المرأة التي عشقها عطيل، وتسببت في نهايته.**
- **هل سيموت قريباً؟**
- **نعم.**
- **ذكرت لي في حديثك مع خروجنا من السجن، أن السلطان أبي عنان وابن جزي وحتى ابن بطوطة سيموتون، فمن سيقتلهم؟**
- **لا تسبق الأحداث، هذا سيحصل عند عودتي إلى المغرب ومن ثم عودة رحلتي إلى إفريقية، والأندلس، قد انكشفت عصبتنا، وتمت تصفيتهم، وخرجت منه قبل موته، وعاد للعمل كقاض في فاس.**
- **وهل قتل السلطان أمر سهل، إلا بقوة، وماذا حصل لابنة جبرين؟.**
- **سنأتي عليهم بعد سرد أحداث ثلاثين عاماً.**

عادا إلى تدوين رحلة مصر، ليكملا الليل فيها، واختصار رحلته فيها، والاعتماد على المسائل المهمة.

امش في الصنادل حتى تمنحك الحكمة أحذية

ابن سينا

القاهرة

سابق ابن بطوطة وصول ضوء الشمس، وغاص في زحام أزقة الفسطساط، ومن ثم خرج إلى بين القصرين ليصل إلى سوق الصيارفة، ليشتري حللاً وخاتماً، ومن ثم مر على حارة التمبكشية وبحث عن الشيخ

السخاوي الذي كانت له معه مكاشفة، وأخبره بالأمارات التي ستغير حياته، ليعرف منه المزيد من الكرامات، ولم يجده في شارع الجمالية، ليصل إلى سويقة المغاربة، وزقاق القناديل، فهناك يسكن المغاربة القاطنون في مصر، من تجار العبيد الذين ينقلون العبيد عبر البحر، ويجلبون العبيد الزنوج من جنوب الصحراء، ويجد من يسافر إلى طنجة، ليرسل أشواقه، وقميصا له به رائحته لأمه المتفطر قلبها عليه، وسرواله الذي احتلم فيه كثيرا خلال الشهرين الماضيين لابنة جبرين، وقبل أن تشتعل الشمس، غرق في زحام الناس، بين الحوانيت المصطفة، ما بين باب الفتوح وباب القنطرة، واشترى من أسواق القماش حريرا صينيا، وخزفا ومسكا، وتمكن بصعوبة من أن يكتري حمالا ليقوى على حمل أثياب دمياطية ملونة، وخيشا من باعة الفيوم، وقد خارت قواه والتصق نعله برجليه من قسوة الأحجار التي تبلط الأسواق، واختنق من شدة الحر في الأزقة المغطاة بالسقائف، وقصد سوق العطارين ليشتري أعشابا مخلوطة بشيء من بيض حيتان البحر، وقد أوصاه بها مهنا بن عيسى أمير العرب، ولم يكن يعلم أنه عندما يعود إلى مضارب قومه، سيرتحلون إلى أعماق الصحراء، ولم يكن يعرف أن الأمير والناصر لم يتفقا، واختلفا، وخلافهما يعزز مكانته، وحاجة المماليك للعرب والبربر تزداد مع تزايد الصراع ضد إلخانات المغول، وأبناء عمومتهم الترك، وحكام العراق، والروم المتربصين من أمثال ميخائيل الثامن في القسطنطينية والأرمن المتحالفين معه، وكبير النصارى أبو الآباء والبطرك الذي يخرج التجار الجنويين والبندقانيين الذين يرفعون راية ما يسمونهم «السازان» أي المسلمين العرب، ولا يعتدون بإسلام المماليك بل يعتبرونهم من أتباع الصليب وأجبروا على التأسلم، ولا يحبذ عقد الاتفاقيات معهم، لكي يردهم عن ضلالتهم حسب ما يرى، ولا تقوم دولتهم، فيعتبر أن غضب الرب على أتباعه قد حل، فجعل من نسلهم من يحاربون الصليب، ويخطفون أطفالهم، ويجعلوهم مسلمين، ولا بد من إعادتهم.

وبعد أيام قليلة، سيسافر ابن بطوطة، ليكتشف أن العرب مختلفون مع المماليك، وبعضهم تحالف مع المغول، وأن السفر إلى حلب لا طائل منه، وسجن ابن تيمية هو انقلاب، وغدر به، بعدما تحالف مع الدولة، وساعدها في دحر سيول المغول، وإيقاف جحالفهم، وهذا ما جعل إمارة العرب تترك أماكنها، وتتمرد على السلطان وملكه، وترمي وراءها البساتين والأراضي، والقرى التي منحها لكبارهم، ومن جلبهم بيبرس المظفر معه لنصرة الدين من قلب الجزيرة، ومن اشتغل عليهم الولاة والأمراء، فهم لا يريدون خلع عباءة البداوة، وترك الخيام، ليعيشوا في بيوت الطين، والمدن الضيقة، ويتحولوا إلى الحاضرة، ولو كانت أكثر رغدا، وقد زودت الأميرة عصمة الدين ابن بطوطة برسالة منها للملك الناصر، بعدما أدخلته إلى دار المخطوطات

في قلب زاوية بيبرس المغلقة، وشاهد بأم عينه الكثير من المخطوطات والكتب النفيسة تخزن في أروقة منظمة، وتسجل لها أرقام، وتدون في صحيفة يشرف عليها وراقون، توارثوا المهنة والأمانة من عصر عمرو بن العاص، وهم مسجونون تحت الأرض هم وعائلاتهم، ليس لديهم مهمة إلا التدوين، والنسخ، ومراجعة المخطوطات التي توزع ما بين دمشق ومصر، وقد نقلت أكثرها، وتم انتزاعها من مكتبات بغداد ومن بين يدي هولاكو، بعمليات سرية، شارك فيها العرب من أهل ابنة جبرين، ومن أقوام تابعين للأمير حسام الدين مهنا بن عيسى.

واطلع ابن بطوطة برسالة محفوظة، ومنها أدرك أسباب الخلاف.

«سجنت الشيخ التقي، وصدقت مكائد مشايخك، وسترد الدولة إلى مهلكها، كما هلكت الدول، فما بالك بالدويلات، وإن كنود الممالك، يورد المهالك، ويفسد المسالك، والرعية، وإنني لأبرأ أن أقود من تبعني من أرض أجدادنا التي ورثناها من قبل إبراهيم عليه السلام، وابنه إسماعيل، فالتابعون لي من طي وآل فضل وزبيد ومدحج وكهلان وهذيل وبني كلاب قد تحالفوا معي تحت راية الحق، وقد نتقت أرواحنا بالجور والعوز، وانتصرنا لمن طلب نجدتنا، وتخلينا عن نزعة الأعراب، فرضينا بحكم مماليك بني العباس والمعز، وآثرنا السلامة، ونزعنا رداء الزعامة، على أن نترك في حمانا، وفي بوادينا، لا أن نوضع في ديار ومدن كالسجون، ولا نرمى بممالك ليست لنا، فنحن كالذئاب، لا نأكل إلا من صيدنا، ولا نسكن إلا في البر، ولا نشرب إلا حليب إبلنا، وأغنامنا.

جئنا إليك نطلب فك القيد، والحيد عن الغي، فإن سمعت لنا، عدنا إلى حلفنا معك، وإن تجاهلت كتابنا، جهلنا عليك بما عهدته منا، وإني عائد لقومي، وسائر بهم إلى كتف الفرات، حيث جعبر، فلا أطلب منك الأمان، ولكن أشحذ فيك همتك على نصرة الإسلام، ولا أعايرك بأصل، وقلة وفاء، وضياع حسب ونسب، ولكن حذاري من الغدر بنا، فإن لي قوما، وتابعون يأكلون الحصى، وصوت خيولهم كهزيم الرعد، وأنا في حل من البيعة التي في رقبتي، ولن أعلن العصيان، حتى لا تهلك البلاد ولا العباد، بينك وبين الترك والمغول، فإن كنت باخعا ولكن بثوب قشيب فإن نزرا من ضروب العرب، سيسقط ملكك، ويقضي على نسلك، فاسلم تسلم».

لم يستطع ابن بطوطة الوصول إلى حقيقة مرسل الرسالة، لكنه ترك الأمير مهنا ضاحكا، مع الأمير قوصون، الذي يشرف على استضافته وإكرامه، ولم تكن الرسالة مدموغة بختمه، ولم ينشغل بها كثيرا، فسيعرف لاحقا قدرات العرب، وكيف أنهم أدركوا أن الحكم والحقب ليست لهم، ولكنهم مدركون أنهم ليسوا أبناء الأمم وحدهم، ورغماً عنهم أسهم الترك والعجم في حضارة الشرق، وهم أسياد الصحراء، وقد تقاسم السلاطين والأمراء الحظ وأخذ أهل فارس وخراسان رعاية العلم، والاهتمام بالعلماء، ومعهم الأندلس التي خرجت كالقمر من جوف الأرض، لتنير ظلمات ما حولها من ممالك تغرق في براثن الجهل والتشتت.

رسائل عطيل، ووالده وسلطان الدولة المرينية، وكتب الكثير من العلماء، كانت تحفظ بطريقة عجيبة، وعليها حرس، لا هم لهم إلا هي، لا يخرجون إلى النور، مقطوعة ألسنتهم، لكي لا ينشغلوا بالحديث مع الآخرين، ولا يعرفون القراءة والكتابة، ولكي لا يعرفوا شيئا عن أي شيء.

وجدت عينا ابن بطوطة ما لم يستطع عقله تحمله، فقد قرأ الكثير من تقارير الولاة وأخبار العسس والبصاصين في كل مكان، وتابع تدوين المعلومات، والأسرار، وما تحويه خزائن الدول في المغرب والمشرق، وحتى في بلاد لا تخضع للسلطان، وآلاف الاتفاقيات بين العرب والمماليك والبربر مع القرم والأرمن والمغول، وحكام الممالك الصغيرة والكبيرة في الهند والصين وفي الغرب ما بعد بحر الروم، واندهش من تحليلات وتدوينات العلماء المخفية عن العامة، وعن طالبي العلم، ولم يستطع استيعاب الأبعاد الرامية لإخفائها في مصر، ولماذا الوراقون المشرفون عليها هم عرب أقحاح، محروسون بجنود لا يقرأون ولا يتحدثون.

خشي من سخائم الحرس أو ممن يتربص به، وقد أوهمته الأميرة أنه داخل إلى هذه الأقبية خلسة، فهاضت عليه مواجده، وعزت عليه نفسه أن يقع فريسة لمكائد قد تودي بحياته مبكراً، وعليه الحيطة والحذر، ووأد ما رأى خلف ترائب صدره، في مكان منيف، فزمّل نفسه، وغرق في مكامعة روحه الجسورة، بعدما جاس كثيرا في أحوال مصر، وفي زحمة ناسها، ومشاكلها اللا منتهية.

لم يكن ابن بطوطة جعسوسا في عمله، ولا خندوفا في تعامله مع الناس، وهذا ما سهل فتح الأبواب، ولم يكن جلفاً، أو متصلبا، بل مرنا يكاد أن يذوب، ويتلاشى، وعاطفته جياشة كأنها شراب ممجوج.

أخلص وأعطى الكثير في مدة وجيزة، حتى أنجز ما عليه، ولم يقصر أهل المشورة، والحلفاء الخفيون غير المعروفين حتى له، في خدمته من بعيد ومن قريب، وحموه من محاولات غدر لم تصل إليه، عندما منعوا عنه النساء، ومنعوه وحذروه من نساء مصر الأصيلات، أو من الجواري ولم يستطع أن يشتري له جارية، وحتى عبده الذي جاء به من بيت زوجته فقده، لأنهم خافوا أن يصل الآخرون إليه، أو يكون درب مفسدة.

وصل إليه خبر من المغاربة الواصلين من طنجة أن أهله سيلحقون به في الحج، وأنهم سيمرون ليطمئنوا على زوجته، ومولوده، وقال في قلبه:

«ليتني أخبرتهم بابني الذي يعيش سراً، مسجونا بين أربعة جدران، بجوارهم في طنجة»

وهو لا يعلم أن والده يعلم عن حفيده، ولكن قوة صبره، تمنحه القدرة على إخفاء الخبر، والصبر على الحفيد البكر، وحتى على إخبار زوجته.

يعد ابن بطوطة نفسه بأن يترك له في كل مدينة يزورها موطئا من بنات حواء، ليعقد علاقة مع تراب تلك الأراضي، ليتآلف معه، ويتقبله، ويؤمن مصالحه، ويقف أنسابه معه، وهو لوحده، ليس معه إلا توصيات من أمير إلى أمير، ومن قضاة وصوفيين إلى أمثالهم.

في الليالي المتبقية له، اعتاد أن يتمشى باحثا بين المجاذيب وعن السخاوي، وغيره من أهل البركات، ليكشفوا له، ويعرف منهم ما ليس يعرفه غيرهم، وامتثل لإلحاح روحه، بالتبرك بهم، وغسل وجدانه، ويدمق قلبه ويعجنه بسجايا وزلال المحبة العميقة، والتجلي الروحاني.

كان يخرج باحثاً عن نفسه التي قال له قرينه إنها تفتقده، وعن مهجته التي فقدها، وعن ذاته التي سيبقى كل العمر لا يجدها لا في نسائه، ولا أمواله المبددة بحثا عن كل هذه الأشياء، ولا عن أولاده المنسيين في البلدان، ولهم من يؤويهم، ويؤمن لهم حياتهم، ولكن من يؤمن له ما يريده، وماذا يريد أصلاً؟!

لاحقته الغرائب، التي فتح الباب لها، مذ صدّق ما يقوله له الصوفيون، وامتد الأمر بحصول الكثير من العجائب أمامه، فقد رأى الشيخ الدرويش الذي كان يلاحقه في تونس وطرابلس، وتأكد من العجوز التي كانت مشوهة بالوشوم، تحت أسوار طنجة، ولم يستغرب، حتى أنه عندما شاهدهم، لم يندهش، أو يهرول إليهم، بل لم يلق لهم بالاً، ويبدو أنه عرف أنهم يطيرون حوله،

وسيرافقونه في ارتحالاته، لكن أن يرى تلك الفتاة المسيحية التي أسلمت تباع في أسواق القاهرة، فقد تذكرها، عندما جاءت إلى دار القضاء، وشاهد من يبيعها، فهو قائد الجند، وآمر سجن القلعة، فعرف أنه تاجر ونخاس شرس، يسيطر هو وعصابة له على ميناء سبتة، وعلى طريق التجارة مع عصابات من العرب والجنويين، والمماليك والأرمن، ولهم يد طائلة، فأسرع إلى حيث يخفي صرة الدنانير، ليساوم التاجر الذي لم يتذكره، وهو لم يعرف بنفسه، حتى لا يشمئز منه، ويرفض بيع المرأة له.

لاحقها وهي تجر قيود الحديد حول رجليها، بين الأسوار المثلمة، وآفاق القاهرة والفسطاط المغبرة، وسط بيوت الطوب الداكن، والمعمرة بالقصب والنخيل والتراب الأسود، وكأنه يغازلها، وانكب يحادثها، ليتأكد مما توقعه بأن زوجها الذي غصبه والده، وحكم عليه بالزواج منها، قد غدر بها، وباعها لهذا النخاس، وتحايلا على قاضي طنجة للحصول على صك زواج، يجعلهما ينقلانها هي وابنها، بلا صك عبودية، لأن الأحكام والأعراف تمنع بيع المسلمات.

فاشترى لها قصب السكر والسفرجل وقرعا تروي به عطشها، وساوم التاجر على أن يبيعها له، لكنه كان مترددا، ويبدو أنه يعمل مع شركاء للتجارة بأجساد النساء، والزبائن يرمون عليهم دراهم من فضة أو نحاس، أو ما يقابلها من بضائع، حتى أن الكثيرين يسرقون حلي نسائهم، وخزف بيوتهم، وأقوات أولادهم للتمتع بالنساء الرائج سوقهن، والجلوس في حانات السكر، والسهر والطرب مع المغنيات والراقصات وأوتار الآلات.

- لا تقلقي، سأشتريك وأحررك.

- أنا يائسة وبائسة، ولولا حرمة قتل النفس، لخنقت نفسي بهذا الحبل.

قاطعهما التاجر:

- يا أخ العرب، أنت شاب متقد، أتريد ضرب موعد مع المرأة، لدينا هنا بيوت، وفراش ترقدان فيه بأمان.

لم يرد ابن بطوطة عليه، بل إنه بمروءة ليست مستغربة عليه، سيضحي بمال الرحلة، لكي ينقذ حرة، تم أسرها، وبيعها مرات، وهذه المرة أوجع، وأكثر مرارة، لأنها أسلمت، ومعها ولدها، ومن باعهما الأب الزوج النذل الجبان، والدنيء.

-

- سأدفع لك ثمنها.
- ليست للبيع، هي للتأجير، وأريد بها الوصول إلى طريق الحج، حيث يصل الكثير من العرب، أما هنا فالمماليك مكتفون، ولديهم الجواري ذوات الحسن الطاغي.
- ستبيعها.
- لماذا أنت مصر عليها، صدقني إن الرجل سرعان ما يمل من المرأة، فاحفظ مالك.
- سأدفع لك دنانير ذهباً.
- هنا توقف التاجر، ونزل عن راحلته، واشترط أن يبيعها بدون ولدها، فتألم ابن بطوطة أكثر، حتى أن دمعته نتقت من عينه، ومسحها بكمه.
- ألا تخاف الله؟
- وما دخل الرب في الأمر؟
- أستغفر اللّه...

تماسك، وتمالك غضبه وانفعاله، وسحب الكلام من أطراف لسانه، فقد كاد يسأله، ألم تكن مسالماً في طنجة؟

بقي ابن بطوطة يمشي وراء النخاس، وموكبه الذي يشبه موكب الأمراء، ويحرسه جند، وله أتباع كثر، وعلاقات منسوجة في أروقة القصور، تنافس علاقات الحكام وولاة الأمصار والجيوش.

فهناك مجتمع آخر يتحرك بقوة وجشع، يتاجر في الرقيق، ويستغل أركان الدولة هذه التجارة، فيطلبون آلاف العبيد، ويخضعونهم لتدريبات مكثفة، وتعاليم مهمة،ويتحولون إلى جند مخلصين، شغلهم الشاغل حماية الدولة والسلطان، وأسيادهم الأمراء، وليخف الاعتماد على العرب، كي لا يعود حكمهم، ولا يقوم مجد إلا مجد العبيد المسلمين.

اشترى ابن بطوطة المرأة، وأودعها في قصر قوصون، لتكون من ضمن نساء الأميرة «عصمة الدين» التي استغرب اسمها ولقبها، ووجد أن الأكثرية يحملون ألقابا تتعلق بالدين، ولم يعد يثق حتى في نفسه، وانزوى كعصفور فقد عشه، يضم ركبتيه وساقيه الرفيعتين إلى صدره، مغمضا عينيه، ودس رأسه بينهما، كأنه أقوص، وهو يندب حظه الذي جعله بهذه الحال الصعبة، ويشهد مواقفاً صعبةً، وقاتلة كل يوم، فلم يستطع حماية ولدها، وتم فصله

مع كثير من الأطفال الذين جلبهم تاجر جنوي يدعى «سيغوار سالفايتسي» ذائع الصيت في معارض العبيد بساحات الإسكندرية ودمشق، والخليل والقاهرة.

أهل المدينة الكبيرة يجتمعون على أي شي، فهي أم الدنيا كما يسمونها، لما تحويه من مئات الأجناس، وما بها من حركة تجارة، وتحولها لمركز بين الشرق والغرب، وتحول عاصمة الخلافة والدولة إليها، بعيدا عن تهديدات حاملي الصليب، والمغول، ولوجود الحجاز في كنفها، والقدس بجانبها، فقد نجح الأيوبيون، ومن ثم مماليك البحرية، والحكام في الانتقال إلى مصر التي تستوعب خلافة الدولة، وقد أحسوا أن الأمويين كانوا يبحثون عن الرغد، بالخروج من صلافة الحجاز إلى أجواء الشام، والعباسيون كانوا متأثرين بالفرس، وبنوا بغداد وكلتاهما على تماس مع الأنداد من الدول المحيطة، وعلى تخوم حضارات وأقوام للدين معهم عداوة، بينما مصر «المحروسة» بالبحرين، وفي قلب بلاد العرب.

هذه المرة كان التجمع والقافلة لا مثيل لهما، فهناك البهائم التي تجر عربات كبيرة، وأحصنة غريبة الشكل، ليست كخيول العرب، وإبل صفراء وبيضاء، يجرها عبيد سود، وقرابة ألف طفل، بثياب ممزقة، وأوجه لم يزرها الماء منذ أيام، وطبقات الأوساخ تغطي بياض بشراتهم الناصع، فينعكس نور الشمس الذهبي، فيتحولون إلى كرات حمراء، تكاد ترى عروقهم، وأعضاؤهم من بياضهم، وعيونهم تتلألأ من شدة البريق.

أجلسهم أتباع سيغوار على ركبهم، استعداداً لفحصهم، فقد جمعهم من الأقاصي، ولم يمروا بهم من قيليقية أو بر حلب، بل عبر بهم بحر الروم، رافعين راية الإسلام، هم ومجموعة من التجار المسيحيين، وتحت وصاية البندقية، وجنوة، مقابل مليون دوك ذهبي، ومثلها ثمن هؤلاء العبيد، وقد أخذوا مقابل كل طفل وعبد ما يساوي ثمنه، وفي خزينة الدولة ذهب جاشنكير، الذي تمت مصادرته، وذهب لجيب عائلة سيغوار، وأتباعه، من تجار مسلمين كجلال القرمي، وسعد بن علي.

واستقبل الأمراء، القافلة بموكب مجلجل، وتجمهر كل من القاهرة، على دق الطبول، وضرب الدفوف، ومسيرات الفرسان، تهليلا وترحيبا بالمماليك الجدد، الذين سيتم إعدادهم لغزو بلادهم، ومحاربة المغول، والدفاع عن دولة المماليك.

وصلت القافلة لكن صاحبها لم يأت معها، فقد غاب عامين يجمع العبيد، ويشتري من عصابات الخاطفين، وجامعي الضرائب، الأولاد والفتيات، وتم اغتياله على أيدي خفية، اتهم السلطان فيها المغول لكي يقطعوا الإمدادات البشرية عنه.

جمع التجار قناطر الذهب، وأكياس الدراهم، وساقوا الحمير والبقر، وحمّلوا بضائع القرنفل والصندل والأحجار الكريمة المجلوبة من سرنديب، والزعفران الفارسي، ليأخذوها معهم ويبيعوها في أسواق أوروبا، ولم يعتمدوا على السفاتج في وصول أموالهم، فهم يسلمون ويستلمون، ويستغلون ندرة ما يجلبون، والطلب المتزايد عليه بقوة الموقف، واستلام النقد، والبضائع على مرأى الرعية والحكام.

الألم الكبير من هذه المناظر جعل ابن بطوطة يعتزل الناس قليلا، ويلجأ إلى الزاوية، يراقب ابتهالات الصوفيين الغارقين في الزهد، والطمأنينة، والتأمل،ليجحد كل ما في الدنيا، ويجدد حبه لله، ويطرد شياطين الأفكار، ويجلس مع روحه، وهو يتعبد في محراب الصمت، يبحث عن الفضيلة المفقودة.

واجه مصيره، وجمع قواه، وعاهد حلمه بالإياب، فمن شرب من النيل، يصيبه السحر، والتعلق، ولا بد أن يعود، حتى وإن لم يزرع له بذرة في تراب جسد امرأة من مصر.

التيه والخلود

البعض ترفعه الخطيئة والبعض تسقطه الفضيلة

ابن المقفع

بلاد الشام

خرج ابن بطوطة إلى صعيد مصر، يقصد الشيخ القسطلاني لينال من بركته، وإلى العرب من دغيم ليصل إلى بحيرة، ويزور قبر الشيخ الشاذلي، ولم تعرف نيته، وجوهر غايته، فعاد إلى القاهرة عبر النيل، فقد مال مع الماء، حتى وصل وجهته، ليبيت يوماً، ويوصل ما لديه من أخبار، ويودع بعض العرب القادمين معه خاناً قريباً، ويوصي عليهم بعض الرجال السريين، ليعرفوا منهم ما يحصل بين ملك البجاة والترك في طريق الحج، ويعالجون الثغرات التي في الجنوب، ويتدبرون أمورهم، ومن ثم يعيدوهم إلى ديارهم فهم لا يستيطعون صبراً عن جمالهم، وحليب الإبل، ولا يقوى الرجل منهم على المبيت في المدن، بل ينامون فوق سطوح البيوت، ويتلحفون السماء.

ومن بعد تلك الليلة، جهز ما يمكن تجهيزه مع مجموهة من القاصدين منطقة الرمال، ومدينة غزة، فارتحل معهم، حتى وصل إلى بلبيس، ولم يطل مقامه بها، بل توجه إلى السوادة والورادة ثم المطيلب وصولا إلى العريش، وبحث عن منزل في قطيا، فاهتدى إلى خان فيه مكان للمسافرين ودوابهم، ولم يتردد في المكوث به، فهو الحد الفاصل بين الشام وبلاد مصر، فرجال الدولة ينتشرون، ولا يسمحون لأحد يمر بدون تفتيش الأمتعة، ويجبرونهم على المرور على الديوان والكتّاب والشهود، لتقييد ما لديهم، وأخذ الخراج ورسم المرور من الشام ومصر وإليها، ولا يسمح لغير رعايا صاحب الملك، وحامي الحمى، وباسط العدل، وطارد العدا، الناصر محمد بن قلاوون بالعبور من طريق الرمال ببراءة إلى الشام، أو من الشام ببراءة إلى مصر، احتياطاً على أموال الناس، وحرصاً على ألا يكون بين المارين جواسيس للروم، أو سلطان العراق التابع للمغول، ويخرج من كل قافلة، رجل من الشهود، وآخر من الجند، يتأكدان من مسح الرمال، حتى لا يقتفي الأثر جاسوس، وعين لعدو، وقطاع الطرق من العرب الذين يعرفون الأثر ويتبعونه، ولهم دراية لا مثيل لها في تقصي الدروب، فإن طلع النهار وبقيت آثار، فإن الناس تترحم على من مر، وتعده من الموتى.

عاد ابن بطوطة لاستكمال السير المقدس، وهو المرور على كل المدن التي اتفق الملوك على أن تبقى تحت حماية المماليك، شريطة أن يبذلوا الغالي والنفيس، ويمدوهم بالأموال، والمحاصيل، ويبقى عليهم جلب الرجال من مناطق ولادة، فيها الكثير من البشر، ويقوون عضد البلاد، بالرجال الأقوياء، فلا تترك الدولة والمقدسات للعرب وحدهم، وهم منشغلون بالأراضي والحروب، والتنافس فيما بينهم، وليس للعجم الصبورين الصناع، ومحبي العلم.

لم يطل مقام الرسول في غزة، ومن ثم إلى الخليل، وتربة لوط، والقدس، وعسقلان، وعكا، وعجلون، وطبرية وصيدا، فهذه المدن فيها قضاة أمثال النابلسي وشهاب الطبري والشملاني، ورجال على علم ونسق واحد، متفقون في الإقدام لاستكمال ما بدأ به صلاح الدين، وبيبرس البندقداري، ويحمون أمجاد الأسلاف، ومدن الأنبياء، والأولياء الصالحين، وشهداء الدين.

في محطات العمل المقدس، لم يحرم ابن بطوطة نفسه، من التعبد في الزوايا، والمرور على قبور النبي إبراهيم في الخليل، ولا على النخلة التي ولد أسفلها عيسى ابن مريم في بيت لحم، ولا قبر أمه، وقبور بقية الأنبياء، حتى وصل إلى طبرية فتوقف عند قبر النبي سليمان، وبعده شعيب، ومن ثم يهوذا، وبحث عن الجب الذي ألقي فيه النبي يوسف، يشده الفضول لمعرفة عمقه، وقداسته.

ومن ثم استكمل السير إلى مدينة بيروت الصغيرة، وتوقف عند زاوية أبي يعقوب المغربي والديار التي منحها له صلاح الدين، عند تحرير البلاد من الإفرنجة، واستقر في طرابلس القديمة،عماد بلاد الشام، وقاعدتها العتيقة، فاستضافه الأمير طيلان التركي، الذي يستضيف الكثير من الأمراء والعساكر، وتضرب لمجده كل مساء الطبلخانة، وهو يجوب المدينة مع العلماء الصالحين المنذرين للتنقيب في أمهات الكتب، والتبحر في علوم الدنيا والدين، فمن هذه المدينة خرج كاتب السر في دمشق، ووكيل بيت مال المسلمين قوام الدين بن مكين، والعتريس أحد أمراء الملك الناصر، وفيها الزاوية الإبراهيمية معقل المتصوفين الترك.

في كنف طيلان استطاع إيصال ما في جعبته، والتزود بالكثير من الأمور، وخصوصا ما يتعلق بما يوجد في بيت المال من ذهب ونحاس، ومعدن، ونقد، وبقي أن يرتحل إلى حمص، وحماة، لوحده كي لا يثير حفيظة الإسماعيليين، الذين انفك اتفاقهم مع أمير العرب، وقد وصلت أخبار بأنهم يعدون العدة لغيلة الأمراء، ويستهدفون الملك الناصر بذاته، لذلك قد أرجأ زيارته لدمشق،

كما أن سلطان العراق يمهد لتجهيز جيش من العرب والعجم، تحت راية الإلخانات، لكسر شوكة الدولة، وضم أراض من حلب وقطم السخنة وتدمر، وحتى لا تتكرر هزيمة المماليك في معركة الخزندار وسلمية، ولكي لا تكثر الانشقاقات لضعف النفوس، والخوف من المغول كما حصل مع قبجق المنصوري.

على الموعد المتفق عليه سلفاً مع الأصدقاء القدامى، وصل إلى حمص، فتجول بين بساتينها، وأسواقها الفسيحة، قاصدا حي العرب، حيث يقيم عدد من الأمراء، ومنهم أدرك أن هناك تغييرات حصلت جعلت أمير العرب يفاوض الملك الناصر، ويصل الأمر إلى شقاق بين الأصدقاء، فالعلاقة لم تكن علاقة تابع بملك، بل إن الملك الناصر يحفظ للأعراب الكثير من الود والجميل في الوقوف إلى جانب الدولة، ويعرف جيدا ما بذلوه من دماء في الذود عن حدود الدولة، وتحملوا مكائد الآخرين من الأمراء الصوفيين، والأيراوتية، وقد حملتهم نزعة العرب، والأنفة والكبرياء، فسيرحلون إلى العراق، ويتحصنون بالبراري الواسعة على كتف الفرات في الرحبة وعانة، بعدما عرفوا أن الناصر أمر بسلب تدمر منهم، وهي التي منحهم إياها قطز مكافأة لهم على الصنيع الحميد، والتاريخ المجيد في جالوت.

لم يجد أحداً يعرفه، ونصحه أهل المكان بعدم المكوث طويلا في حمص أو حماة، فهناك من يتربص، ويحدث الفتن، ويوجد من يكنون العداء للمسلمين وأهل المذاهب الأربعة، لدرجة التحقير والبغض، والحقد المتين.

ووصله سراً وهو في دار القضاء، أن يرحل باتجاه حلب، وتحديدا إلى أميرها أرغون الدوادار، أكبر أمراء الناصر، وأقواهم، ليجتمع مع قضاة المذاهب الأربعة، ويعرف منهم أحوال العباد، والحدود، مع مملكة قلقيلية.

سبقه إلى حلب الأقوش بريديّ الملك الناصر، فوصل إليها في خمس أيام، لما عنده من الإسراع والجد في السير، ولا يتوقف إلا لقضاء حاجة، ناقلا أمر الملك، بأن يتم القبض على قراسنقور المشترك في قتل أخ الملك، وثمانمائة مملوك معه، ووصل الخبر أن مهنا بن عيسى كان في مصر في وساطة طلبها منه مماليك حلب، فهم أكثر العارفين بمنزلة أمير العرب لدى الملك، ويعرف قراسنقور أي أمير قد يطلب جيرته لو استدعى الأمر، وأقسم له بأن يحفظ العهد، وينصاع.

وعندها تسرب الخبر إلى الأمير المطلوب، فخرج مع عساكره، قاصداً مهنا بن عيسى، فلم يجده قد وصل، فنزل عن فرسه، ورمى عمامته على البيت،

ونادى:

- **الجوار يا أمير العرب.**

وقد كان مماليك حلب والشام يختلفون عن مماليك مصر، فهم مختلطون مع الأعراب، ويعرفون العادات، ويتقنون اللهجات، ولم يكتفوا باللغة العربية، ويختلطون مع العامة في كل مكان.

لم يكن الأمير في داره، فردت زوجته أم الفضل وهي لا تعرف من يكون، متمسكة بعادات العرب ونواميسهم.

- **أجرناك وأجرنا من معك.**

ولم تعرف أن المئات معه، وعندما خرجت من منزلها، شاهدت الأعداد، فأبت أن ترجع عن كلامها، وقد اختنقت الساحة وفناء المنزل، بالقادمين، وتلاشت الرؤية من غبار الخيول.

- **إنما أطلب أولادي ومالي.**

فقالت له:

- **لك ما تحب، فانزل بجوارنا.**

وعندما وصل الأمير مهنا، رفع رأسه وسط قومه متفاخراً بصنيع زوجته وابنة عمه، حتى ظن الناس أنه رأى طيرا أو شيئا في كبد السماء، وقال:

- **والله هذه صنائع الملوك، من بنات العرب.**

وأكرم منزل قرانسقور، وحتى وإن كان قاتل الملوك، ممن تحالف معهم، فلا رجعة عمن يجير العرب، ولا يقتل أو يسلم مستجير.

وكتب الشهود عنه، في وثيقة على كاغد محفوظ:

«كان الأمير حسام الدين مهنا طويل النجاد، كثير الرماد، عزيز العتاد، ينخرط في سلوك الملوك، وتقصّر الشمس عن بلوغ مجده إذا كانت في الدّلوك، يتطفل الملوك على وفادته، ويرون

سعادتهم دون سعادته، يبالغون في إنعاماته، ويزيدون فيما يجرونه في إقطاعاته».

وبعد ذلك ساءت الأحوال، وانعمت عين العلاقة الوثيقة، من بعد ما كان يغطيها الرمد، وحاول العرب ثني الأمير عن سعيه، وقالوا له كيف لك أن تجير عدو الملك، ونحن في أرض الشام، فرد عليهم أنه يخشى أن تثلمه العرب، وتقول إنه نسي وباع حسبه، ونفسه، وأخلاقه، فاقتنعوا ووفد إليه خمسة وعشرون ألف رجل، وساروا إلى حلب، وانتزعوا مال الأمير، ورافقوه إلى سلطان العراق محمد خدانبده في قراباغ، بين السلطانية وتبريز، حيث مصيفه، هربا من لهيب القيض.

وعندما بلغ صنيع مهنا مسامع الملك الناصر، لم يحرك ساكنا، وكظم غيضه، وادعى أنه عفها عن الأمير العربي، وعن الأمير المخلوع، وطلب من الأقوش أن يعود أدراجه إلى الشام، ويطلب من الفداوية الإسماعلية أن يسنوا خناجرهم، ويدمغوها بالسم، وأعطاهم أمان الملك، بأن يعودوا إلى صنعتهم، وكل عدو مدون اسمه في الرقاع المبعوث، ستصلهم ديته، وأجرتهم، فيزرعون الخنجر المسموم بجانب جثته، ومعه الدية.

أقم القيامة على نفسك كل يوم

الجيلاني

دمشق

التاسع من رمضان 726هـ

عرفت دمشق قبل أن يعرفني الغرام، وقبل أن يبلغ الصبي بداخلي، وصرت بها صباً مستهاماً، من حكايا المسافرين المغاربة القادمين منها وقد طاب بهم المقام، مروراً بروايات ابنة جبرين وبقية الأعراب، والكثير من القصص، فقد غمسوا قلبي في أرضها، وزرعوني بها، ولكل ما ينسب أو ينتمي لها، وبت يا جلق عنك وفيك يحاربني المنام.

ما إن وصلت من بعبلك أحمل الإحرام القطني، وهي المشهورة بمنسوجات القطن، كما هو الحال في فيّوم مصر، وما معي إلا زادي، حتى دخلت الزبداني، هذه البلدة المرتفعة، الباردة في عز القيظ، وماؤها الرقراق الزلال، ويحمل رجلي الشوق، فأحسست أني دخلت إلى جنة منيفة، وبلغت العلياء، كأنها عروس بالغة التزيين، في المكان والمكين.

تركت ونسيت كل ما مر علي من حوادث، وأهوال، وتجليت في المناجاة، أحمل أزكى الأشواق، وقرت عيني بالسير وحيدا، أنشد الخلود في شوارعها، حتى نزلت الشرابشية المالكية، وطفت في قاسيون، والربوة حيث أوى المسيح عليه السلام وأمه إلى ربوة فيها ذات قرار ومعين.

عند العصر لم أتمالك نفسي، فطفت في دروبها، وأزقتها، أنشد جامعها الأموي، لأصلي فيه، وأشهد عمرانه المهيب، ولا أعلم كيف سأصل إلى أصحاب والدي القدامى، وأصحاب رحلتي القادمة، مسعود بن جابر، وكما نناديه في المغرب «عطيل» وأبو عبدالله حنّا المقدسي، ومحمد الشامي، وما زلت أذكر ملامحهم رغم مرور كل هذه السنوات، ملامح عربية بارزة وقاسية، وبريق أعينهم كأنه نور يشق بطون السحاب في كبد السماء، تراهم مترفين بألبسة فاخرة، وبعقول نيرة، لكنهم يملكون الكثير من العلم والأفكار والأحلام.

أتراني أتقابل معهم، وألتقي بزوج ابنة جبرين السابق، وزوجتي السابقة التي تطلقت منه دون أن يعلم، ورما هو لا يعرف أنني تزوجتها سراً، ولم يعلم أحد بزيجتي، على عكس المرأة التي تزوجت وطلقتها، والزوجة التي على ذمتي لغاية الآن، وبعد الغياب الطويل، ربما تتطلق مني، بالسبب ذاته الذي تطلقت منه، وهو الهجر لأكثر من ستة أشهر، ولكن فراقي يختلف، وربما لا عودة له، وإن كانت تحبه حباً جماً، يفوق حب الولد، والبلد، وهو يحبها كحب الرهبان، ولكنه ابتعد مكرهاً أو بطلاً.

سأجير جلّ وقتي للتعلم من المناهل الكثيرة، والمشارب العديدة، من علماء ومدارس وزوايا، وأناس متعددي الأفكار والطوائف والديانات والأعراق، فكما هي الفسطاط والقاهرة، فالوجوه تختلف، وتزدحم الأكتاف بالأكتاف، لا أحد يسلم على أحد، ولا يلقي المارون بالاً لما حولهم، كأن الكل سائر في الزحام، وحيدا في هذا العالم، فالجند والعسس، والتجار والباعة، والمارة والدراويش، والنساء والأطفال، تغص بهم الأزقة، وتنفجر الدروب فتنثرهم في كل جادة، وسويقة، ويتحدر الرجال من الأماكن العالية، والبساتين الباهية، يجتمعون في هذه المدينة شبه المقدسة، فهي شامخة كأنثى فائقة الحسن لا الدلال، متعبة وغالية.

أمر على كثيرين، بوجوه سوداء، وأخرى بيضاء كزبد البحر، وآخرين وجوههم حمراء مشوية، فشمس دمشق قريبة من الرؤوس، كأنها تهبط من شوقها لأرضها الرابية، على غير المدن التي مررت بها.

هنالك طوائف متعددة فقد قال لي الناس خلال مروري بحي دوما إن هذا للأعراب الحنابلة من القبائل القادمة من العراق ونجد، فاستغربت هذا الأمر، فهل كل الشرق عرب؟ أم أن هؤلاء يحملون لسانا عربياً، وليسوا بعرب، وكذلك الحال في الصالحية، لكن عندما اقتربت من باب توما وأبواب دمشق وجدتها شبه خالية من العرب، حسب ما تخيلت، وعرفت.

كيف يختلط العوام، من أهل الشام، وسائر أرجاء المعمورة، فهناك القادمون من إفريقية، ورأيت مغاربة بالقفاطين والجلابيب، وعرفتهم من ملابسهم، ومنعني أهل بعض الأحياء من دخول حي اليهود، ومررت ببعض البيوت ومسجد لقوم لا يصلون مثلنا، وقد شهدت بالقرب من بيروت أناساً مثلهم.

هكذا حدث ابن بطوطة نفسه،في أول أيامه بعاصمة المشرق، فلم يجد لنفسه وقتاً لكي يتجادل معها، ولا يفتح قلبه لعقله، كي يصل إلى أجوبة للأسئلة الملحة التي تشغل باله، وتعطل تفكيره، وتخنق عاطفته، ولكي يعرف ما عليه فعله، في أول مواجهة له مع رجال الشرق، الذين انضم لهم، وانخرط في عمل دؤوب لا رجعة عنه، وينتظره الكثير من المجد، والمفاجآت السارة والمحزنة، ولا يكفي ما قد مر به من فواجع ومواجع، ومتع وملذات.

سلّم نفسه لخياله، وأراد التجول في الميدان أسفل القلعة المحروقة، ومهشمة الأسوار بسبب ما فعله قازان، ونائبه قبجق، ومن ثم سوق الدباغين الذي يشبه مثيله في طنجة، وكذلك سوق الخيل، وقيسارية دمشق بأبوابها الحديدية المثقلة كأنها قصور عظيمة لا مثيل لها، غير القصور التي تزين أحياءها كقصر بيبرس، ودار العدل، والبيمارستانات في الميدان الأخضر والنيرب وغيره.

لم يسعفه الوقت، فقد دنت الشمس من الأرض، ومالت إلى الحمرة، انعكست على البساتين التي تطوق خصر المدينة، وعلى أحجار أسوارها، ومع نسائم ما قبل المغيب، وهبوب الهواء، حكه أنفه من كثرة روائح الأطعمة في سوق ساروجا، وكأن دمشق كلها تصنع طعامها في الهواء الطلق،أو لا أحد يأكل في منزله، فرائحة الشواء، وأصوات الصبية الجوعى في الأزقة، وجفجفة ثياب التجار، وتهافت النساء والرجال على الأسواق الحية المنتعشة، لم يكن يتوقع أن يصل لهذه الدرجة والجمال والسحر.

اشترى لنفسه طعاما يكفيه من الباعة المتجولين، ولم يغص في زحام الحوانيت المصطفة، ولم ينتظر أن يستضيفه أحد من أهل المدينة، التي لا

يكاد أحد فيها يجلس في بيته، وكل من يسير على رجليه، أو يمتطي بهيمة، يحمل قنديلا، والعسكر يتجولون في الشوارع، يقتادون كل من يخالف هذا العرف المفروض بلا أسباب، حتى أن دمشق تبدو مضاءة، والقناديل نجوم متناثرة على التلال، وفي الميادين.

عاد إلى المكان الذي اختاره للمبيت، وعاد إلى محادثة نفسه:

كم تشبه هذه المدينة، موطني الذي ولدت وترعرت فيه، ولكنها أجمل، وأكثر سكينة، فرغم كل هذا الدمار الذي مر بها، لا يزال رونقها، وألقها، وبريقها، كامرأة فائقة الحسن، تعدى حسنها قدرة الزمن، على تغييره، أو التأثير فيه، فمدن الشام التي رأيتها، ومررت بها، عصية على النسيان، والأحزان، وهي كالمعادن النفسية، لا يقربها الصدأ، ومتزايدة الأثمان.

«وها أنا وحيد، مثل الجبل، وهمومي تتجمع حولي، كما تلبد الخفافيش في المغارات، أمشط البلدان، والمدن العتيقة، وأجوب البراري، أركض وراء حلمي، وأبحث عن مجدي الضائع أنا منه، والمنتظر».

انحدر في الأزقة المستوية، وانحشر بين رهط من الناس، واستغرب أعداد الجنود الذين يضعون الشاش مع العمائم، والرجال الذين يرتدون الشرابيش، والنساء اللائي يتجولن بحرية يحملن قناديلهن، ويرتدين البغلطاق في عز الحر، ولم يكن يعمل أن مناخ دمشق بارد في الليل، وفي النهار ساخن.

لم يستطع التنقل لأنه لا يحمل في يده قنديلا، حيث سحبه رجل بعدما اعترض طريقه، وكان أوطفاً وحطاطاً، وأملطاً، رغم أنه طاعن في السن، وتجاعيده الملساء كأنها أنهر جافة، وعيناه كثمر منكمش، على أغصان منكسرة.

كان هذا الرجل يدير الفندق وأعمال التاجر المسيحي، الذي يسكن عنده مسعود بن جابر دائما، فلم يكن يعرف أن هذا ابن بطوطة الذي ينتظره الجميع، بل حسبه تاجراً مغربياً، فقد عرفه من عباءته، وقفطانه، وطيلسانه، وعمامته، ومن لهجته، عندما تجادل معه، واستغرب من سحبه إلى زقاق محصور بين بيتين، ينسل منه الناس الهاربين من الشرطة، ومن كيد رجال نائب السلطان، ومن ازدحام السوق، وعندما يلاحق رجل فتاة، فيحصرها فيه.

- **ماذا تريد مني أيها الرجل؟**

- كيف تمشي من غير قنديل، وتضع كيس نقودك تحت حزامك، ألا تخشى العقوبة، ولا حتى النشل؟
- وما شأنك؟ فلا يحق لك اعتراض طريقي، وسحبي عنوةً وإيقافي، فما الذي يدل على أنك لست محتالاً ولا سارقاً، حتى وإن كانت علامات الكهولة واضحة، فهيئتك تدل على أنك رجل غير ذي شأن.
- سامحك اللّه، ولكن هيأتك تدل على أنك ذو شأن، ومنطوقك عكس ذلك، بينما أنا، التفت وراءك فهذا كله تحت تصرفي، ونصف تجار المغرب والعرب ومصر يحلون علي ضيوفاً، عندما يأتون إلى الشام.
- أنعم وأكرم، أعتذر عما بدر مني في لحظة غضب، فإن الغضب مصدره خوفي، وحذري، وسلاح أصد به أي هجوم يباغتني في رحلاتي، فلا يجتمع غضب مع فضيلة، ولا صبر مع رذيلة.
- لا عليك، رأفت لحالك، ودفعتني شيم العرب.
- تبدو غير عربي؟
- أنا عربي ولكن لست على دينك، وليس كل العرب مسلمين.
- كيف عرفت أني أدركت أنك غير مسلم؟
- لا تحتاج إلى حنكة ودهاء، من البرطال الذي أرتديه، ولكن أغلب الناس لا يعرفون ذلك إلا من عاشروا يهوداً.
- صدقت ورب محمد وموسى، لقد عشت معهم في طنجة، ولكن استغربت أنهم يرتدون نفس الملابس، بينما نحن من بلد إلى بلد، نجد الاختلاف، فلكل بلد لباسها، وما يميزها.
- عرفت أنك مغربي من لهجتك، فأنا يمر علي الناس من كل البلدان، وأعرف العرب والعجم، وأهل الشرق عن أهل المغرب.
- سامحني، هذا ما دفعني إلى أن أخاف منك، ولكن لم أعهد أو أسمع، عن يهود لصوص، وفي الوقت ذاته لم

أعرف أعرابا من اليهود.

- **نحن أهل هذه البلاد، ألم تعرف بني إسرائيل، أبناء عمومة العرب، وهناك الكثير من أهل حواضر مدن العرب، ومنهم قبيلتي.**

طفق ابن بطوطة، يتحرى الكثير من الأخبار والأحوال، ووجد ضالته في هذا العجوز قوي الهمة، الذي سحبه من وسط السوق، ويعمل بنفسه، ينظف ويخدم ضيوفه، ونزلاء الفندق.

واستغرب الرجل المسن من كون ابن بطوطة كان يتجول في دمشق، بدون أن يعرف أحدا فيها، فمشى من الربوة، حيث قصور الأمراء ونائب القلعة، والطبلخانه، وأتابك الجيش، إلى أن وصل ساروجة، وسويقة السرامجيين، ودار بكل هذه الأمكنة، حتى أطبق عليه ظلام الليل، ولن يستطيع العودة إلى مسكنه.

- **أجئت إلى دمشق زائرا، أم للعيش والإقامة كما هو حال المغاربة؟**
- **أيوجد مغاربة كثيرون هنا؟**
- **في دمشق يوجد كل الأجناس والأعراق، فبين حين وآخر، يأتي إلي مغاربة أو من الأندلس وأفريقية.**
- **صلني بهم، فأنا ذاهب للحج من طريق الشام، وأود اللحاق بركب الحجاج.**
- **سأذهب معكم حتى نبلغ تبوك أو العلا، نخدم الحجاج، ونسترزق اللّه، ولا ندخل مكة أو المدينة، ولا تستغرب أو تستهجن، فالكثير من النصارى واليهود هم تجار وباعة، فالعرب لم يكونوا قبل إلا أهل بادية، ومحرم علينا دخول الحجاز، إلا جدة.**
- **أتعرف أمير العرب؟**
- **ومن لا يعرفه، لكنه مغضوب عليه، أخشى أن تكون قاصدا له، ولا تعلم ما حل بقومه.**
- **ماذا حل؟ لقد رأيته في مصر، وشهدت على علو شأنه، وهيبته.**
- **ولا يزال، لكن هوِ على خلاف مع السلطان ونائبه،**

ودعني أذيع لك سراً، فهل لي بأذنك.

دنا الشاب من العجوز، وسلمه أذنه، ليقول له بصوت خافت، يرتعد من الخوف:

- **لقد سجنوا ابن تيمية، وهذا شيخ يجله أتباعه، ليكسروا شوكتهم، وليقللوا من قوة العرب.**

ليرد عليه ابن بطوطة:

- **أعرف هذه المعلومة، وشهدت وساطته، ووساطات رجالاته ومبعوثيه لدى بلاط الناصر في القاهرة.**

لم يتمالك الرجل نفسه، وهو يحمل عصاة من شجر التوت القاسي، فاهتزت يده، وسقطت عكازه، وفتح فمه شبه الفارغ من الأسنان، ففاحت منه رائحة نتنة، وكاد يخرج من دبره ريح، حتى مسك مغص بطنه، واستعاد توزانه.

- **من تكون؟ أنت أمير مملوكي؟**
- **لا.**
- **من أنت، ولو لم أكن من تعثرت به عن طريق الصدفة، لتبولت على نفسي، وقلت أنك جاسوس، أو إنك أمير متسلط، تتعمد الإيقاع بي.**
- **لا تخف أيها الرجل، وخفف من قرقرة معدتك، أنا رجل بسيط، وسألتك عنه، لأني كنت قاصدا لدياره، وقد تغيرت وجهتي، لانهيار الثقة، والتفاوض بينه وبين السلطان، بعد سجن ابن تيمية.**
- **أنت مغربي فما شأنك، فلم أعهد وجود حنابلة أو مناصرين له من المغرب.**
- **تعرف مذاهبنا؟ لو لم أكن ابن قاض، وملما وعالما، لما عرفت الفرق، بين مالكي وحنبلي.**
- **أعرف مايعرفه كل أهل دمشق، فالعرب من السكان الجدد حنابلة، ويسكنون في الغوطة، والصالحية، فهذه البلدات قد منحها لهم النائب، بأمر سلطاني، والبقية حنفيون وشافعيون، والمغاربة مالكيون.**

تطوع المسن اليهودي لمد يد المعونة والمشورة لابن بطوطة، وكعادته في معاشرة العرب والتجار، لم يكن يريده أن يقع ضحية للنشالين، ولم يكن يطمح أن يصل الأمر إلى تبادل أطراف الحديث، أو الجدال الطويل، وإلى الآن لم يعلم كل منهما أن هناك صديقا مشتركا فيما بينهما، وأن ابن بطوطة يحسب دمشق كطنجة صغيرة، ويسهل الوصول والتنقل فيها.

حان وقت نوم المسافر، فأراد أن يبيت ليلته في فندق اليهودي المضياف، وكل شيء بثمنه طبعاً.

وانقطع سيل الحديث المنهمر، خشية التعمق أكثر والوصول إلى محظورات الكلام، فأطبق عليهما الصمت المباح.

اعتدل ابن بطوطة في جلسته، وتحمل رائحة الجمال والخيول في الإسطبل خلف الحوانيت، وبين العمارات، ليفتح السبيل أمام أنفه لشم روائح الأكل المنبعثة من الجهات الأربع، ولكن حياءه جعله يطأطىء رأسه في الأرض، ويمد يده إلى كيس النقود، ويخرج بضعة دراهم فضية، ليدفع ثمن المبيت، وكراء بهيمة تنقله في الصباح الباكر، إلى حيث يريد، وليكمل جولته في بيت لاهيا، ودوما، وبساتين الغوطة، ومن ثم الأحياء الغنية، ليبحث عن منزل مسعود بن جابر، ويلتقي به.

العجوز لم يكن يعلم أن هذا الشاب متدين، فهو صائم، حتى وإن كان على سفر، فلم يفطر، لأنه على سفر دائم، وقد يتعذر عليه قضاء الأيام، قبل فريضة الحج، واختلط عليه الأمر، كما أن بخله المعهود، وحبه للمال، لم يجعله يقدم أي شيء له، إن لم يطلب، ولم يعرض عليه الخدمات، لأن الخوف انتقل من ابن بطوطة إليه، وشك في أمره، وإلمامه، وقربه من المماليك المرعبين، وقد نأى بنفسه كل العمر، عن الاختلاط، والقرب من الدولة وأهل الحكم والحل والربط.

ربما لا يحبذ صاحب الفندق أن يسكن عنده قضاة أو علماء دين، لكي لا تمنع تجارته، كما أنه لمس تعاطفا مبطنا، مع قضية الشيخ، وشم ابن بطوطة رائحة فرح لدى اليهودي، فالشيخ المفتي كان قد حطم الحوانيت التي تبيع الخمر، وقاد احتجاجات لأهالي دمشق، تدعو لمنع المواخير، وبيوت الفسق، وحوانيت السكر والميسر، وسمح النائب لغير المسملين، في بيعها، بعد أن سجنوه، واضطر لأن يُسكن هذا الشاب، ولم يفصح له عن تجارته بالنساء، ولا عن تأمين الملذات والمتع للراغبين بها.

لم يطق صبرا، فناحت وزغزغت طيور بطنه، من شدة الجوع، فدلف إلى محل الشواء، وطلب تمراً، وحليب البقر، فلم يجد لبناً، ووجد الناس يقبلون على أكل لحم أسود، يسمونه «السوداء» فعرف من المملوك الذي يعمل على تجهيزها، أنها من كبد الأغنام، فلم يكن يحب الطعام الناشف، وجلبوا له لبناً مطبوخا مع اللحم، واستغرب شكله الأبيض، ولكن أعجبه طعمه، وأكل بنهم ملحوظ، وسط أصوات الأكل وقهقهات الناس، وهاجمه النعاس، مع تخمة الزاد، وانتفاخ البطن، ووصل إلى حجرته بصعوبة، ليجمع صلاتي المغرب والعشاء، ويدخل في الرقادكالميت.

ما إن وضع رأسه على المخدة الصفراء، من كثرة الوجوه التي تتقلب عليها، حتى غاب عن الوعي، وكأنه موت مؤقت، فلم يسمع ما يحصل حوله، من صراخ النساء، ولهو الرجال معهن، في الحجرات المجاورة، ولو كان يعرف ما ارتضى على نفسه أن ينام في هذا المكان، ولو بات في السجن.

وعند الصباح، تعجب من المنظر المشؤوم للرجال الذين يترنحون في الحجرات، وروائح كريهة لم يعرف أصلها، وقبل ظهور الشفق، خرج ليبحث عن مسجد، ليلحق بصلاة الجماعة، فهو مالكي ملتزم، فإن فات وقت الصلاة، فلا تصلى جماعة.

وتحرك دم الغيرة في عروقه، وتذكر أنه على سفر، وسيشهد الكثير من المخالفات، وليحفظ دينه بداخله، ويمسك بيده، كأنه يقبض على جمر.

عند العودة، وجد العجوز مستقيظا، يكنس بنفسه المدخل، ويرش الماء على الحجر المرصوف في الدرب، وقد تكشف النهار، ورأى قلب دمشق الناصع، وأبنيتها غير المتوازية، وأزقتها المتشعبة، ومآذن مساجدها الكثيرة.

التزم الصمت، ولم يعر للعجوز أي انتباه، ولم يتحدث مع أحد، ورحل باكراً، بلا جدال، وكأنه يريد الخروج من هذا الحي، ويقول في نفسه، إن هذا الرجل كان يبحث عن زبائن، وأناس يبيع لهم الرذائل، في سوق المتعة.

- اقترب أيها الشاب الفطن أعرف أنك غاضب مني، فلا تلمني فهذه صنعتي، وقد تعلمتها منذ أن كنت صغيرا، وأنا لا أبيع الرذيلة، أو أقود الزنا، بل أنا «نخاس» أتبضع الجميلات المرغوبات، وأبيعهن كجوار لمن يطلب أو يرغب، وبرضاهن، فلا تجبر أمة على شيء، ولا إكراه في مواطئة أو معاشرة.

- ويحك وتقول ذلك في وجهي، فأنا لم أكن أعلم أن الأمر وصل لهذه الدناءة.
- ولِمَ تشتمني وأنا مثل أبيك؟
- خسئت واللّه، ولا تشبه نفسك بأبي، ذلك الرجل التقي النزيه، الشريف العفيف، وما بك من ذلك شيء.

هدأ العجوز بصبره، من غيرة ابن بطوطة، واحتقاره لما رأى، وأعلمه أنه كان عميلا لدى المغول، وقبلهم كان يدور على القرى والحواضر، يبيع العبيد، وسرد له الكثير من قصص التاريخ عن بيع العبيد، ولم يغفل عن ذكر قضية الزنوج في العراق، وكذلك زواج العباسيين من الجواري، وأعقب ما قاله، بأنه يهودي يجوز له كذمي أن يبيع العبيد إن كانوا غير مسلمين، وفي سفر الخروج من الكتاب المقدس للعهد القديم، أن العبد يتحرر إذا خدم سيده ست سنين، إلا إذا اختار البقاء، وهو ملتزم بالتوارة والتلمود، ومتدين لا يقول ولا يفعل شيئا مخالفا لدينه.

ومن اختار أن يهب نفسه كعبد، سواء كان من الأميين أو العبريين، فلا ضرر ولا ضرار في عبوديته، كما ذكر العجوز، وانطلت الحيلة، والحجة على ابن بطوطة، وقد صدّقها على مضض، وأقنع نفسه بالسكوت، لأنه لا يستطيع تغيير الكون، ومن الحكمة التزام الصمت، حينما لا يعتبر تأييدا، بل منطقياً، وضرورياً.

صفن يفكر في كلامه، ويتأمل في اختلاف الأديان، والشرائع، مع أنها تتفق على الرحمة، والحق، وتقوم على مبدأ الحقيقة، فلم يتركه لأفكاره، بل راح يولول من ذكريات المغول المؤلمة، فما إن عرف بشأن الضيف المغربي، وشم رائحة العز والمجد، حتى بدأ بنصب شراكه حوله، وعزم النية أن يطيح به.

وتطوع أن يرافق ابن بطوطة في حارات دمشق، ويشرح له الفظائع التي حصلت، كيف أنه عاصر دخول المغول، وحرقهم للمدرسة القيمرية والعادلية، ومساجد خاتون والتوبة في العقيبية، والمزة، وما فعلوه بأتباع تقي الدين في الصالحية، وداريا والمزة، وكذلك حرق دار السعادة مقر نائب السلطان.

ركبا حماراً أبيض، يشبه الحصان في حجمه وبياضه، نظيفا، بظهر طويل، يتسع لراكبين، وقد اكتراه ابن بطوطة لهذا الغرض، وأخذه العجوز الخدوم في جولة، ورأى بعينه دار السعادة المحترقة، وطافا في البساتين ذات

الأبواب المخلعة في الغوطة، ومر به باتجاه المزة، ومن ثم حارة اليهود، وأخذ يتمتم بطلاسم لا يفهمها الشاب الذي يركب وراءه، وملتصق به، وتكاد رجليه أن تنغرسا في الأرض، ويرفعهما كل الوقت من طولها، وقصر أرجل الحمار، وقلة ارتفاعه عن الأرض، فاضطرا إلى السير في الدروب المدكوكة من كثرة سير الناس عليها، ولا يمكن أن يغوصا في البساتين، وتربها الحمراء الهشة، ودله على باب توما حيث يسكن المسيحيون، وبجانبهم حي الأرمن، ودله على أحياء العرب، ولم ينس أن يحكي له، عن الفظائع التي حصلت لهم، من الحنابلة وعرب بغداد الذين طفقوا إلى دمشق بعد انهيار دولة بني العباس، فقد قتل المغول أربعة آلاف رجل، وسبوا أكثر من ألف امرأة، وخطفوا مئات الأطفال، ليباعوا في أسواق آسية، ويعملون خدما وصناعا في ممالك الشرق، ومدنها.

بغلّ شديد، وشماتة، تقطر من فم مترهل، بلا أعمدة من عظام الأسنان، كأنه بيت مهدم، وبصوت متهدج قال العجوز:

- **لا يجوز.**

وكررها مرة أخرى:

- **لا يجوز أن يسترق المسلمون على يد مسلمين، وفي الأمر غرابة، فأنتم تفتون بتحريم ذلك، ويجلب هؤلاء العبيد من بلاد مسلمة وكافرة، ويؤخذ من بلاد المسلمين الأطفال والنساء، ويباعون في بلاد مسلمة، فالمغول قد أسلموا، فأين فتاوى العلماء، أم أنهم انحازوا لقبجق، وسلطانه.**

سمع، وتظاهر بأنه لم يسمع، ولم يستعجل ابن بطوطة الرد على العجوز، حتى قطع صمته، المختلط مع طقطقة حوافر الحمار عندما تصادف صخرا، إجهاش الرجل بالبكاء.

- **ما خطبك، كنت على ما يرام، فلا تقل لي، إنك تبكي على حالنا.**
- **بل أنا مثل هذه الأرض، مكلوم، ومفجوع.**
- **ما فجيعتك؟**

روى له عن قصة ابنته التي سباها المغول، وذهبت ولم تعد، واستغرق وقتا، يصفها، بصوت متقطع مع البكاء، والدموع التي اختلطت بمخاط الأنف.

- **لقد خطفوها، وهي في عمر الربيع، كانت كالقمر بين النجوم، وذهبت سبية، كما سبى آباءنا نبوخذ نصر، وساقهم إلى بابل، أخذوها من بين يدي، وأحرقوا بيتي وحوانيتي، ونهبوا كل ما أملك، من أصفر الذهب، وأبيض الفضة، فغشوني وساموني عليها، فأخرجت من تحت الترب، أموالي وأموال اليهود المجمعة عندي، وعندما استلموها، لم يعيدوا إلي فلذة كبدي، وقطعة من روحي، ومن يومها وأنا منبوذ، ومكروه لدى طائفتي، ومحتقر، وفقير معدم.**
- **أعانك اللّه، وبإذن اللّه ستلتقي بها.**
- **عشرات السنوات يا ولدي، والذي يذهب لا يعود، ولا أعلم هل هي جارية، أم صارت محظية لدى أمير أو حاكم، أم ميتة، وهل بقيت على دين أجدادها، أم كفرت وغيرت دينها.**
- **كفرت؟ قل عادت للحق وأسلمت.**
- **لكم دينكم ولي دين.**
- **هذه سورة الكافرون، وأنتم ذميون من أهل الكتاب.**
- **إسكت، فلقد سئمت هذه التورية، ودفن ما نخفيه، إنه الباطن، يخرج في لحظات الحزن والفرح الشديدين.**

لعن العجوز اللحظة التي خرج أو تلقف فيها الرحالة وضيف دمشق، دفعته في ذلك العشرة الطويلة، وفي داخله ترسبات الخير، حتى وإن أخفى حقدا، أو احتقاناً مما حصل معه، ومع قومه.

على كثرة عيوب هذا الرجل، إلا أنه كان متديناً، يجيد التعامل مع الآخرين، ويحفظ لغاتهم، وعاداتهم، وقيمهم، وتقف حدوده عند تلك الحدود، فلم يكن شتاماً أو لواما كثيرا، وعلى مر الرزايا التي مرت عليه، إلا أنه لا يزال يقف على رجليه، ومتقبلا لحكم المسلمين لهم، فعندما حل به العطش، لم يرض أن يشرب الماء، أمام ابن بطوطة، احتراماً لصيامه وللشهر الفضيل، ولما مروا ببساتين الغوطة، كان يستأذن من المزارعين، عندما يأخذ قثاء، أو بضع

حبات من الأجاص، أو المشمش، ليسد جوعه، ويصلب طوله، ويواسي الأهالي الذين مرت عليهم ويلات كثيرة، وهو شاهد عليها، وقد آلمته، وأحرقته نار الحروب والعدوان، فمنهم من فقد أهله، وبعضهم اغتصبت نساؤه أمام عينيه، وصلب أبناؤه ممن تظاهر أو ساند، فقد ذاقوا أصناف العذاب في وضح النهار، وأمام الناس، وبعض المقبوض عليهم ممن خبأ في التراب أمواله، أو أخفى أهله، قد تم سحله حتى ذاب وزالت ملامحه وتبعثرت أوصاله مع الأحجار والصخور على رؤوس التلاع، ومن الرجال من شد المغول الحبال بأكتفاهم، وسحبوها في اتجاهين، حتى انتزعت من جسده، إذا لم يعترف قبل ذلك، ويصبون في مناخيرهم المساحيق والتراب، حتى تضيق أنفاسهم، والحسرة عمن ليس لديه ما يقدمه، حتى وإن تماوت، فإنه يعذب، لما بعد الموت.

سيول الأوجاع، غمرت الكهل، وطفحت حتى أبكت ابن بطوطة، الذي كلما ذكر له حادثة، صاح وتحسب، وجر صوته المختلط ببكاء ممطر.

أراد إخراج ضيفه من حالة الوجع والهموم، فلا يزيد عليه الهم، فوق تعب السفر والصيام، والغربة والاشتياق، وحالته الصعبة، فهو شبه هائم في المدينة الحزينة، يبحث عن صديقيه، كمن يبحث عن تراب منثور في بحر كبير.

فذهب يسأله عن اسمه، ويجرجر منه الكلام بصعوبة:

- **لم تقل لي اسمك يا ولدي، ونحن العرب عادتنا ألا نسأل الضيف عن اسمه وحاجته، إلا أن يقول أو تمر ثلاثة أيام.**
- **إسمي محمد بن عبد اللّه اللواتي، من دولة بني مرين، التي تحكم المغرب، والأندلس، أطال اللّه في عمرها، وعمر سلطانها العادل الموحد، صاحب السيف البتار، والهمة العالية.**
- **لم يعطه مجالا، فهناك فضول يحرق جوفه، لمعرفة المزيد من قصة هذا الشيخ، وسأله عن اسمه:**
- **وأنت ما اسمك؟**
- **اسمي مخيريق، على اسم جدنا الذي حالف الرسول الكريم في يثرب، ووقف معه، قبل أن تدب الخلافات،**

وتحصل القطيعة، فقد كان من خيرة العرب، وأشدهم بأسا، وكرماً، ورجولة.

- **هل أنت صادق؟**
- **هل بعد هذا المشيب.. هناك كذب وبهتان، وادعاء ما ليس لنا؟ فلا يغرك إني بلا سواد وبياض، فقد كانت لحيتي تغطي بطني، وظفائري تنافس الفتيات من طولها، وتلاعب الريح حتى تطربها، ولكن جور الزمان، وامتهان أعمال فيها فحش وخسة، بعد ضياع الولد والمال، فأجبرت على ذلك لأنه لا أحد يشتري، أو يتعامل مع متدين، وأغلبهم يخافون أن أكون محتسباً، أو شيخ دين، فأضربهم، وأقذفهم بالسباب، أو أشي بهم إلى العسكر.**
- **فقد أزلت لحيتك؟ بعد أن مرغتها بوسخ الدنيا؟**

قالها وقد أخبره أنه يمازحه، فرد عليه مخيريق، وهو يضحك من شدة وخز الألم، ومن شر البلية الملمة به:

- **صدقت، وقد تركت عملي وعمل أجدادي ونبي اللّه داود، فنحن نتوارث مهنة الحدادة وصنع الأسلحة، وتليين الحديد، بينما يشتهر أبناء عمومتنا من قبائل اليهود كقينقاع وقريظة وبهدل بالصياغة والصيرفة والزراعة.**

نسي أنه قال لابن بطوطة بأن مهنته الأساسية النخاسة، وبيع العبيد في الأمصار والأسواق الكبيرة، وكسدت هذه التجارة أيام المغول، فامتهن الدلالة على النساء، فلا أحد يحب أن يظهر تاريخه أو ماضيه الأسود، ويبحث عن الأمجاد والأشياء المضيئة، ليتفاخر بها، وهذا ما جعل العجوز يذكر تاريخ أجداده، ومهن اليهود الشريفة.

سرد له كيف انتقل بنو شمعون هربا من الرومان إلى الصحراء، وتداخلوا مع العرب الذين يسمونهم «الحنيفيين» قبل أن تتهود أو تتنصر بعض قبائلهم، وبنوا الحصون والآطام على قمم الجبال لكي لا يصلهم باغ، ولا يبلغهم تهديد، وذكر له بحنين مختلط بحسرة عن حصن الأبلق في تيماء، والذي يزور

أطلاله الدارسة كل عام عندما يرافق رحلات الحجيج وقوافلهم، ولكنه لا يصل إلى يثرب، رافضا أن يسميها المدينة المنورة، بل معتدا بتاريخه.

وتساءل ابن بطوطة عن المعتدين عليهم من الأعراب في الجاهلية، وأطلعه على قوتهم، وعدتهم وعديدهم، على غير ما يذكر الناس، أنهم كانوا ضعفاء، لكن انتشار الإسلام، وقوته، لا تقف أمامه قوة ولا سلطان، حتى وإن كان اليهود أهل تجارة، وحضارة، لا يحبون الحروب، ولا يدخلون فيها، حتى وإن تحاربوا مع الأوس والخزرج، ومن ثم قامت بينهم أحلاف.

استغرب الرحالة الشاب مما ذكره العجوز، ومن سعة مخزونه التاريخي، فهو يحفظ أسماء الأماكن، والشعراء، والملوك، والمدن، ويتقن العربية والعبرية والسريانية، ويعرف تفاصيل الأديان، والأعراق وقبائل اليهود والعرب، من عاربة ومستعربة وبائدة، كما يحفظ الكثير من الأحاديث والسير.

وراح يغوص أكثر في التاريخ، كما غاصت أرجل الحمار الذي يحملهما في تراب الغوطة الأحمر خارج أسوار دمشق، وقد احمرّ وجه الشمس، ولوحت بالمغيب، واقترب الغروب، وكلاهما صائم رمضان، والآخر يصوم احتراما لرفيقه.

على غير المتعارف عليه، كان اليهود في دمشق يحبون أهلها، وينتمون إليها، لا تفرقهم عن المسلمين، ويحملون الحب لهذه الديار التي تحمل قدسية ولادة إبراهيم فيها، وقربها من ديارهم الأولى التي نشأ فيها الأسباط، ولا يعتبرونها مختلفة عن الصحراء، فهي امتداد لها، ولا يهمهم تغير الدول والممالك، فيرون أنهم باقون، وممتدون، ومتفقون مع الإسلام في التوحيد، وحب الأنبياء، والإيمان.

انشغلا بتأمل مشهد الغروب وتكسر الأشعة الذهبية السابحة فوق التلال ومياهها بالجلوس على أطراف روضة خضراء، كأن عشبها قطعة سجاد منسوجة بعناية، وإتقان، مخضوضرة بساتينه، كأنها جنة الأرض، واستكمل يشرح ويصف دمشق لصاحبه، وتعلقه بها، كما كان يتعلق أهله بهذه الأراضي حتى اليمن، وأخبره أن اليهود يحبون الزراعة، ويعيشون في الروض التي يسمونها «الأماط» وفي كل حصونهم يحفرون الآبار، ويحرثون الأراضي، كما في حصون السلالم والوطيح، ويتفنون في الروابي.

بعدما فرغ من الأكل، سأله مخيريق:

- **هناك مسجد بجانبنا، فلماذا لا تذهب للصلاة؟**

- **لقد تأخرنا، ولن ألحق صلاة الجماعة، فلا جماعة على مذهبنا، إلا في وقتها.**
- **وهل تختلفون في الصلوات؟**
- **اختلافات بسيطة لا عليك منها.**

في طريق العودة أراد ابن بطوطة معرفة المزيد من الشيخ العجوز، ليستكشف ما يمكنه، وقد عقد العزم على التعاون، وجعله قاعدة له في دمشق، لما له من معرفة بالصحراء، والأقوام، وقد يتون له معرفة بيهود أصفطهان والعراق، ومصر واليمن، مما يفيد كثيرا في نسج العلاقات، والمعارف، وقد أيقن تماما أن اليهود غير راضين عن حكم المماليك الذين يرون فيههم عبيدا يحكمون أحرارا، مما يتعارض مع تعاليمهم، كما يرون أن هذه الأراضي لهم، وأنهم الأحق والأجدر بها.

- **هل تفكر بالعودة إلى عملك وقومك يا مخيريق؟**

اخترق صمته بهذا السؤال، ليرد عليه اليهودي:

- **لا أظن قومي يتقبلونني، فأنا عجوز فقير مكسور، وهذا عار عليهم.**
- **ألا تجتهد، وتنهض من جديد.**
- **ضاع مالي، ونهبه المغول، وسيطر المماليك على عملنا، وجلبوا العبيد الصناع، ليأخذوا حرفتنا، ولا يثقون بنا، حتى وإن تعاملوا مع الصيارفة والصاغة، لكن هذه ليست صنعة قومي، بل إنها ليهود الشام القدامى، أما نحن القادمون من الصحراء فعملنا إما الحدادة أو النسخ أو الزراعة، ونحن أقرب للفلاحةمن معيشة الحاضرة.**
- **ولماذا لا تحاول الدخول مع المماليك، وبناء تجارتك من جديد؟**
- **أنا الآن حقير مذلول لا مال لدي ولا جاه.**
- **رأيت في مصر، وربما هنا في دمشق الحال نفسه، بالنسبة لبروز عبيد من المماليك، وتحررهم، وسيطرتهم، بالتحالف مع آخرين، فهل تحاول؟**

- **لا يملك اليهود تلك الحيل، فلا تصدق ما يحكي الناس عنا، فنحن موصومون بالغربة، والشتات، ولا نعمل في جيش، أو نستطيع نسج مؤامرة، وكل ما قلته صحيح لكن عبر السيطرة والنفوذ للعسكر، وسترى إن أطلت الإقامة في هذه المدينة كيف أن أصحاب الشرطة وأمراء الجند، ونظار الأعشار، هم أهل النخبة العسكرية أي علياء القوم، وأهل القول والفصل، ويليهم أهل الحلقة والرديف، والقضاة وموظفو الدواوين، وهلم جرّا.**

كاد اليأس أن يدب في قلب ابن بطوطة، لكن طرأت على عقله أفكار جديدة، وتذكر يهود المغرب، والأندلس، فلم يتردد في استكمال الاستجواب:

- **هل هناك فرق بين اليهود؟**
- **مثل المسلمين، الفروقات كثيرة.**
- **هل تعرف أحدا من يهود المغرب وإفريقية؟**
- **لا.. لكن أعرف أنهم لا يخضعون لقانون التلمود، على عكسنا.**

لم يشأ أن يدخل في جدل، وينشغل بأمور جانبية، فعاد إلى فكرته الرئيسية قائلا:

- **نعيش معهم على قلب رجل واحد، وبيننا سلام دائم، من بني يهوذا وغيرهم، وهو اسم عائلة وليسوا قوما أو قبيلة، كما أنهم ليسوا عربا.**
- **وأنتم عرب؟**
- **نعم، فهناك بنو النجار وبنو عوف، وبني الحرث وجشم، وبني ساعدة، وهم من أهل يثرب ومن أسياد جزيرة العرب، وهم لا يزالون ذوي جاه وسيادة هنا في دمشق.**
- **وهل يعيشون بسلام؟**
- **هناك ذمة واحدة لما يسمون الذميون، فإن لهم النصرة إن كانوا مظلومين، فسلم المؤمنين واحدة، ولا يسالم**

مؤمن دون مؤمن بقتال في سبيل اللّه إلا على سواء وعدل، وينفقون مع المسلمين ولكل دينه،والمعروف قائم غير زائل حتى يوم القيامة، فمن أخل بهذا العهد عليه لعنة اللّه وغضبه.

- دعنا من هذه الرواية، ولأسألك عما تحمل في صدرك، كأنها صحيفة؟
- صدقت، فتعاليم عقيدة التلمود تشير إلى أن كل يهودي يعلق على نجاف داره صحيفة تشمل وصية موسى لبني إسرائيل، في أن يكون إيمانهم بإله واحد لا نغيره، ونحن ننزح من منازلنا كثيرا، فكلما نزحنا نأخذه إلى منازلنا الجديدة، ومنذ أن خرجت بطون أقوامنا، من الآطام، حملوها معهم، وأنا لا دار لي أعلقها عليها.
- ولماذا خرجوا؟
- خرجنا لخيانة بعض اليهود من قينقاع، قبل أحد، وقريظة قبل الخندق.
- ألا تعرف تاريخ دينك؟
- نحن نرى اليهود قد نقضوا العهد، وتم إخراجهم من المدينة، ومن ثم خيبر.
- صحيح، إنها الفتنة، وقد قاتل جدي في أحد، وقتل فيها، وأقسم ألا يكون هناك «سبت» بعدما تعذر اليهود بيوم السبت، وأنهم لا يقاتلون إلا عن المدينة، حسب الحلف والعهد.
- وهل قينقاع وقريضة مختلفون؟
- هناك اختلافات كبيرة، ولكن الذي أعرفه ورواه أهلي أن بني قينقاع، كانوا من قلب يثرب، وأهل مال وثراء، لعملهم في صياغة الحلي من الذهب والفضة، وكانوا يمكلون الآلاف من النخيل، وكذلك جدي وقومي.
- وماذا عن بني النضير؟
- لقد قتل المسلمون كبيرهم، وشاعرهم العربي كعب بن الأشرف، بعد أن وقف على قتلى بدر، ورثاهم، مع العلم أنه وقف مع مشركين يعبدون الأصنام، وهذا

محرم في ديننا.

- **هل هناك شعراء يهود؟**
- **هناك قبائل متهودة، وكعب من طي وأمه من بني النضير، وفي اليهودية الدين وراثة عن طريق الأم، وليس هداية أو اعتناقا.**

أمطرت الدهشة صحراء روح ابن بطوطة، حتى فاض عقله، بكثرة ورود اسم «طي» في طريقه، فتلك التي تركها وراءه في طنجة، وكذلك أمير العرب، وسيادتهم في نجد وصحراءها الممتدة، وقرابتهم وعلاقتهم باليهود.

- **أتقصد «طي» التي منها أمير العرب الذي سألتك عنه بالأمس؟**
- **نعم إنها قبيلة كبيرة، ولكن هذا الشاعر الفحل، كان من أهل الحجاز، وبطون طي تسيطر الآن على الشام، لكثرتهم، واستنجاد المماليك بهم، في حروبهم ضد الصليبين، وضد المغول، وهم العرب الوحيدون الذين لهم شرف الإمارة، في زمن مقاليد حكمه بأيدي أعاجمه.**

لوى الحنين عنق قلبه، فاعتصره الألم، حتى كاد يختنق، وغص بذكرى من تركهم وراءه في طنجة، واشتاق إلى أزقتها الملتوية، وبحرها الأبيض، والآخر المظلم، وزفرته المنتشرة، وغاباتها الكثيفة، وهضابها المتناثرة، وأناسها الطيبين البسطاء، وغمرت عقله فكرة العودة سريعا، ولكن هيهات، فلا عودة في هذا الطريق، فكله ذهاب في ذهاب، إلى ما لا نهاية، حتى يسلم الراية لمن هم بعده، ولغاية وصوله إلى عاصمة الأمويين، وعصب دولة الإسلام والمماليك، لا يعرف هو مع من، ولا من معه، يأتيه الرجال صدفة، ويتحرك وفق الصدف، والأوامر السرية الطارئة تحركه كيفما تشاء الظروف، ووفق ما تقتضي الحاجة، فكل مدينة يدخلها، يأتيه رجال سريون، يتعاملون معه، ويدلونه على طريقه، وكأنهم يراقبونه، ويرقبون وصوله، يحرسونه، أو يرشدونه، ولعل هذا الرجل اليهودي هو أحدهم، فقد سحبه من وسط الناس إلى مكان ليس فيه أحد، وحذره من خطورة سيره الساذج، ومخالفته التي تعرضه للسجن والبطش، والاعتداء عليه، فقد تكون دفعته الغيرة وحب الخير كما قال، أو يكون يعرف أن هذا الشاب ذو شأن، ومهم للمهمة السرية، التي لا يعرف كل شيء عنها، ولكنه أحد الأعوان، والعاملين في

فلك هذه الخدمة، وجندي من دين آخر، لحماية الدولة التي تحمي الجميع، من خطر الانهيار والتفكك.

في دمشق ليس كل الناس مؤمنون أو فيهم الخير، ولا كلهم أغنياء، رغم كثرة الأوقاف للزواج والأيتام والحج والفقراء وأبناء السبيل وطلاب العلم في الزوايا، فالطعام فيها متوافر، والمبيت مؤمّن، وأفعال الخير عند أهل دمشق وفيرة، إلا أن اليتامى والمشردين كثر، والزوايا تغص بالمجاذيم، وأبناء الناس، ممن يسمونهم بهذا المسمى الذي كان يطلق قبل زمن على العبيد القادمين إلى هذه البلاد، ولكنهم الآن حكموا واستحكموا، واستفحلوا على أهل المدينة، وصاروا هم أهلها، والباقون غرباء، وهذا ما دعا العرب إلى الهجرة، وتركها إلى سلاطين العراق، لكي يمارسوا الغزو، والسيطرة على الصحراء، وضاقوا بعدما سجن المماليك شيخهم، وضيقوا على الحنابلة، وسادت الصوفية بقوة، ولو أن الشيخ ابن تيمية قد نهاهم عن الغزو، وسلب أموال الأقوام الأخرى، وغزو بعضهم بعضا، لكنها من تناقضات هذا الزمن المتكاثرة.

سريرة ابن بطوطة فاضت بالكثير من التساؤلات، حتى كاد أن يغرق فيها، ووضع نصب أعينه هدفا لا يراه غيره، في بلوغ المجد، والصعود إلى قمته، وفي طريقه بالارتحالات الكثيرة، سيجني الكثير من المال، ويتزوج في كل مدينة يجلس بها، ليختلط بأهلها، وتكون له الزوجة من ذات الأرض والتراب، ويصون بالحلال نقاءه، وإيمانه.

مر يوم تلو الآخر، وهو يتفحص وجه دمشق المليء بالأحزان، وملامحها الساحرة، ولم يصب بالملل، ودعته الحاجة والعادة، في أن يتزوج، وقد اختلط بالمغاربة الذين اتخذوا من دمشق وطناً، وبلدا بديلا عن بلادهم، بغرض العيش الهادىء، أو وجود سبل الرزق، ومنهم من يجاهد في خدمة الدين، والمسلمين، فوجد ضالته عن طريق العائلات الساكنة، فدلوه على مغربيات يبحثن عن الستر، ليختار زوجة منهن، فليس لديهن أية شروط، وأهاليهن يخشون من النهب، ومن عودة المغول، أو غزاة آخرين، فيريدون تزويجهن، ويعيشون في مجتمعات مغلقة فيما بينهم، فالمالكيون من المغاربة لا يختلطون بغيرهم، والحنابلة من الأعراب وغيرهم، في الصالحية ودوما، هم على الحال نفسه، وأكثر انغلاقا، والحنفيون والشافعيون، كل منهم منزو، ولكل من المذاهب الأربعة شيوخهم، وقضاتهم من عهد بيبرس، ولم يفهمها ابن بطوطة عندما دخل المسجد الأموي، ووجد أربعة أئمة يقيم كل منهم الصلاة لأتباع مذهبه، فإن انتهت صلاة الأول، قام الإمام الثاني للصلاة، ومن ثم الثالث يقيم صلاته، والإمام الرابع آخرهم.

ومن هذا الواقع الحاصل، يدرك أي شخص مدى التشرذم والفرقى التي يعيشها عالم الإسلام، فعلى الرغم من أن الصلاة واحدة، وأركانها هي ذاتها، إلا أن الناس يختلفون، ويفترقون، ولا يجتمعون.

دخل إلى الصلاة، فشغله الجامع المستحيل حسنه عن بقية الجوامع، وإتقان بنائه وغرابة صنعه، والتنميق والتزيين من فصوص بائنة، وفيسفساء تبهر الناظرين، وتأسر القلوب، قبل العيون، فانشغل يحدق في طوله البالغ حوالي مائة خطوة، وعمقه إلى الجوف أي سعته البالغة مائة وخمسة وثلاثين خطوة، وزينة قبة الرصاص الأقرب إلى محرابه والهيكل العظيم فيه.

التجوال في طرقات دمشق العتيقة بجوار الجامع الأموي جعل ابن بطوطة ينشغل بالحوانيت والأسواق المكتظة بالبشر، فقد كان شاهدا على حذق حرفيي دمشق في صناعة السيوف الدمشقية،وهي من أفضل ما يصنع في المعمورة، فيصقلها الصناع بمهارة عالية، قبل سقيها، ويستخدمون مقابض الخشب المثبتة بها قطع الحديد ليجرون شفرات النصال، يمسح النجارة على سطوح الخشب، ثم يلمعونها بإتقان، حتى تصبح كالمرآة، فإن أراد رجل أن يصلح ويعدل من شأن عمامته، سل سيفه من غمده، واتخذه مرآة له، وهي تمضي في أجساد الأعادي كالنور في السحاب، والماء في ذرات التراب، تتغلغل بانسياب، وسرعة، وكذلك صناعة الزجاج، فزجاج دمشق شفاف عاكس للنور، فكلما كان مصقولا ومصنوعا بحرفية، كان أكثر جودة، وقوة، ومطلوبا في كل الديار.

على غير عادته، وما عاهد نفسه عليه، وقع المسافر المرتحل، في حب دمشق، ولم يقم بها إلا أياما، فلم يلم من سبقوه إليها، وأسرع في اختيار زوجة له، ووجد أن رفيقيه لم يبحثا عنه، وهو منقطع أصلا عن شؤون القلعة، وحاكمها ونائب السلطان، ولم يجد سبيلا إليه، أو إلى حلقته الضيقة، فعاد إلى طبعه الغلاب، وهو الانصهار مع عامة الناس، وأراد إنجاز أموره الخاصة، من ترتيب مسكن، والزواج بأسرع وقت ممكن، وهذا ما سيحصل، وما سيجعله يعجل في سفره، لا أن يبقى ويسكن الشام.

وما إن وجد زوجة، لم يعجبه المقام في دمشق، وحل به الملل، بعد ثلاثة من العرس، والدخول بها، حتى ظنه أهله، وجمع المغاربة، أنه قد رأى منها ما يكره، ولكن أخلاقه الأصيلة، جعلته حتى وإن وجد فيها شيئا، ينكر عليها السوء، ويثيب ويثني على ما يطيب له ذكره منها.

غرق في إخلاصه بصوفيته، وبحث عن خلاصه، وانكفاءه في دائرة الزهد، والبحث عن الذات، ونذر الروح لما هو فوق الوصف، والإحساس، فزادت آلامه، ويبدو أن الزواج قد أتعبه، حتى ضعف جسده، وصار هزيلا، فزوجته اكتسبت عادات الدمشقيات، فلا تطبخ في البيت، وكل أكله من الحوانيت، والمأكولات الناشفة، على عكس أهل المغرب، وما كانت تقوم به أمه «بطوطة» من مائدة تعرف أولها، ولا تصل إلى آخرها، فزوجته الجديدة، منشغلة بأمور حفظ الكتاب، والحديث، ولا تجيد إلا بعض المأكولات، كما أتعبه تسلق ما أمكنه منها كل ليلة، وفراغه من أي عمل، حتى ضعف حاله، وسقط مغشيا عليه، فأسعفوه إلى مارستان نور الدين، ليعثر صدفة على خيط يوصله بالصديقين.

«بك وهن، ووجهك شاحب، وملامحك أكبر منك».

هكذا قال له الطبيب الفارسي، الذي يعمل بالمارستان، ولم يكن ليفهم عليه، لولا وجود من يجيد الفارسية، فكان له الترجمان المنقذ.

«أنت متعب يا أخا العرب، يبدو أنك منهك من سفر، أو حلت بك حمى طويلة»

هكذا قال له الترجمان، فأحس بأنه قد سمع هذا الصوت من قبل، ولكن لم يأت بباله، أن يكون صديقه مسعود.

- **هذا الصوت ليس بغريب علي.**
- **تتشابه الأصوات، مثلما تتشابه الوجوه، فأهلا بك بين أهلك.**
- **أتعمل هنا ترجمانا؟**
- **لا بل أنا جئت أراجع الطبيب، لاستشارته في أعشاب تعيد الشباب.**
- **وهل هناك أكسير لعودة الشباب، وما أنت بشيخ أو عاجز؟**
- **شباب الرجولة، فأنا مزواج، وعندي شك في قدراتي.**
- **كلانا جاء لنفس الأمر، أنا أجهدت نفسي، وأنت تخشى أن تتعب، وتخرج مابك.**

ضحك الأعرابي من كلام ابن بطوطة، عرف أنه عريس جديد، قد أهلكته عروسه الشابة المنتفضة الملتهبة، بينما هو على وشك الزواج، وغير واثق من قدراته، التي استنفدها مع مرور الزمن، واستهلكها على الكثير من أجساد النساء.

وكان ابن بطوطة قد بدا عليه الهم، وملامحه واهنة، لما يحمل من طموح، وانشغال بأمور تبدو عليه كبيرة، بينما مسعود بن جابر، طالت لحيته، وغزا الشيب مفرقه، وتغيرت هيئته، وغاب عنه دلال ابنة جبرين، وابن بطوطة الذي كان صبيا، لم ينبت شاربه، ولم تتكون لحيته، فلم يعرف كلاهما الآخر.

على مقربة من الأسرة البيضاء، كان هناك عجوز أهلكته الشيخوخة، فمن سعال مفرط، إلى تنفس هادر، ونتق منه صديد، وهو ينادي ولا يسمعه أحد، فمجّه من فمه، حتى انتهى سعاله، وانتبهوا إلى جلجلته، وهو يقول:

«اسمعاني، إن القوم قد دمقوا في حب الأعشاب، والبحث عنها، والتهافت عليها، لما حل بهم من مصائب، وحاصرتهم النوائب، التي تشيب لها رؤوس الأطفال وهم في المهاد، ومواجد وسخائم، تجعلهم لا يقوون على جماع النساء، ولو أحبوا، وهذا الطبيب الباطني، له الفضل في نشر هذا الفهم، ولكن من شاخت أعضاؤه، وجف ماؤه في ظهره، وانسدت ينابيعه، فلا تعشوشب فيه الرجولة، ولو كثرت الخلطات، والأدوية».

ما قاله العجوز المريض المحتضر في صلب ما كانا يتحدثان به، ولما فيه من أهمية بالغة، لأي رجل، شرعا في الحديث معه، على الرغم من محاولة الطبيب منعهما، وطلب منهما تركه وشأنه، بعد إخبارهما أنه يحتضر، وهذه سكرة الموت.

فقد سأله ابن بطوطة:

- **تتحدث بصعوبة، فهلا استرحت.**
- **لا عليك لم يعد لي في هذه الدنيا عمر طويل، فشبح الموت يحلق حولي، وما شبعت من النساء، فلو تمكنت، لجلبت لي امرأة تتمدد بجانبي.**
- **أهذا شغفك؟**
- **بل هذا توق الرجل لغاية وصول حتفه.**

تدخل مسعود بن جابر قائلا:

- **يبدو بك نصب معين.**
- **نزر قليل من الحمى، ولكن هي النهاية قد حلت، وأوراق العمر أوشكت على السقوط، فأوصيكما بالزواج، والتكاثر.**
- **هل طبقت نصيحتك على نفسك؟**

أجاب الطبيب عنه بالفارسية، فحرم ابن بطوطة من معرفة الإجابة فقد ذكر لمسعود أن هذا الرجل قد نسي عدد زيجاته، من تجاوز عددها ما يستطيع تذكره، وقد جاء إليه، ليحصل على نصائح تعيد إليه فحولته، وقد بلغ المئة من عمره، وله ولد عمره عام، من زواج جديد، وهو رجل غني، ولديه من الأولاد ما يفوق الخمسين من الذكور، ولا يعرف عدد بناته.

تركهما العجوز مصابان بالدهشة، ورحلت روحه، ولم يحصل على شيء يساعده على إتمام الزيجة، فقد اكتشف الطبيب وجود ورم وماء في رئته، وعرف أن الداء والوهن قد انتشر بجسده، وكان قد أعطاه أعشابا قبل عام، عند مجيئة على نفقة نائب دمشق الذي أحضره من بلاد فارس، وأمطره بآلاف الدنانير، وتناقل الناس أخباره، ممن يحضرون مجلس القلعة، وذاع صيته، فأسموه الساحر، وهو المستفيد من علوم ابن سينا والبيروني، وتعمق في فلسفة الهند، وأطباء الصين، وسافر كثيرا في طلب العلم، وبرع في دمج العلوم، واختراع أدوية، وأمصال مفيدة لكثير من الأمراض، حتى أن نساء دمشق يقمن الليل للدعاء له، ويغدقن عليه بالهدايا، ويتبركن به، فيأتين إلى حيث يقيم، يطلبن ملحاً منه أو شيئا من خبزه يتبركن به، ويأخذن من تراب خطواته، لكي تتبارك بيوتهن، ويطرد النحس من كل شيء، والبعض يقف عند باب بيته، يسترق السمع، وقد شكوا بأمره، إما أن يكون لديه جن يتعامل معه، أو أنه صاحب حظوة وبركات، ومكاشفات، وفي كل ليل يتسلل فيه الرجال، يجدونه لوحده، يسهر الليل، يضع محاليل، ومياهاً ملونة، يسكبها على بعضها، ويمزجها، لتخرج منها أصوات، وأدخنة، فلا يعلمون صنعة يده، ولا العلم الذي يحمله، فيهربون، وبعدها بأيام يأتي آخرون، ويستغربون ألا أحد يحضر عنده، أو يزوره، وهم مدركون أنه لغز كبير، لا حل له.

لا إحساس تجاه الرجل المسجى أمامهما، ولا مشاعر لدى الطبيب، الذي عرفا أنه يحب أن يناديه الناس «الكيميائي» فهو معتاد على الموتى، وعلى التعامل مع الأجساد، وخوض التجارب المريرة، ودراسة الأمراض والأوبئة، فلم يستح أن يطلب منهما الخروج، ليبدأ تشريح جثة الميت، وتدوين ما يعثر عليه من مستجدات، ويدونها بلفافة كبيرة من القرطاس، أخرجها من خرقة

قماش، مما استدعى غضب ابن بطوطة النادر، فكيف يتم التمثيل بجثة مسلم، وطلب منه أن يحضر إمام عالم، لكي يستفتونه بأمرهم، لكن الترجمان نقل له قول الكيميائي أنه لا حياء في العلم، وأن اشتراطه على المماليك أن يبعدوا عنه أيدي الولاة والقضاة، والمحتسبين، وغيرهم، فهو عالم يعمل بالاستثناء، وكل ما يقوم به مستوحى من قواعد شرعية، لا يخالف بها إلا منطق العقول المغلقة.

تمكن مسعود من جر ابن بطوطة بصعوبة من داخل المارستان، لكي لا يذهب ضحية غضبه، فيقبض عليه الرجال المتسلطون، أو ينتبه له أي من الجواسيس المنتشرين في كل مكان، فيدوّن فيه تقريرا، يجهز على مستقبله فيه، فيضيع عمره إما وراء القضبان في أحد السجون، أو منفيا، أو قتلا بالغيلة.

انشقت عباءته، وسقطت عمامته وتدحرجت، ولم ييأس مسعود مدفوعاً بالشيم الكريمة، وعندما تمعن في عاميته، وشاهده على طبيعته، ففي الغضب يظهر المرء على حقيقته، مجردا من المحاذرة، والمجاملة، ودوزنة الكلام.

- **من أين أنت يا فتى؟**
- **وما هو شأنك؟**
- **أنت غريب عن هذه الديار، فلم أنتبه للباسك، ولهجتك.**
- **كلنا في الحياة غرباء.**
- **اترك غضبك جانبا، وقل لي من تكون، ومن أي القوم والبلاد؟**
- **أنا مغربي.**
- **عرفت واللّه، من أي مدن المغرب؟**

اندهش من سؤاله، فلا أحد يعرف المغرب أو مدنه إلا قلة، ولكنه هدأ من روعه، ولملم نفسه، وخفّض من صراخه، وصوته العالي، ليقول له:

- **من طنجة.**
- **يا رباه، هل تعرف القاضي عبدالله اللواتي؟**
- **عز المعرفة.**
- **هل هو حي، وما حال ابنه؟**

- **ليس بخير، فهو ضائع، وغريب، وقد جن عقله.**
- **حرام.. حرام.. لقد كان شاباً تقياً، متقداً بالحماسة، وصاحب هم وهمة.**
- **أضف إليها حرف الواو، ليصبح وهماً.**

توهم كلاهما، بأنهما لا يعرفان بعضهما، وأن السائل يريد معرفة حال شخص، هو يمسك به، والآخر يريد الإفلات من بين يديه، مزمجرا، ويهدر كالجمل.

- **لقد هدأت، فأبعد يديك، فلا تكتفني إلى ما لا نهاية.**
- **أأأ.. أعتذر لقد نسيت، وسرحت في أصدقائي بطنجة.**
- **من تكون أنت، حتى يكونا من معارفك؟**

بلا مقدمات، حضرت فطنة مسعود، وإدراك ابن بطوطة غير المتأخر، فقد عرفه من صوته، ولكن الإعياء جعله لا يركز كثيرا، فأيقنا أنهما الصديقان القديمان، وهما ملتصقان ببعض، متدافعان في شجار واشتباك بالأيادي، ليكملا التشابك، والعناق، لكن هذه المرة عناق الأحبة، حتى اختلطت دموعهما، وبللت الأكمام.

ومرة أخرى، تلو الكثير من المرات، يتوقف قلب ابن بطوطة من هول الصدمات، والمفاجآت، والصدف التي يتعثر بها، فقد قطع آلاف الأميال، ورأى ملايين الناس، ومئات المدن والبلدات، ليلتقي صديقه الذي كان على موعد معه في دمشق، ويبحث عنه بلا جدوى، لأن عمله محسوب التحركات، ولا كتابة أو تدوين، والاعتماد على المعلومات القليلة، والأسرار الشحيحة.

وهما في لجة العناق والأنين، وصراخ القلوب الصامت، ساد الصمت الأبلغ من الكلام، حتى تفاجأ المارة، باثنين يتشاجران، ومن ثم يلتحمان، ويدخلان في غيبوبة من البكاء، والشجن، وخرج الكيميائي، ليجزم في داخله، أنهما من المجاذيم، وغير عاقلين، وقد يكون تأثير الحرارة قد جعلهما يتصرفان بجنون، ويتمالكهما الهذيان، والدوران حول بعضيهما.

بعد لحظات، أفاقا من فقدان الوعي القصير، وجلسا على دكة مهجورة على قارعة الطريق.

«لقد بحثت عنك بلا جدوى، وتغير شكلك ولم أعرفك» هكذا قال ابن بطوطة لمسعود.

ورد الآخر بجملة تحمل المعنى ذاته، ومن ثم تحدثا في كثير من الأمور التي تشغلهما طيلة هذه السنوات، وتركا لنفسيهما الحديث عن «ابنة جبرين» ولا يعلم أي منهما أن الآخر يعرف كل شيء، وبقيت ذكراها كالجرح القابع في أقصى الروح، في أماكن بعيدة لا تصل إليها أيادي الذكرى، ولا تنبش قبر الذاكرة، سيرتها أو أحاديث عنها.

خارج الاتفاق على الوفاء بالعهد، وعدم كتمان الأسرار بينهما، كان موضوع ابن بطوطة، وابنه الذي قد يكون ليس بإبنه، وحيلة من الاثنين من زواج مر سريعا، أو من زيجة لابن بطوطة من جارية، أو حرة، ولكن تبرعت ابنة جبرين، وتبنت الابن، بعد أن دخلت في سن اليأس، وطلقها زوجها، ورحل بلا عودة.

خرجا سليمين، بقلبين أقوى، فقد شحنا بعضهما بطاقة المساندة، والتكاتف، وساعدا بعضيهما على تحمل أوجاع الماضي، وغربة الحاضر، وصمما على المضي قدما، نحو قادم أفضل، وذهبا إلى فندق ابن بطوطة، لجلب أغراضه، ومن ثم إلى الزاوية التي دفن في فنائها أشياء مهمة، لم يحملها معه في تجواله بالمدينة.

بمرح شديد وعارم، أقبلا إلى الجادة التي تسبق الفندق، فتوقف العجوز اليهودي، مذهولا، متسمراً بمكانه، كيف عرف صديقيه بعضهما، وواحد من الشرق والآخر من المغرب، فقد وصل صوتهما إليه قبل أن يصلا، يصرخان به:

«لقد وجدنا بعضنا، يا مخيريق، ولم نعد نحتاج إليك»

وانقلب الذهول منه إليهما، عندما وصلا، وعرفا أنه يعرف كلاهما،وأنه يعرف أن مسعودا يبحث عن ابن بطوطة، والعكس صحيح أيضا، ولكن لم يعرف أنهما المقصودان، فصرخ بأعلى صوته:

«يارب موسى، سبحان الذي أوجد الصديقين، بعد تيه في بلدك المقدس، مثلما جعل بني إسرائيل في التيه أربعين عاما».

«أي تيه أيها المعتوه» نادى المسيحي صاحب الفندق من خلفه.

خاف العجوز، ولاذ بالسكوت، فتجهز له مسعود:

- **لا تقمعه، وتزجره بهذا النعت.**

فرد المسيحي:

- **كلامه مبالغ فيه، وحنين وتعاطف معه، فما الذي جمع العرب ببني إسرائيل.**

انتفض ابن بطوطة العالم ابن العالم:

- **إنها كناية، فلماذا أنت غاضب؟ هل تريد تاريخ الأمم مقتصرا عليكم؟**

وأكمل قائلا:

- **أها.. نسيت أنك لست بعربي، فلا تعرف أصول البلاغة، ولا علم الكلام العربي.**
- **أعرف ذلك، ولكني أردت توبيخه.**
- **قل أنك محتقن، ومتطرف.**
- **لما لا تقول إني متدين، ومؤمن، أفلا يؤمن إلا المسلمون؟**
- **وما دخل المسلمين في الموضوع، فلتنزل عن مكانك العالي، إلى حديثنا العام، واتركني أحزم أغراضي، وأرحل عن مكانك الموبوء، وقمامتك.**

أي كلام، وقوة، ومنطق، وحضور، يحظى بها ابن بطوطة..

بهذه الكلمات والصفات، نطقت عينا «مسعود بن جابر» وهو يراقب رفيقه، ويقف متفاخراً فيه، مع أن التاجر وصاحب الفندق، صديق عتيق له، لكنه لا يرضى بالخطأ، كما أن عاطفته مع ابن بطوطة، حتى وإن كان مجروحا من داخله، ويحس بوخز في أعماق قلبه، من جراء سرقة «ابنة جبرين» وإن كان رماها للظروف، وانصرف خلف أحلامه، وقضاياه المقدسة، ولم يكن صافياً، وواضحاً معها، فهذا الشيء الذي جعله يغفر لها ولابن بطوطة، والتمس عذراً كريماً لها، وتمنى لها في داخله السعادة في حياته، وهو يتتبع أخبارها عن طريق العيون السرية المزروعة في كل طنجة، وتصله التقارير الشفهية، والمكتوبة بالحبر السري، فتصل الرسائل عبارة عن لفافات أوراق فارغة، فيسكب عليها محلولاً يجعل الأسطر والكلمات تطفو على سطوح الورق.

ومن قدم هذه الحيلة والاختراع هم العرب، وحاول المغول ملاحقة هذه الصنعة، وأخذها لكنهم قتلوا كل الوراقين، والكتاب السريين، بينما المماليك جلبوا حرفيين من الروم والفرس، وطوروا النبتات التي جلبها قوم أمير العرب من صحاري نجد وأطراف الفرات، فقد استغربوا من اختفاء الحبر عندما تمر عليه النباتات، وكذلك الأصباغ على رقاب الجمال، ولا تبقى إلا وسوم القبائل، ووشوم النساء على الوجوه، وما دون ذلك يختفي، حتى تم الوصول إلى ما يعيد ظهوره، وزاد حيرتهم عندما يموت رجل في الغزو، تندبه النساء ويركضن إلى مواقد النيران، ويسكبن الرماد على الرؤوس في الندب والعويل، وتعلق بقايا السواد على اليدين والوجوه، وهن يركضن في البراري، يتفقدن أماكن الغزو والغارات، يصطدمن بالأعشاب أو الأحجار ويسقطن على وجوههن، فيختفي الرماد، وتنجلي الوجوه، ومن التعب يسقطن على الأرض، وتهب الرياح تحمل عبق ورحيق زهور صفراء بها كرات حمر، ومع الندى في الصباح الباكر، مع تكشف الفجر، وانتهاء المعارك، وهروب الغازين، تعود آثار السواد للظهور.

درّب مسعود تلميذه النجيب، على استخدام هذه الخاصية المطورة أكثر مما عند المماليك في مصر، وما عند ابنة جبرين، التي لاحقها أتباع الإلخانات، وتعقبها، للحصول على مكتبتها، وقبلها بعشرات السنين، سرقوا مكتبات بغداد، وأوهموا أهلها أنهم أحرقوها، ورموها في «دجلة».

اختفى اسم «عطيل» فابن بطوطة يشعر بالخجل أن ينعته بالاسم الذي كان والده يحب أن يناديه به، فهو يحمل له الكثير من الوقار، ويثق به ثقة مبصرة وعمياء، وصماء وبكماء، ويشعر بالاعتزاز والكبرياء أنه يقلده في كل شيء، ويسير على دربه، من قلب طنجة وحتى دمشق، وسيكمل المسيرة معه، ويحمل الراية معه ومن بعده، فهو سيستلم زمام الوصول إلى الملوك، ورجالات الممالك في الشرق، ويفكر مسعود في أن يعطيه الكثير من الأسرار، ويرى فيه الإنجاز، الفائق للإجازة والمجاز.

تسلل الصديقان إلى سجن القلعة، واستطاعا الوصول إلى سجاني الشيخ تقي الدين ابن تيمية، واطلعا على الكتب والفتاوى التي أصدرها، فهما قد سعيا مع السجانين من العرب المتضامنين مع الشيخ وقضيته العادلة، وأوصلوا له القراطيس والأقلام، وسمحوا بزيارة عدد من الثقات والتلاميذ النجباء له، كي ينقلوا علمه المتجدد، ويخدموا الدين.

حين ذلك أدرك الرحالة أن سلطات مصر الخفية هي التي منعته من المكوث في القاهرة، ومن الزواج، وطلبت تأجيل الحج، لأنها تعرف بالأزمة مبكرا بين

ابن تيمية والشافعيين، ومع الصوفيين، ومع القاضي السبكي، والهندي، وأدركوا أن الجلسات والمحاكمات والمناظرات التي يدعى إليها في قصر تنكيز ونائب الملك الناصر، قد تهدده، حتى وإن نجحوا في حمايته، فلا يضمنون انقلاب طرف ما، وهناك صراعات بين الصوفيين وغيرهم، والملك قد يميل مع طرف ضد طرف، وتنكيز منفذ جيد، ويتبع مصلحته، والدولة تخلت عن الإمام الذي خدمها، لكنه أمسى عقبة في كثير من الفتاوى والكتب، وخصوصا أنهم لم يستطيعوا أن يجعلوه يسير وفق ما يريدون، ولم يتمكنوا من إخضاعه، أو تخفيف شعبيته المنتشرة بين العامة من صحراء العراق حتى صحراء إفريقية.

وما زاد من شعبيته أنه لم يكن ضد الصوفية، كما أشاعوا عنه، بل يراها من ركائز القوة، ولكنه اختلاف في التجاوزات، فلم يغفروا له، كما أن العسس والأمراء والقضاة غاروا من علمه، فكادوا له، وكان لا بد من الاحتياط لهذا الأمر من قبل محبيه في أعماق الدولة بدمشق وحلب ومصر، وإن نجح مهنا بن عيسى في إخراجه من السجن قبل عدة أعوام، فهذه المرة لن يتركوا مجالا إلى الملك الذي كان يحترمه، ويأخذ برأيه، وأجلسه سنوات عديدة عنده.

الطريق إلى هدم التجديد في الدين مستحيل، هذه هي التعليمات التي أبلغها مسعود إلى ابن بطوطة، وأخبره أن الأيدي السرية، قد فعلت كل ما يمكن فعله في السجن، ووفرت كل ما يمكن توفيره، ولكي يشعر أعداؤهم أنهم نجحوا، ويتم تحييد الخصوم عن الطريق، والإمام يجلس في سجنه حراً في عزلته، يرى جنته وعلمه في صدره، ولا يريد الخروج، فهو الحر، والناس في الخارج مساجين.

برحلة بين الوجود والعدم كما يقول عنه الكيميائي وطائفته العلمية، تجلى الصديقان في ليلة رمضانية، بعد صلاة التراويح، في الزاوية، والغريب أن الصديق اليهودي كان حاضرا معهما، يلف وجهه بعمامة سوداء، لكي يخفي وجهه، وحلقه للحيته، فأراد أن يشهد الإنشاد والإخلاص والاتحاد، والانصهار في حلقة معمقة من الانفصال عن الحياة، والطيران في أعالي التفكير، والسمو، والخروج عن الدنيا.

الكيميائي كان موجودا مع أنه إسماعيلي الأصل، لكنه غير متدين، ولا يرى فيهم ما يقنعه، لكن لابأس بقليل من التصوف، والأنس بمشاهدة الرقص الديني والإنساني، ويتأمل كيف يراقص الإنسان ألمه.

المجاذيم كانوا منتشين بلا عقول أصلا، مما جعلهم مادة معروضة أمام الكيمائي الذي أسس مع السلطات مارستان الجذام، لمعالجتهم، ونجحوا في فك الكثير من العقد، والمشاكل وفي تغيير فكرة أن الجذام هو عقاب من اللّه للبشر، بل أثبتوا أنه مرض، وليس فقدان للعقل الكامل، ولا علاقة له بالدروشة والنسك.

في أجواء رمضانية مشبعة بالروحانية والإيمانيات، عزم الصديقان على السفر صوب تدمر وصحراء الفرات، على أن يبقى حنا أبو عبدالله بدمشق لقضاء الكثير من الأمور، والترتيب مع الرسل الذين سيصلون من المدن التي مر بها ابن بطوطة خلال سفره من مصر إلى الشام، لكي تترتب أمور حراسة المدن التي فيها قبور الأنبياء والصالحين، وتحفظ بعناية من حراس مخفيين، وفي كل مدينة كما هو الحال في القاهرة وتونس، سيتعين إيجاد نائب غير معروف، وأمير للمدينة، وله أتباع وتصله المخصصات بطرق معقدة، من رجال الدولة العليا، وجرى اختيار ولاة المدن والأمصار في غزة والخليل وطبرية، وبيت المقدس، وما حولها من مناطق مقدسة فيها الكنائس وحارات اليهود المحفوظة فيها الجنيزات المهمة، وآلاف الملفوفات من أوراق البردى والوثائق والمخطوطات، كما هو الحال في معبد ابن عزرا في قلب القاهرة.

فمهمة المسلمين الحفاظ على كل موروث من وصول أيدي العابثين وأعوانهم، ومن الضياع ومن تقبات الزمان عبر السنين، وأخذوا على عاتقهم الحفاظ على القبور والأماكن المقدسة، ويسافرون إلى قلب الصحراء، للاتفاق مع العرب الذين قدموا مع صلاح الدين إلى هذه الديار، لطرد الصليبين الذين أرادوا أخذ هذا التاريخ، وسلبه، ولكنهم عجزوا لأنه محفوظ بسرية وعناية، ولم يكشف عن أماكنه، وكذلك هو الحال مع المغول والأرمن.

دهاة المسلمين والمسيحين واليهود يعملون يدا بيد، مع أياد خفية وظاهرة، ويتكاتفون لمد هذا الحلف وتمتين حباله، وشدها بلا ارتخاء، وتجند البربر والمماليك والبدو والنصارى واليهود، وأكملوا مسيرة الأوائل من عهد موسى بن ميمون طبيب صلاح الدين اليهودي، وبيبرس وقطز، وحضر آلاف الرجال من قلب الصحراء، واتحدوا من المجندين من المماليك الغرباء، الذين شكلوا قوة ضاربة، واستعادت الأراضي توزانها.

ويعمل معهم الكثير من أولاد الناس، وهم العبيد البيض المجلوبين منذ طفولتهم من ديار الروم والجبال وما خلف البحر القاسي وما حوله وبعده من سهول وبلاد.

ما إن وصلا إلى الصحراء، حتى اجتمع حولهم مجموعة من الأعراب، وهم منهكان من الصيام والعطش الشديد، لكهنما لم يفطرا، لعدم قدرتهما على قضاء الأيام بعد انتهاء شهر رمضان، وسيبقيان على سفر لمدد طويلة حتى الحج، ولن يتمكنا من أداء الفريضة، دون تسديد ما عليهما من دين أو زكاة وصيام، وفي الحر اللاهب، والقيظ الحارق، جلسا لمدة يومين في بيوت شعر مشرعة، ويعتمدان على الماء الفاتر الموضوع في الفخار، ولبن الماعز أو الإبل، مع السمن والتمر، في الفطور والسحور، ففي أطراف الصحراء هناك رجال بلا قطعان أغنام، ولا مؤونة كافية، واختلف ظن ابن بطوطة المبني على سماعه عن كرم العرب، لكن لم يعرف أن المرابطين على الأطراف هم حراس، ولا يمتلكون القدرة على الدخول إلى قلب أماكن قومهم، والذبح والسلخ للضيوف، وما إن وصلهم مبعوث الأمير، حتى اصطحب الضيفان، وسط طرق ملتوية بين الوديان، وفي طرق وعرة، لكي لا يسهل الوصول إلى مرابعهم، فشاهدا الأنعام من آلاف الإبل والأغنام السمينة، والخيول والبغال، والخيام التي تغطي مساحات واسعة، وكل من يمرون من جانبه، يخرج مرحباً ومهللاً، ويدعوهم إلى صدر مجلسه، حتى وصلا إلى بيت من وبر الماعز وصوف الأغنام مقسم إلى سبعة أجزاء، فيفصل بين كل جزء وآخر عمود ترتكز عليه الخيمة وفوقه حبل مشدود بقوة ومضروب بأعواد قوية إلى الأرض.

ونيران حطب ذو دخان كثيف، عليها أوان نحاسية وأباريق حديدية كبيرة وصغيرة، تفوح منها رائحة القهوة، تجعل لب المخ ينتشي ويهفو إليها، ويفيق من كل مافيه.

وذبحت لهم الأغنام وصغار الجمال، عندها عرف ابن بطوطة أن كرم البدو ليس مجرد أساطير، بل إنه كرم فاق التوقعات، وأدرك من أين أخذ أبوه عادة الذبح والولائم لضيوفه العرب، ومسعود بن جابر معتاد على هذه العادات، وممارس لها لو دعت الحاجة، ولو أنه تحوّل إلى حياة المدن، واندمج فيها.

ملأ المسافران بطينهما من الخبز المنقوع بإدام اللحم، والخراف والإبل المسجاة بكاملها في صحون كبيرة، ولا يجلس إلا قلة من الرجال على الصحن الواحد، ويلتهمون الشحوم أكثر من اللحوم لتعطيهم طاقة في الرحيل والنزول، ويحظر أكل رأس الشاة إلا بتقطيع كبيرهم وأميرهم، وإذن منه.

بعدها، استمتعا بأحاديث الرواة الغريبة المستوحاة من الصحراء، وقصص الغزو، والبطولات الكبيرة والحروب الكثيرة، والقصائد التي توقع ابن بطوطة أن يسمعها في بلاد العرب، ووجد أن المدن الكبرى مسيطر عليها من أعاجم أغلبهم لا يفهمون الشعر، ولا يعيرونه اهتماما، فملأ إناء عقله بما جادت به قرائح الشعراء، من سحر البيان.

اتكأ أمير العرب على ذاكرته الحادة، فاستذكر ابن بطوطة الذي شاهده في القاهرة، فنادى على الضيفين وأجلسهما على يمينه وشماله، تيمناً بالعادة العربية بإعطاء صدر المجلس للضيف والناس المهمين.

- **أهلا بكم في ديار العرب، أقصد بلاد العجم.**
- **فرد عليه ابن بطوطة، باحترام ووقار، وعزة نفس وإباء:**
- **بلاد اللّه واسعة، وكلها بلاد المسلمين.**

رمى الأمير عليه ابتسامة، وأعجبه رد الشاب وحماسته، وسرعة بديهته.

- **أحسنت، وكفى.**

فهم الحاضرون أن الأمير لا يريد الحديث عن خلافه الكبير مع الملك الناصر، ولا مع تنكيز نائب دمشق، محافظا على هدوئه كما تقف النسور فوق أعالي الجبال، ولا تهزها الرياح، ولا تحرك ساكناً، وإن كانت من داخلها تحترق أو تموت جوعا.

تمحص الدهاة من حكماء ملاصقين للأمير، الضيفين، وعقدا معهما علاقات وصحبة امتدت لأيام، حتى أن ابن بطوطة، ذكر لهم بأن له زوجة، قد تركها في دمشق، ولم يكونوا على علم بأنه مبيت للنية، بعدم العودة بعد الحج إلى دمشق، وسيتركها إلى الأبد، ولم يرتوي أو يمل منها، ولا يزال في أول أيام الزواج.

قال له مسعود بمزاح ثقيل:

- **أتترك حياة الصيد والقنص والفروسية، وجلسات الأدب، لتذهب إلى أزقة دمشق الضيقة، وأعاجمها، من أجل امرأة.**

بلا تفكير طويل رد ابن بطوطة:

- **لا تصطد بالماء المكدّر يا عطيل.**
- **يااااه.. لم ينادني أحد بهذا الاسم منذ سنوات، إنه اسم مغربي لا يستخدم في المشرق.**

رد أحدهم:

- **هل استعرت اسماً غير الذي نعرفك به؟**

التفت ميمنة وميسرة ووقف ليطل من بين الرواق وفتحات الخيمة ليتأكد من عدم وجود جواسيس أو آذان تسترق السمع، وهمس بصوت خافت ومخنوق:

- **إنه من دواعي السرية، وضمان عدم تتبع أحد لنا في تقاريرهم، وإخباریاتهم.**

من هذه الجمل، أدرك ابن بطوطة أن هؤلاء ليسوا مجرد بدو وغزاة كما يسمون أنفسهم، وقطاع طرق كما يصفهم أهل المدن، ولا يحكم عليهم من هيئاتهم الرثة نوعا ما، أو من لحاهم غير المهذبة، أو الخيام البسيطة التي يسكنون بها، والصحارى التي يتخذونها أوطانا لهم.

كان هناك رجل متوسط العمر لم يتمكن منه المشيب بعد، يجلس على أطراف الخيمة، يحمس قهوة، في صحن أسود من كثرة الاحتراق، ويقرب الجمر إلى إبريقه، ويضع على صحن آخر مجموعة أقراص من عجين القمح، ويفردها على على حجم كف اليد، ليصنع منها ما يشبه الأرغفة، ليسد جوع الفرسان الذين لا يشبعون، وهو قادم إليهم، سكب لهم القهوة العربية، التي أدمن ابن بطوطة عليها، وامتنع عن صبها له، ثم رماها بغضب شديد.

- **لماذا كل هذا الغضب، لقد قدمت لي القهوة، وأنا استجبت.**

قال مزمجراً كأنه أسد:

- **مد يمينك، إنها إهانة أن تمد اليد اليسار.**
- **وما أدراني بعادات العرب غير المهمة، لقد تركت كل ما**

نحن فيه، وأمسك بمدي ليساري، كلها أياد يا سيدي.

- **وما أدراك، الاهتمام بالصغائر، يجعلك تمسك بزمام العظائم، فلا تستغصر فتُصغر.**
- **ولا تستكبر، فيكبر عليك، وهذا ما أضاعنا كلنا.**

بتجاوز وتغافل، من أجل إعادة أجواء الجدل، فقد انفعل لا إرادياً، فالعرب يكرهون من يلوث أو يضرب بعاداتهم، وعاد الرجل إلى التذكير بأن اسم مسعود بن جابر، وابنة جبرين، كلاهما جبر في جبر، واستعارة، فضحك الحاضرون، وتلاشت ملامح الغضب والتجهم في وجوه البدو الصلفة أصلا.

قال مسعود بن جابر:

- **إنها لصدفة أن يكون اسم شهرتي جابر، وهي ابنة جبرين، إنه يدل على أننا لا نجيد الكذب أو التمثيل كثيرا، كما أنني لا أجيد ترتيب اللحية، وها أنا أعيد إطلاق شاربي الذي كنت أحلقه وأُكرم لحيتي عليه في بلاد الفرس.**

لا يحتاج الأمر إلى حنكة أو تدقيق، فقد لاحظ ابن بطوطة اهتمام العرب بالشوارب، على عكسهم في المغرب، فهناك اهتمام باللحى، كسنة إسلامية، بينما البدو من قبل الإسلام، يعتبرون الأشناب متعلقة بشرف الرجل، فطوال جلسات الرجال وسمرهم، وجدهم يحلفون بشواربهم، ولا يرتضي الرجل أن يمس أحد شاربه، حتى على سبيل المزاح، كما لاحظ في الشام ومصر كثرة الحلف بالطلاق، بينما البدو لا يحلفون بالطلاق، لأنه يبدو شيئا لا يدل على صدقية الرجل منهم، والزواج والطلاق أمر سهل جدا، بل مقياس للرجولة والفروسية، وتحب النساء الرجل المزواج، ويطلبن الفرسان الشجعان بأنفسهن.

مسعود وجد من يحبها، فهو كان كل وقته يبحث عمن تشبه ابن جبرين، وبعد يوم واحد من المكوث في قلعة أمير العرب التي يتحضن بها مع الأشداء من الأعراب، خشية غدر الناصر كما فعل مع قرانسقور، وكذلك مع شنكير بيبيرس الذي طارده في الصحراء، وحبسه في جب، حتى مات جوعا بعد أن أكل من جيف الحيوانات الميتة.

كانت نساء العرب الجميلات يحافظن على الزينة، من الكحل، وصبغ الوجوه، وبعضهن يضعن الوشم الأخضر على بياض أو سمار طفيف، ويطلقن شعورهن والظفائر الغليظة، مع العيون الكبيرة، والأجساد الممشوقة، والمرتوية كالخيول الأصيلة.

فتنته امرأة لا يقل حسنها عن القمر مرتبة، ونورا، تتوشح بالذهب حتى جيدها، ولا ترتدي غطاء لوجهها، وتمتطي غير العسيف من الخيل، ولا تهاب دجى الليالي، ولا وحوش الصحاري، فسابقها، وخرجا من المضارب، حتى تعبت الخيول، وما إن وصلها وتجاوزها، حتى غضبت واشتعلت بها نيران العنفوان، فأخيرا وجدت من يقدر عليها، ويغلبها، بل ويكسرها، ويحكمها، وهو المحنك صاحب الخطط، والقدرات، وآسر القلوب والعيون، فوقعت في حبه من أول نظرة، ووقفت لوقوف كل أعضائه لحسنها، فغاب عقله وراءها، وصار منشغلا بها، فواعدها في الليل بين هضبة وواد ينحدر إلى الفرات، ظن أنه بلا بشر، وما إن وصلها، وقبل أن يبدأ الكلام، هجم عليها كالصقر الجارح، فهبت عليه كالريح، حتى ارتمى أمامها، فنزعت عنه ستره، وتسلقت جسده، وأروته بلا تعب، حتى خار ونشف عسبه، من شدة الضراب، وصار يهدر بزبده كالجمل.

تكررت المواعيد بين المتعطشين الثائرين، وأثار الغمز واللمز ممن يشعرون بالغيرة والغضب من الذي أخذ ما لم يستطيعوا أخذه، ووشوا به إلى أهلها وهم من عظام القوم، وأهل جبروت وسلطة، فخططوا له، وكادوا ووقعت المصيبة، في قتله غيلة وهو فوقها، وبثوا شائعة أن هناك جواسيساً للأمير اكتشفوا أن هذا الرجل يجند الرجال لصالح الملك الناصر، وتنكيز، وقبل أن يصل الخبر إلى ابن بطوطة، كان قد وصل إلى الأمير كل شيء، فبارك هذه الرواية، حفاظا على سلم أحلافه، ولم يكن يريد أن يتمرغ الشرف العربي، فالعرض مصان، ولا أحد له قدرة على تجريم ما فعله أهلها، أو الكلام معهم، وعندما شق الصباح طريقه على البر والنهر، تم استدعاء ابن بطوطة المفتقد لصديقه، شبه الوحيد، ليصل الخبر إلى أذنيه قبل أن يراه ممداً أمامه.

صرخ حاجب الأمير:

«خيانة.. خيانة.. لقد اكتشفنا خيانة ممن أكرمناهم».

وقال آخر:

- قلنا لكم المماليك غدارون، الموت للناصر، لو سمعتم رأينا ودسسنا له السم، لانتهى كل هذا، وجاء من يسمنا ويزرع النار في وسطنا، قتلنا رسول الناصر، مسعود بن جابر، فليمت، وإلى جهنم وبئس المصير.
- ماذا؟ قتلتم مسعود؟

قال ابن بطوطة هذه الكلمة، وصمت، بلا بكاء، وارتفع صراخه إلى الداخل، حتى كاد جدار صدره أن يتشقق ويتكسر، وتفطر حجر رأسه، من هول المصيبة الكبيرة، فكيف يقولون عنه خائن، وكيف يقتل بهذه الشناعة، وهو يركض إلى داخل الجموع، وجده مرمياً في الساحة، مشوه الوجه، ومنزوع العينين، ومجدوع الأنف، ومفجوج الرأس، فارتمى على ركبتيه، يصرخ ويزعق حتى ردت الجبال صدى صوته.

في الداخل جلس الأمير يبكي، حتى ارتوت لحيته الجافة وصحراء وجهه من الدمع الغزير، فهو يعرف مدى خدمة مسعود، ويعرف كيف ساهم في توطيد حكم الأمير، وكيف أن قتل الشرف هو خيانة للقضايا الجسام العظام، وما أفدح خسارتهم.

أبهذه السرعة، وهذه الحالة، يذهب مسعود، وتذهب معه الأحلام والمجهودات، وقد كانت صنائعه بيضاء كشفق الفجر، فلماذا تتحول إلى سواد؟.

كان أحد الثقات يقولها ويتمتم بكلام من سخونة الفقد، ووجع الظلم، وقسوة البشر.

ولا أكثر من ألم مع تشويه السمعة، بأن يوصم بالخيانة إلى الأبد، فلم يكتف منافسو الأمير بقتل الرجل المخلص، بل شوهوا صورته وخلقته، حتى ضرب الجنون رأس ابن بطوطة، كيف يكون هذا الصديق والمعلم خائنا، وأنه قد أضاع كل هذه السنوات، والأعمال، ليضيع في مفترق طرق.

ما الذي جعلهم يقتلونه بدم بارد، ما هي جريمته، ومن قتله، وهل أمرهم الأمير، أم تصرفوا من تلقاء أنفسهم بردة فعل ملؤها الغضب والتسرع، لماذا لم ينتظروا حتى يعرض على قاض ومحكمة؟ أسئلة كثيرة دارت في قلب ابن بطوطة، الذي لم يستطع أن يحتمل الحادثة، وتلاشى صوته من شدة البكاء، فماذا سيقول لأبيه، وماذا سيعمل في عمله الذي كان مسعود يقوم به معه، ويساعده فيه، ويرشده؟

وتكاثرت الأسئلة والشكوك والحيرة، حتى كاد أن يجن الشاب الذي يواجه مصيره المظلم لوحده، وقد تركه العرب حائرا، ومكلوماً، وما أشد أن يشك الصديق في صديقه، ولا يجد من يقول له الحقيقة.

أراد الوصول إلى الأمير فتم منعه، وجره الفرسان إلى تحقيقات مكثفة، لكي تنطلي التهمة على المقتول بأنه خائن، ولكنهم يعرفون كل المعرفة أن حليفهم، والمتعامل معهم كان أوفى من الوفاء، وخسارته لا تعوض، ورموا العاطفة جانباً ليزيدوا من صقل خليفته ابن بطوطة الذي وجد أميرهم في بريق عينيه الذكاء والمجد، وأدرك أن له كرامات ومكاشفات ستؤتي ثمارها، فلا أحد يموت وراء أحد، ولا تقف الدنيا على إنسان.

لم يصدق قلبه ولا عقله شائعات العرب، ولم يتسرب إليه خبر أن القتلة هم من منافسي الأمير، وهم من أحلاف الناصر، ويقضبون منه الأموال والذهب، والأمير يعلم ذلك، ويدرك أن عليه التصرف بحكمة، وأن يتقبل قتل أحد رجاله بحزن مكتوم، وفجيعة موؤودة.

وصله خبر أن عليه المغادرة سريعا عبر نفق من القلعة يصل إلى تدمر، كان أهل هذا المكان قبل الإسلام قد شقوه تحت الأرض، من أيام الرومان، وله بوابات في قلب الصحراء يحفظها نساك ورهبان، فجعلوا ابن بطوطة يغور فيها، وشددوا عليه أن يترك دمشق حتى وإن وصلها في يوم العيد، فيودع زوجته وأهلها على أمل أن يعود سراً لكي لا يعرف به أحد، وانلطت عليه حيلة أنه مطلوب، وأنه متهم بالخيانة مع صديقه، وعليه الخروج من أرض المماليك إلى الحجاز ثم إلى العراق وفارس، وعنده مهام عصيبة بعد تهمة الخيانة العظمى، وهي أن يودع لدى شيخ المالكية، ويترك عنده بعض الرسائل لأهله يخبرهم بوفاة مسعود بن جابر، وإلى ابنة جبرين لكي تقيم له الحزن الذي يستحقه، والعزاء بداخلها، دون أن يعرف أحد، وحتى لا تشك بحبه له ولها، ولكن لا يستطيع أن يقول غير خبر مقتضب في طرف رسالة، وأن ينقل لهم خبراً مع العائدين من الحج عن طريق الشام، ومن ثم إلى المغرب، لأن بعض الأشياء تقال بالسر، ولا تكتب، وعلى أبيه أن يعرف ما حصل من مكيدة، فبعض الأشياء تفهم ولا تقال.

قبل الوصول إلى دمشق، أرسل لحنا ومحمد الشامي ليخبرهم بأن يلتقوه في حوران، وليس في قلب المدينة، ولم يبت إلا ليلة، ومن ثم تم ترتيب سفر له مع قافلة للعرب، كان أمير العرب عن طريق بعض معارفه قد رتب لابن بطوطة مع هؤلاء العجارمة السفر، وقد أوصى كبيرهم محمد بن رافع، والقاضي العماري المتحالف معه على ابن بطوطة ليحافظوا عليه لحين

الوصول إلى عرب تابعين لهم في تبوك والعلا، حيث سيلتقي بتجار الشام ومرسولي الأمصار من النصارى واليهود، فهذه آخر نقطة سيصلون إليها، وهناك سيعقد اجتماع يوكل فيه إلى ابن بطوطة للقيام بالمهام الموكلة إلى مسعود بن جابر، وتزويده بصكوك لنقل ملكية أمواله وعبيده ومزارعه وكل تجارته إلى بن بطوطة ليتصرف بها، ولكنه رفض هذا النقل، وهذه التصرفات المتلاحقة، لأنه ما زال في مرحلة حداد وعزاء، ولم يشف بعد من جراحاته.

«هل أنا من تسبب في قتل خادم الإسلام، والبلاد؟! هل سأموت وأفنى مثله، وتغتالني أيادي الغدر، هل سأوصم بالعار، ويلوثون سمعة وتاريخ أبي وقومي؟ والله إنها لمصيبة، وما أكبرها عند اللّه، فبعد كل هذا الإخلاص، نجازى بالموت والتنكيل؟ يا لأمتنا وخياناتنا؟ فالصادق المخلص يسمى خائنا، والخائنون الغادرون آمنون ومنصورون».

ساوره اللوم، ولم يساروه الشك بأنه فعلا قد تسبب بمقتل مسعود، فلقد كان يبحث عمن تشبه ابنة جبرين، في غموضها وجموحها، وفطنتها، وفي أوصافها، فحاول أن ينتقم من حبها، فأكثر من الزيجات، وحب النساء، والتعلق بهن،عل وعسى أن يجد من تنسيه سحرها، وباءت كل محاولاته بالفشل بأن يستعيد قلبه منها، حتى جاءت من أفقدته حياته.

في القلعة على الفرات جلس أمير العرب، يقلب الأفكار في كتاب عقله، كيف سيحل هذه المعضلة، وطلب من حاجبه ومن أبناء عمومته الرأي السديد، فتدخل أحد أبناء عمه مخاطباً إياه:

- **لماذا كل هذا الحزن يا أميرنا، كلب قد أخذ حقه.**
- **لا تقل عنه ذلك، أخطأ في حق نفسه، وأخطأنا في حقه، لم نجلب له جارية، أو نزوجه، وتركناه بلا امرأة، فضعف أمام تلك الجنية، وأنتم تعرفون سحرها.**
- **ساحرة، وجنية، فهي مرتبطة بجن الصحراء، وفيها جموح غير إنسي، وشبقها حارق ومارق.**
- **اتركوا عنكم هذا الحديث، ولنترحم عليه، ولربما يعود أصحاب الرايات إلى الصحراء، أو نعيد تجارة العبيد، لكي يحظى الرجال المقاتلون بالحواري وما تملك أيديهم، فالزواج حصن الرجل، والمرأة هي مقره ومستقره، من دونها يجن الرجل، ويرتكب الحماقات.**
- **هناك سؤال يشغلني، لماذا بثوا شائعة أنه خائن، وهو**

صديق وحليف منذ زمن؟

- **لكي ينازعونا الإمارة، ويزعزعوا حكمنا، وسيطرتنا، وجاءت إليهم الحادثة جاهزة.**
- **هل تعلم ماذا فعلوا بالفتاة؟ لقد جنت من منظر الدم، وتاهت بالصحراء، ويقال إن الأرمن قد خطفوها وباعوها بسوق النخاسة، ودمغوا على رقبتها وسما.**
- **الستر، إنه أعلى درجات الرزق، تركوها مدللة، وتخوض وتجول في كل ما تريد، حتى فات عسافها.**

تصرف العرب بطريقة تقليد المماليك، وجلبوا مملوكين لهم، ويتباهون بمن لديه عبيداً أكثر، حتى لو كان فيهم خصاصة، وكل قوم يضعون وسوما على الإبل، وعلى رقاب العبيد والجواري، لتدل عليهم، فلو ضاعوا أو هربوا فلن يستطيع نخاس، أو تاجر عبيد أن يبيعهم، ولا يبيعون أنفسهم، إلا بصك تحرير، وكل جارية تحمل من سيدها يحتكمون للمذاهب الأربعة، فكما تقول الحنفية والمالكية، بأن الولد يتبع والده، فإن كان حراً يغدو حراً، وإن كان والده مسلماً وأمه من دين آخر، فيتبع دين أبيه، وهناك من قال لو حملت الجارية من غير سيدها، فتعود ملكيته لسيدها، وأخذ الأعراب هذا الأمر من المدن الكبيرة، واستندوا إلى أحكام قضاتها في دمشق وبغداد والقاهرة.

وهذا ما فعله والد ابن بطوطة عندما جاءته الجارية وسيدها اليهودي، فقد نسب الولد لدين والده لأنه يتبعه.

تلك الجارية التي ستغدو سيدة، وتتحكم في الأخبار والأمصار، ومصائر العبيد والأحرار، وتتفنن في كيفية زرع الخيانات والفتن في كل مكان، انتقاما من ماضيها، وإيمانا منها بأن الثأر والحقد لا ينمحيان من نفس بني الإنسان.

والمرأة التي تم قتل مسعود من أجلها، لم تكن من العرب، إنما هي ابنة جنية، قد عشقت سيدا في قومه، وأرادت أن تترك له مصيبة تبقى معه كل عمره، فكانت تواعده، وتعترض طريقه في الصحاري، وحاولت سحبه إلى فوق عرش الماء، وبين أشجار الصفصاف التي تعانق الماء الغزير، حيث يعيش قومه، ولكنه كان يصادق العفاريت ومارداً يتبع ساحراً يهودياً له بيت في وسط الصحراء، يقصده العرب من رجال ونساء، لعمل السحر، وما يزيد أموالهم، وما يحفظ أبناءهم، ويدلهم على طرق الخير، ويعلقون التعاويذ والحجب بخيوط خضراء وسوداء على رقابهم، فلم تكن تستطيع الاقتراب منه، فعشقته حتى هامت وجنّت الجنية.

ابنة الجنية كما يسميها والدها غير الحقيقي، كبرت بينهم وحملت اسمهم، وكانوا يستطيعون أن يخبروا مسعود بن جابر بهذه الحقيقة التي يعرفها كبار السن عندهم ونساؤهم اللاتي يغرن من جمالها الذي لا يذبل وقوتها التي تسقط فحول الرجال، ولم يكن لديهم مشكلة في جموحها وشبقها، وعشقها للرجال الذين يقدرون عليها، فلا تسلم نفسها بسهولة، ولم يكن يستطيع الرجال مقاومتها، فإن أرادت بلغت، وإن تألمت بطشت، وفجرت وبالغت في انتقامها.

واستعمل القوم المعادون للأمير، والمتصلين مع الملك الناصر، هذه القصة ليتخلصوا من الخيط الذي يدير اللعبة، ومن يعتبر العقل المدبر، للأمير المسيطر، والقوي الذي يتحالف مع إلخانات المغول تارة، ويعود تارة أخرى إلى أحضان حكم المماليك، وفي الأخير يسكن في المنتصف على حدود الدولتين العملاقتين، يلاعب القوتين ببراعة، كرقص الجنية الإنسية في عرض الصحاري وبطون الوديان لمسعود بلا موسيقى وضرب عود أو دفوف، فقد كانت تغني بداخلها، وتتمايل كأغصان أشجار البراري شبه العارية، في سكون الليالي البيضاء المقمرة.

الملك الناصر كأن أحد أقطاب اللعبة، ولا يزال على العهد مع الدولة العميقة، التي تحمي الدويلات في الغرب والشرق، والهند وما حولها، ويعرف أن مسعود قد توارث من أهله التنسيق، والحل والربط لأمور العرب، مع ولاة الأراضي وحكامها، وورثة الدولة منذ أن أحضرهم صلاح الدين، وبيبرس من جزيرة العرب، وأمير العرب يحفظ تلك العهود، ويعمل من أجل الدين، ولو كان يستطيع الرجوع إلى دياره، ومن يحل مكانه، لعاد هو وأقوامه من القبائل التي قدمت معه، وحاربت الصليبين، ووقفت على ميمنة جيوش المماليك التي حاربت جيوش هولاكو، وقازان، ومات لهم الآلاف من الرجال الأشاوس الذين لا تعوض حياتهم بثمن، بل إنهم دافعوا ببسالة وقدموا الأرواح رخيصة لهدف سام، وهم يعرفون أن الناصر وبعض الأمراء والمنتفعين قد دقوا مسامير العداوة في العلاقة معهم، واستغلوا كبر أذنيه في سماع الوشايات، وعداوة أصحاب الطرق المبتدعة والمصالح والمنتفعين بإبعاد العرب عن سلك الدولة، والأئمة الصالحين، أصحاب الرأي السديد، وقد بدأت الدولة تستعيد عافيتها، وتقوى، فكان الناصر يقف معهم، وفي نفس الوقت، يعمل بسرية مع الأحلاف الخفية، ويتواصل مع الحكام، والقادة الكبار المتوارثين للمجد والواجب.

لم يكن أمير العرب يعلم أن ابن عمه أحمد بن عميرة قد عقد اتفاقا مع الملك الناصر، لإزاحته، وجعل أحلاف القبائل تتبع له، لتهل عليهم عطايا

المماليك، وتمطر عليهم السماء ذهبا وفضة.

أما القلاقل التي كانت تحوف الصحراء، فحاول ابتلاعها واحتواءها، فقد اعتاد الهدوء كالجبال، ومهما ضربته العواصف، وحاولت أن تحركه، يبقى صامتا وثابتا، وهذا ما جعل الأمراء يحتارون في أمره، فقد علمهم أن إتقان الصمت حرفة عربية، وأن ذلك جزء من الحكمة.

خرجت القوافل من دمشق باتجاه بصرى الشام وحوران لتعبر الصحراء إلى تبوك، ومن ثم العلا، وهذا موسم التجارة لأهل القوافل، والأعراب والحرفيون والعبيد الذين يرافقون أفواج الحجيج، يقدمون الخدمات، ويصنعون لهم الزاد، ويعتنون بالإبل والبغال.

لم يستطع ابن بطوطة تحمل المغيب عن أهله، وأرسل مع خيول البريد خبرا بأنه ذاهب للحج، ولن يستطيع المرور بدمشق، بل سيوافيه مخيريق ومحمد الشامي وحنا النصراني على الطريق إلى الحجاز، ولديه ما يكفي من المال ليجهز نفسه، وقد أمن له الأعراب ما يسد حاجته، ويؤمن رحلته حتى الوصول إلى المغاربة والمالكيين في المدينة، قبل مكة.

الحسرة أكلت قلبه على عروسه التي كتب لها أنه عائد بعد الحج، إن لم يستجد جديد، وفي قلبه رعد ووعيد، على من قتلوا مسعود، وهدموا كل الجهود المبنية، وحاولوا كسر هيكل العزم، والمخططات السرية، وتمالك نفسه، وربط على قلبه، واستند على عزائم صبره، وحبائل تضحياته، ونبل مقصده، وسلامة نيته.

وجد القافلة تنتظره، ولم يكن يريد أن يصل، فيرى وجوه من يذكرونه بالفقيد، والمصاب الجلل، وهم يمشون على بحر من النيران، مكلومين، ومفجوعين، وقلوبهم تحولت لبراكين تنزف حمما من غضب لأخذ الثأر، وعيونهم تقطر جمرا من شدة الحزن.

استقبله مخيريق بالدموع التي تنزلق على وجهه الأملس، حتى تبلل الأرض تحته، وحنا يتمتم ويقرأ تراتيل بلغة غير مفهومة لهم، ويذكرهم بعيسى المسيح، ودروب الآلام، وعذابات الوجود، ومحمد الشامي منزو لا يريد كسر الصمت، ومارد الغضب مخنوق ومحبوس به، كأن عاصفة مسجونة بداخله، تنتظر لحظة الخروج، والفرج، لتحرق الأخضر واليابس.

مع أن ابن بطوطة هو الأصغر سناً، إلا أنهم كانوا ينتظرونه ليسمعوا مشورته، هل يعودون عن الحج، ويذهبون إلى العراق هرباً من بطش

المماليك خشية تصديق روايات الوشاة، أو إلى بلاد الفرنجة، أو يعودوا أدراجهم عن طريق البحر إلى طنجة والأندلس، فقد ضاقت بهم أرض اللّه الواسعة، وخافوا من البطش والغدر، بعدما ذهب مثلهم الأعلى ومات فجأة.

خفف ابن بطوطة من وطأة الألم عليهم، كما نزع عنه رداءه وجلبابه، من شدة الحر، والاختناق، وخطب فيهم لوحدهم، بعيدا عن أفراد القافلة الذين لم يتعرفوا عليه.

- **أيها الأصحاب، إن مصابنا كبير، وألمنا لا تسعه الدنيا، ولكن نحتسبه عند اللّه، ونذهب إلى بيت اللّه الحرام، لنحج ونسعى، وقد تعاهدنا أن نسير في دربنا، بلا رجعة، ونحن نعرف أن أغلبنا سيفقد عمره، والمخاطر تتلقفنا، كما يتلقف الأيادي ما يسقط من الأشجار وما ترميه الرياح وتذروه.**

بصوت مختلط بالعويل، ودموع مع مخاط الأنف، وعبرة من الجوف، قال مخيريق:

- **كلامك يزيد الوجع، لقد ذابت أرواحنا من شدة الحزن.**

وشق ثوبه وراح يحمل من التراب والحصى الصغير، ويضع فوق رأسه، مثل ندب النساء، وأمسك ابن بطوطة بيديه ونهره قائلا:

- **توقف يا رجل، إنها عادات الجاهلية.**
- **اتركني أبث حزني، ووجعي.**
- **أنت تعبر عن أحزانك، لا عن فقد مسعود فقط، لقد حرث المصاب جروحك.**

بصوت خفيف، قال محمد له:

- **اتركه يا أخي إنه مسكين، وابن جابر له أفضال عليه، وثأرنا لن نتركه، ولو أن الصبر أغلب من الوهن.**

تدخل حنا المقدسي:

-

- صدقت، الصبر أغلب من الوهن، ولنا في تضحيات الأنبياء، وصبرهم على البلاء، خير مثال ودليل، فلتحجوا إلى الرب، ولنأجل الثأر، حتى يحين وقته، فلا نستعجل، ولا تدفعنا الحمية لارتكاب ما لا تحمد عقباه، والعاقبة للمتقين.

توضأت القلوب بالتقوى، ودخلت في محراب من التفكير العميق، وانزوى ابن بطوطة، يراجع أفكاره، ويعيد احتساب الزمن ومراجعة الأحلام، والمواقف، وتمالكه الشجن والتعب، وتراكمت سيول الهموم التي قطعت طريق المنام، ولجأ إلى لفافات من الورق ويراع مهمل، وكتب لابنةٍ جبرين رسالة مطولة، وإلى بعض العملاء الذين يستعملهم في مصر، معلناً الشروع في العمل بقوة، واستلام زمام المهام، خلفا لمن خسروه، ولم ينس أن يكتب باستفاضة لوالده، ورسالة أخرى لوزير السلطان المريني، ولم يخش أن يطلع عليها أحد، فقد أصبح بارعاً في الكتابة بالحبر السري، ويرسل لهم مع قوافل العائدين من الحج ما يفكه، ويجعل الكلمات تظهر، ولا يهمه لو تأخر الأمر، فهم ينتظرون عودته، ليجدوا ضالتهم في حروفه.

ومقت أن يكتشف أحد الأمر، وقد تجاوز بما فضفض به، وأسر إلى المرسل إليهم، فآثر العدول عما بدأ به، وحفظ الرسائل، لكي يجد طريقا آخرا يخبرهم بما حصل معه، وسيلتمسون له عذر السبل المقطوعة، والطرق الممنوعة، وفي اليوم التالي استأجر من أهل حوران رجلا أخبره الشامي ومخيريق به، بأن مهمته وعمله إيصال الأمانات والمراسيل، فهو يسكن على طريق القوافل، ويسير إلى كل البلدان والمدن، وهو ذائع الصيت والسمعة الطيبة.

سلّم نفسه طواعية للأحلام والكوابيس، فلم يكن يقوى على فراق الزوجة، ولم يشبع روحه منها، وقد ترك في كل أرض يمر بها، امرأة له، ومن ثم يعتريه الندم على فراقها، فمر بعدد من الأحلام، ولم يكتف خياله بامرأة واحدة، فقد استعرض عقله أصنافا مما يحب، وطابت له المواصفات التي يأنس لها، ويفضلها في النساء، واشترط على نفسه أن تكون النظرات شرعية، ويختار من بينهن شريكة للفراش ليوم واحد، قبيل مغادرته باتجاه الكرك، وهو يعرف أنها مطلة على الصحراء وقاحلة من الزرع والنساء، ولا يملك مالا ليشتري له جارية تخدمه، واستمر في حلمه، حتى تزوج، وأتمّ الدخول على الزوجة التي اختارها، وتلألأت في خيمته، حتى أحس بأنه ينام مع شمس حارقة، أذابت ما به من طاقة، وفجرت ينابيعه المسدودة، ونثرت

ماءه المخزن منذ رمضان، وأزاحت برد الحزن الرابض فوقه، وحلت مكانه، فاهتز في فراشه المتواضع، وتصبب عرقا، حتى كادت عروقه أن تيبس، وتعبت مسامات جسده النحيل، والتفت سيقانه على بعضها، وهي تلفه بالحلم، حتى صحى من معه في الخيمة، وظنوا أنه يحارب الكوابيس ويهذي من شدة حمى الحزن، وجففوا عرقه الممطر، ولاحظوا تبلل ما بين فخذه، وكلهم ثقة بأنه تبول على نفسه من شدة الخوف لما قد يراه، ولم يكونوا يعملوا الحقيقة، فعندما استعاد وعيه، تمنى لو لم يصح، وبقي في جنته، واعتبر أن من حوله هم أباليس أخرجوه منها،ولملم نفسه، وبحث عن إناء ماء يستحم من الاحتلام، ليصلي الفجر، ولم يدخر جهدا في طلب الزاد، لشدة جوعه، بعد مطارحات طويلة، وتعب شديد.

عاد إلى نومه، ليدخل هذه المرة إلى جحيم الأحلام، فقد جاءه صديقه مسعود، ومعه الشيخ العجوز المتسول الذي رآه في تونس، وطلب منه المغادرة سريعا، والمرأة البربرية ذات الوشوم في طنجة، والصنجهاني من القاهرة، وخلفهم أناس كثر، لم يستطع التمعن في ملامحهم أو سماع أصواتهم، وفي عيني صاحبه عتب شديد، وحزن قابع في آخرها، وجميع الحاضرين يصرخون بألم، إنه بريء، ومسعود ليس بخائن، وقتله حرام، ويرد عليهم، أن لا أحدا يصدق ما قيل، ويشد رداء مسعود، ويرتجيه أن يصفح عنهم، ولا يلومهم على هربهم، فاليوم صبر، وغداً ثأر، ومسعود يذرف دمعاً أحمراً، ويتدفق من صدره قطران أسود، ينصب على أفاع وضباع تحوم حولهم، فتحرقهم ويموتون، والمرأة البربرية، تقول بصوت عال، إن المرأة التي قتلوه فوقها، هي زوجته، لقد طلبته للزواج، ولا حد عليهما.

والشيخ الدرويش يطبطب عليه، ويطلب الصفح على التفريق بينه وبين زوجاته، وحراسته لارتحالاته، ويعده أن يعوضه في العراق والهند وسرنديب، ولم يكن قد سمع بهذا الاسم من قبل، وبين العويل وارتفاع الصياح والدموع، كان أن يموت من شدة الفزع والجزع الذي عاناه في الحلم الطويل وحفلة الوجع، واستقيظ على أصوات الدواب والكلاب وأهل القافلة.

في تبوك نزلت القافلة في الوادي الأخيضر، مدة أربع ليال، لكي يتزود الناس بما يحتاجون، ويغسلون ثيابهم، ويستحمون من مياه السقائين الذين يطوفون على القوافل يحملون المياه بروايا كبيرة من جلود الجواميس، ويحتمون تحت ظلال بساتين النخيل من رياح السموم الحارقة.

بعد الرحلة في تبوك مرت القافلة سريعا بالعلا، ولم يشأ ابن بطوطة أن يغادروها سريعا، وأقنع الأعرابي صاحب القافلة وقائدها، بأن يمروا على ديار

ثمود، ويرى العيون العظام التي هي للملك والنبي داود، فأراد أن يشهد ماءها، ويمر بالآثار، وكأن قلبه قد أنذره بأنه سيعثر على الشيخ العجوز يجلس بالقرب من مبرك ناقة صالح ينتظره، وتوقف قلبه عندما رآه، وكان قد زاره في الحلم من قبل عدة ليال، فتوقف شعر رأسه، وبقي صامتا، يكتم صرخته وذهوله، لكي لا يحس أحد به، فعرف أنه محاط بحراس خفيين، وجنود لا علم له بمرسليهم، واطمأن حتى انشقت الابتسامة بين شفتيه، وضحك وجهه.

انشغل أصحاب القافلة بتوديع التجار النصارى ومخيريق، لأنهم قد وصلوا حدود الحجاز، وعليهم العودة إلى ديارهم، فانطلق إلى العجوز، يسأله عما مر عليه في الحلم، لكنه لم يجده، واكتفى ابن بطوطة بالإشارة، وهز رأسه، وامتلأت مهجته بالطمأنينة، ومرت على باله ما شاهده من أماكن ومواقف، وهو في إحرامه الذي استحم وارتداه وتجهز للحج بقلب وجسم نظيفين، بعدما حلق عانته، وقص من شعره وقلم أظافره.

لا علم له أن مخيريق غير موجود، بينما الرياح يابسة، والأشجار عارية من الأوراق، ومتكسرة الأغصان، وعواء الذئاب يتردد صداه في الأمكنة، والوديان، وترده الجبال بشكل رتيب.

هام العجوز على وجهه في الصحاري، وتحول إلى ناسك في الجبال، أو يريد الوصول إلى يثرب ديار أجداده، أو ينتقل إلى تيماء أو مناطق أخرى، فقد جره الحنين كما تجر رمال الصحراء الزواحف والحشرات، ولم يخش من الذئاب، بل راح يقصدها، ويتبع صوتها المألوف في المكان، ويتمتم تعاويذ وتراتيل، يقول في نفسه إنها تحميه من غدرها، كما حمت يوسف بن يعقوب، فهي لا تغدر بهذه السلالة حسب تعاليمه، ومعتقداته، وتركه حنا المقدسي يكمل سيره، ولم يحاول ثنيه عن التيه في الصحراء، لأنه ربما يؤمن بنفس إيمانه في الديانات المقدسة القديمة، لكن ابن بطوطة جن جنونه عندما عرف بهذا الأمر، ولم يقدر على فعل شيء، سوى أن ذبلت عيناه المدورتان، وكأنهما حبتا تمر، في طرف عنقود، على وشك السقوط.

تورطت روحه في الحزن والإحباط أكثر، فهو اعتاد على خدمة هذا العجوز، وأحاديثه، وكان يريد استعماله في قضيته، ولم يكن يشأ أن يفارقه، وقد وجد له خادما وفيا في دمشق التي يخطط للعودة لها، بعدما يكمل فريضة الحج، ويسافر إلى العراق وفارس، يتابع أعمال مسعود بن جابر، وقد يصل به العمل إلى خوارزم، ومن ثم يعود للحج في العام القادم، ومع قوافل الحجاج

يعود سرا إلى دمشق ليرتب ما لم يتم اكتماله، وما زال ناقصا من عمل وتخطيط وزرع ولد له في الشام التي لن يعود لها إلا بعد سنوات.

دخل ابن بطوطة يثرب، وتوضأت روحه بالإيمان العميق، والحب العتيق، أحس أن روحه تريد الانعتاق من جسده، والخروج من الحياة المعتادة الظاهرة، إلى حياة أخرى في داخله، فوسط زحام الناس، اشتاق إلى نفسه، وعاد إليها، ونزع عنه أطياف ابنة جبرين ومسعود ومخيريق الذي تركه وحيداً، ولم يستطع تحمل الابتعاد عن موطن أجداده يثرب قليلا، فجن جنوه بعد أن فقد ابنته، والجاه والهيبة، وهام يبحث عن طريقة يدخل بها الحجاز، ليتحول جسده قطعة من صخور الأرض، أو من أديمها الذي جبلته روحه، ويحمل شيئا منها في جنبات روحه التي يعتبرها مقدسة وعميقة.

التمس ابن بطوطة العذر له، كما التمس العذر لمسعود الذي فارقه في أول رحلته التي في بدايتها، وكأنه سلمه زمام الأمور، وأعطاه مفاتيح الأقفال، وترك له مهمة البحث عن الأبواب والدروب المغلقة، ليكمل مسيرته معتمدا على نفسه، وليبحث عن خاصته ممن يثق بهم، ويرمي وراءه العرب والمماليك والبربر، وتاريخ المشرق والمغرب، ويبدأ في التخطيط لرحلة إلى العراق وبعدها تبريز ثم يسير شرقاً نحو شيراز ويذهب إلى صنوب والقرم وهراة وبسطام وسرخس وغيرها من المدن، ويحمل أحلامه في مخلاة قلبه، ويكنز في عقله أفكاره وعلمه، فليس له غيره، ويشرع في عمله، ليكسب قوته في التقرب إلى الولاة والملوك والسلاطين، ويكثر من علاقات المصاهرة، ويؤمن لنفسه قوة خفية، ويعيش في الخفاء، فلا قوة له أمام بطش الطغاة.

نهاية البداية

إنما غضبي في نعلي، فإذا سمعت ما أكره أخذتها ومضيت

يزيد بن أبي الحبيب

صحراء تدمر

استشاط الطبيب غضبا، ورمى الورق، كيف يهرب مخيريق بهذه الطريقة، وأخذته حمية الجاهلية، لكن الراعي لم يتحرك من مكانه، وابن بطوطة عاد إلى داخله، فانزوى بعدما هاض الحزن، وصبغ جدران مساء تدمر، وهرب الراعي إلى النوم ليجد فيه راحته، بينما العجوز تسلل إلى سوق المدينة الشعبي، المغطي بأكياس القماش، ويراقب سوق النخاسة الذي افتتحوه مؤخرا لبيع السبايا من أتباع اليزيدين والأديان الأخرى، ومد يده إلى بنطاله فلم يجد مالا، وأكملت يده مسيرتها نحو فرجه، يقلب عدّته الذكورية المنسية، يحاول أن يعبث بها، ويحرك ساكناً، فقلبه تحرك واستذكر أيام اللهو في الصبا بشوارع بغداد، وفي شارع المرجة بدمشق، وفي منطقته بالعراق عندما كان يلهو من الفتيات وهو صغير في الأزقة وفي البيوت.

فكر ملياً بما يعمل له، وما ليس فيه فائدة، فالمخطوطات عمل المفلسين، ولو يعود لمهنة الطب التي هجرها ونساها في عالم ابن بطوطة السحري، لكن المدينة تعاني من انقطاع السياح، وترزح تحت حكم المجهول، والفقر المدقع للأهالي الذين كانوا يعتاشون على المارة والسياحة، وأصبحت مدينة شاحبة كالأرملة.

حزم أمره أن يقسم وقته بين ابن بطوطة، وفتح عيادة بين الآثار العملاقة، يترك لابن بطوطة الهيام في عالم الماضي والتاريخ، ويحاول عيش الحاضر، وما تبقى من عمره، وأقنعه ما ذكره ابن بطوطة عن كثرة الزيجات، وحب الأولين للنساء، وشجعه وضع الدولة، ووجود السبايا الجميلات، وكأن سوق العبيد المذكور في المخطوطة يتماثل أمامه، والتاريخ يعيد نفسه، وتناديه بطولات الفراش، والفتنة والغواية.

تألم بداخله، وبكى بحرقة على الوضع الذي كان العرب وأهل هذه الديار يعيشونه، وكيف أن الكثيرين قد فارقوا أهلهم وهم أطفال، وعاشوا في بلاد ليست لهم، وتمزق قلبه واعتصره الألم كما يعصر السبع قلب فريسته، ويلعق دمها قبل أن يبرد ويجف، على النساء المعروضات، المسروقات من

أهاليهن، بكى بلا دموع، فقد جفت دموعه على ولده الذي فقده، ونفض الحزن من جسده، ووضع نصب عينيه مساعدة الناس، ليكفر عن ذنوبه، وفكّر في نسج علاقات مع القرويين، وأن يسلي نفسه، ليستطيع تحمل مشقة المعيشة، ومكابدة المخطوطة الطويلة.

خلال الجولة في سوق البلدة، وجد شابا كفيفاً، يجلس على كرسي خشبي صغير، يعبث بشعر ولحيته الغبار، وبجانبه تتربع أمه على الأرض، وتفرش روث الجمال والحمير والبقر، لبيعه بثمن لا يكفي لشراء وجبة، لمن يبحثون عن الحطب لنيرانهم من البدو القادمين للبلدة للتزود بالاحتياجات والعودة إلى مضاربهم الموزعة في البوادي القريبة والبعيدة، وتقدم روث الأغنام المدور الصغير مجاناً معه، جلس القرفصاء يواسي الأم والإبن، وطار عقله عندما أخبروه أن الإبن فقد بصره من تعذيب هؤلاء الذين سيطروا على بلدتهم الصحراوية، فالابن كان يرفض إطالة اللحية، وتقصير الثوب بالإجبار، ولم يكن يتوقع أن يتم اعتقاله، أو يلاحق وتنسب إليه تهم بالزندقة لأنه يقرأ كتب الفلسفة، ويعمل مع السياح الذين يأتون من كل الدنيا إلى بلدته النائية، فيشرح لهم عن الآثار، ويدلهم على الأماكن الأثرية وسط الصحاري، ويرفض الشاب العنيد أن يرتدي نظارة سوداء يخفي فيها قطب عينيه، مثلما يتم قطب الصقور في منطقته، ويقول له الطبيب بصوت خافت، بعدما التفت ميمنة وميسرة، إن النور بداخل الإنسان لا بعينيه، ولا ظلام يحجب الرؤية ما دامت القلوب حية، فهزت الأم المكلومة رأسها بحزن ثقيل، ولحست شفتيها اليابستين، ولعقت ذرات الغبار التي عليها، وأعادت تغطية وجهها قبل أن يراها رجال الحسبة، ويعاقبوها، ولم يغادرهما الطبيب سريعاً، بل جلس يستفسر ويستطلع أحوال الناس، وهو يعرف جيدا ما يحصل، فقد دخل السجن، وتعرف على ابن بطوطة، لأنه كان يدخن.

هز الفتى نفسه، ووقف على رجليه، وأمسك بيد الطبيب، وتألفت روحه مع شخص متعلم، يستطيع أن يتبادل أطراف الحديث معه، فأمسك بيمينه فوجدها يابسة، وتحسس خشونتها، وقال له بعفوية معهودة، إن هذه ليست يد طبيب، بل بناء، أو رسام، فأطراف الأصابع يابسة، فتسمّر العجوز في مكانه، وارتبط لسانه، على قوة ملاحظة الشاب، وعلى السر الكبير الذي يحمله، بأنه منشغل يدون مخطوطة لأحداث قديمة، وقصة لن يصدقها لا عاقل ولا مجنون.

بخبرة السنين، وجد العجوز هذا الشاب الفيلسوف متمرداً، وصلفاً، مثل وعورة هذه الأرض، على عكس ليونة أبناء المناطق النهرية، أو الساحلية، فكل إنسان ابن بيئته، فلم يوجد التطرف إلا لمن هم مؤهلون لذلك، أو ممن

لديهم ثارات، وما أكثرها في هذا الزمان، وفي كل زمان تكثر فيه الحروب والمظالم، والمفاسد، وتزيد التضحيات أيضاً.

اصطحب الشاب إلى حيث يقطنان، بعد أن عرض عليه الأمر، فوافق على الفور، لأنه يعرف أنهما يسكنان المكان، وبشجاعته التي أدركها الطبيب، أخبره أن الناس تلمز الطبيب والراعي، مستغربين لماذا يسكن عجوز في آخر العمر، مع راع شبه مخبول، وغير واع، في مكان ناءٍ، وبعيداً عن سبل الحياة والناس، وبمباركة هؤلاء الشياطين من ذوي الملابس السوداء، وهم يمنعون الاقتراب من الآثار، لكنه استبعد أي شبهة، لكنه شك أن يكونا يعدان لأشياء غير معروفة، وعميلان لجماعات أخرى، فقد اختلط الحابل بالنابل، والصافي مع المتعكر، على حد تعبيره.

تسرب إلى وجدانه الغضب، وانفتق جرح جديد في مهجة العجوز المعطوبة، مستغرباً أن يوصم بهذه الاتهامات، سواء كانت أخلاقية أم غيرها، أو أنه يتعامل مع الظلمة، فصفن قليلا، وتحدث بتحفظ شديد قائلا:

- **كلام مثير للضحك.**

فرد عليه الشاب يهدىء من روعه، ويتخيل تغير ملامح وجهه، ومن نبرة الصوت أحس بصدقه، ولمسه:

- **الناس لها الظاهر، فلن تستطيع أن تكتم أفواه الناس، وهنا هم بسطاء، ولولا الخوف لانتشرت الشائعات حولكم، لكننا في هذه المنطقة أبناء الخوف، والحاجة، والمجهول.**
- **أنا معتاد على كلامهم، فقد كنت أعالج الجهلة، والفقراء منهم، وهم أنفسهم يقولون عني إني فاجر، وزير نساء، و«خمرجي».**
- **هل أنت كذلك؟**
- **لماذا تسأل؟ اعتراض أم استفسار؟ فهذه حريتي وأنا حر.**
- **لا أعترض على حرية الآخر، ولا أستفسر عن شيء مضى، ولكن أردت أن أقول إن الناس ترى وتتكلم وتفسر الأشياء وفق مفاهيمها، فلا توجد حرية مطلقة،**

ولا حقوق بلا إنسانية أصلا، فقد نسينا إنسانيتنا، المفقودة أصلا، فمن ظلم وظلام إلى ظلم وليال دامسة.

- **هناك من يتفاءل، فليس بعد الليل إلا الفجر، ولو أن كلامك واقعي، ومنطقي، فقد قضيت عمري محبطاً، وأبحث عن نفسي، وأهرب بالشرب والنساء من ضياعي، فوجدت في الراعي الذي يتهموني أخلاقياً معه ذاتي، ووجدت أنه يجد نفسه أكثر منا.**
- **كيف تقول ذلك، إننا نعرفه، إنه ابن عشيرة بالقرب من هذه المناطق، والناس يعرفون أهله، إنه بسيط، وليس له لا في العير ولا في النفير، ووالدتي تعرفهم عز المعرفة، فلا يغرنك بيعها لفضلات الحيوانات اليابسة، فقد كنا تجار ماشية معروفين في سائر المنطقة، من بغداد إلى دمشق، يعرفنا أهل البوادي والحواضر، لكن سلبوا بيتنا، وقبلها تدمرت تجارتنا بفعل الثورة الشعبية، فسرقت العصابات أموالنا.**

سكت للحظة وبلع ريقه، ثم أكمل بعامية دارجة:

- **صرنا على الحديدة، لا تحتها بشوي.**

يبدو أن الآلام تعصف بكل المنطقة، فهم يعيشون على دربها، ولم يسلم حتى الأنبياء في أرضهم من الاحتراق والعذاب بعذابات الوجود، ولو حصدوا المتاعب والنواميس الخالدة، كما يبدو أن هناك صراعا على الأنبياء وأتباع الديانات، وكل يقول إنها حرب مقدسة ضد الآخر المتلبس للكفر والعنجهية.

عاد العجوز للحديث وهو يواسي ويربت على كتف الكفيف المحتسر:

- **سآخذك لمن يسلينا، وننسى معه آلامنا.**
- **لا أبحث عن التسلية، بل للخلاص والهروب.**
- **تهرب؟ هل أنت مجنون؟!**
- **أريد الخروج من هذا المكان، ولكن لا أملك مالاً أدفعه للمهربين، ونحن منقطعون عن العالم.**

- **ألا ترى من حولك، كيف هي الأوضاع؟**

انتبه على كلمته، وتذكر أنه أعمى، فعاد ليقول:

- **آسف لم أقصد.**
- **لا عليك، أفهم مقصدك.**
- **لا تخرج، سيزول هذا الاحتلال، ونتنفس الصعداء.**
- **هذه الأرض موصومة بالألم، وبالفقر، مثل وشوم وجه أمي، لا تزول ولا تتزحزح.**
- **هاهاها... وكوشمي الذي على يدي، فأهلنا كانوا يزينوننا بالوشوم، ولما كنت أدرس في بريطانيا، وفي سفري للاتحاد السوفيتي أيام العز، كانوا يرون أني متقدم، إذ أضع الوشوم، فتركتها، رغم أني كنت أراها ضرباً من التخلف، وتقاليد الجهل.**
- **أنا كما ترى أعمى، فلم أرها، لكني أذكر وشوم أمي التي بلا معنى.**

رمى الفتى ابتسامته وراءه، واتكأ على كتف العجوز ليجتازا عمودا منكسراً من بقايا الآثار، ليصلا إلى الراعي.

فز ابن بطوطة على الفور، قبل أن يدخلا إلى المعبد القديم، فقد شم رائحة الغريب، والجن يحسون ويشمون أكثر من البشر، فخرج مسرعا.

- **غرباء قادمون، من هم؟**

التفت حوله، فوجد الشاب مع رفيقه، فآثر الصمت، والانزواء، والاكتفاء بشخصية الراعي، كما جرت العادة أمام الغرباء، فلا يظهر إلا عندما لا يكون هناك أحد، ولكن عندما شاهد الشاب جن جنونه، إنه نسخة طبق الأصل من مسعود بن جابر، وبنفس اللحية التي أطالها في آخر أيامه لدى المماليك في دمشق، لكنه راح يعد الشاي لهما، في إبريق مليء ببقايا السكر والأتربة.

خرج إلى الهواء الطلق، فقد اختنق من شدة الدهشة، وانحبس الدم في الوجه الأسمر النحيف، وغرس عينيه في المدى، وقال في نفسه: دعني أذهب لجمع حطب الرمث، فيبدو أن هذا الغريب وراءه قصة طويلة، لنجلس نتسامر في الليل، ولا بأس أن نسهر على موقد وجمر شجر مثير للدموع

بشكل كثيف، حتى نبكي على راحتنا، من دون أن يلاحظنا أحد، وسأحدق في وجهه، لأتذكر وأقارن جيداً مع وجه مسعود الذي لم أره منذ سبعمائة عام، ونحن على باب نهاية موشكة، فإما تنتهي قصتنا، أو تنتهي الأزمة التي نحن فيها، أو أصل لنهايتي.

ما إن عاد إلى مكان مكوثه مع العجوز، حتى لوّح له العجوز بيده ذات العروق البارزة، والتجاعيد الواضحة، وطلب منه أن ينضم إلى الحديث، وسط استهزاء الشاب به، فهو لا يرى فيه سوى راعٍ جاهل، وبدوي لا يفقه من أمور الحضارة شيئاً، ولا يرى إلا أمام عينيه طبعاً.

لبّى نداء رفيقه، وانضم لهما، بعدما ألقى التحية باقتضاب وجفاف ملحوظين، قال:

- **لِمَ ناديتني.. هل تحتاج شيئاً؟**
- **لا.. أردت أن تجلس معنا فقط، وأعرفكما على بعض، يبدو أننا سنسلي بعضنا حتى تزول الغمامة السوداء، وتعود الحياة، أو نعود إليها.**
- **سأجهز العشاء، فقد جمعت الحطب.**

سرعان ما تآلف الإثنان، وبقي ابن بطوطة يحدق فيه، والآخر أعمى لا يراه، والعجوز مستغرب من الأمر، لكنه لا يستطيع أن يسأله أمام الضيف، واكتفى بالإيماء، والتساؤل عن طريق إشارة اليد، وقبل أن يحل منتصف الليل، استأذن الشاب، ليعود إلى أمه التي تنام في كوخ طيني على طرف شارع أسفلت مكسر، هجرته الشاحانات والناس، بعدما كان صلة وصل وطريق تجارة نابض بالحركة والنشاط.

هجم العجوز بعزم واهن، ونفض ابن بطوطة، ليعرف ما فيه، فقد لاحظ اختلاله، وتلعثمه، فأخبره بلا تردد، أنه شبيه مسعود الذي قتل في هذه الديار، وقبره على بعد مئات الكيلو مترات، وانتفضت روح العجوز، وتساءل عن الذي يحدث معه، حتى كاد يتوقف عقله، من شدة التفكير، فرفع أصبعه، وفرك جبهته وصدغه بقوة، لينشط عقله، وهجم ابن بطوطة عليه بجلجة وصوت يشق صمت المساء والبادية.

- **إنه هو، حتى صوته، وقوامه، وشعره، وأسلوبه.**
- **لا يمكن أن تتذكره بهذا التركيز.**

- **لقد نقلت لك المخطوطة التي أحفظها عن ظهر قلب، وأعرف مسعود جيداً، وأحفظ الذكريات والمواقف الماثلة أمامي كأنها حدثت بالأمس، لا قبل مئات السنين.**
- **لدينا مثل يقول: يخلق اللّه من الشبه أربعين، وهذا شاب من أهل المنطقة وقد عطبوا بصره، كما رأيت، لا علاقة له بصديقك ومعلمك.**
- **لقد قلتها بلسانك، معلمي، لقد نبش رماد بركان الحزن بصدري، وفاضت حممه، إنني مكتوٍ بنار الثأر، إنه مسعود، أنا متأكد.**
- **ومن الذي دفنتموه على جانب الفرات؟ هل تريدنا أن نسافر، وننبش قبره، فعلى وصفك أنا أعرف تلك المنطقة، ونستطيع الوصول إليها.**
- **وما الذي يفيدنا، فلماذا لا نستجوب الشاب، وقد يكون مسعود لم يمت، ولم يكن إنسياً مثلي.**
- **لا تجنني، هذا شيء مستحيل.**
- **لماذا ظهر هنا؟ هل هذه صدفة؟**
- **تسألني أنا؟ أنت العالم وابن الشياطين، وتعلمون كل شيء، فاعرف لنا.**
- **قلت لك مسبقاً، نحن لا نعلم الغيب، وقدراتنا على غير ما تظنون.**

لم يناما الليل من الجدل المشتعل بينهما، فلجأ الطبيب إلى الورق، ليهدئ من روعه، ويهرب من التفكير، وأجبر ابن بطوطة على أن يستكمل الحكاية التي بدأت تكبر مثل كرة النار، ولا تتوقف، وأصبح مدمناً على متابعتها، ومعرفة المزيد عن القصة المحيرة، كمن يتابع مسلسلا مشوقاً، وينتظر كل يوم حلقة جديدة، وتبهره الأحداث المتسارعة، وتهز قلبه، وتثير ريبته، ويسيل فضوله، ويوشك أن يندلق مخه.

وابن بطوطة الحكاء الماهر، موجوع، ومصاب بالحيرة والتوق، فهو ينتظر إشراقة الشمس بفارغ الصبر، ليعرف الشاب أكثر، وسيبقى يراقب الوضع عن كثب، ويترك المهمة لرفيقه، ليكشف له حقيقته، ويتمنى أن يكون صديقه قد عاد للحياة، ولا يكون الأمر مجرد صدفة.

زاد اللغز تعقيداَ، لأن الشاب مع مرور الأيام، اختفى ولم يصلوا إلى أية معلومة عنه، وعرفوا أنه بمساعدة مهربين، ركب بإحدى الشاحنات، لتنقله إلى القسطنطينة القديمة والتي تحولت إلى دولة خلافة إسلامية، ومن ثم دولة كبقية الدول، لها حدود، ويعرفها ابن بطوطة بدولة الترك، ويحفظ رطين أهلها، فقد كان يسمع المماليك يتحدثون برطين ولكنات مشابهة، وقد تعمد الطبيب أن يقول اسم المدينة القديم، ليعرفه ابن بطوطة، فهو لا يعرف اسمها الجديد، ولا يعرف عن تحولها من عاصمة امبراطورية الروم، إلى عاصمة الخلافة للترك الذي عمل معهم قبل أن يشكلوا الدولة.

كما هو معهود عنه في المخطوطة، فإن الرحالة يؤمن بالكرامات والمكاشفات، وهو مؤمن أن هذه إشارة له، بينما يرى فيه العجوز مؤشرا على وجود عقدة غير مفهومة، وبات يتردد على الأم التي تفترش الأرض، وتبيع بقايا الماشية، ليعرف أكثر عن ابنها، لتنشأ بين العجوزين علاقة حب وألفة، وتبادل للود، لكي يواسيا بعضيهما، بعدما أصبحا وحيدين، وعلى مشارف نهاية العمر.

قال المهربون إن الشاب دفع لهم لينقلوه إلى حيث الحياة والعدل في أوروبا، وتألم ابن بطوطة لفقده مسعود بن جابر مجدداً أو شبيهه، وآمن أنه مكتوب عليه ألا يمكث معه ومع ملامحه أكثر من أيام معدودات، ومقت وضعه الذي هو فيه مسجون وخائف يهتز داخل صدر فتى بلا إرادة، وفي صحار مقفرة.

مرت الأيام تلو الأخرى، فاندمج الراعي وبداخله الرحالة مع الناس، وتعمقوا أكثر في الحياة اليومية، ولو كانوا تحت حصار شديد، باتت المعيشة أكثر سهولة، فالسيارات القديمة تنقلهم إلى السوق المغطى، وإلى الدكاكين التي ليس فيها إلا رائحة بقايا الدجاج الأبيض المحلوت الريش، من شدة الجوع، والذي لا يجد أصلا زبائن تشتريه، والخضروات اليابسة على بسطات النساء، والمطاعم الخاوية التي كان يؤمها الآلاف، ويلعب الهواء بأبوابها، وسرق الناس وتجار البشر الآثار التي في المتاحف والمعابد والغرف العميقة، فأصبحت مأوى للكلاب.

أما الطبيب وأم الكفيف، فكانا يلتقيان خلسة، عندما تأتي إليه بحجة جلب الحليب والماء، ولا أحد يشك بها كعجوز، كما أن الطبيب له حظوة ومكانة لدى المراقبين والجنود، وتجلس في التلال وعلى الأعمدة الكبيرة، تحكي للعجوز عن الأمجاد، وسير الأعراب والتجارة، ويمارس فن التهويل، ويحكي عن بطولاته في سن الشباب وغزواته في الجامعة لجموع الفتيات، ويتباهى

بالقصص، كأي رجل شرقي، يرى رجولته وقوته في حبه للنساء، بينما تحدق به العجوز وتنظر إليه من الأعلى للأسفل، وتواري نظرتها الحقيقية، لكي لا يرى حقيقته في عينيها.

يقوم بتشغيل الأغاني لها، على مسجل قديم يجلب له بطاريات سيارات قديمة، وأسلاك معدنية بالية، ويحاول جاهدا تشغيله، فيجد المسجل يلوك الأشرطة وغناء المغني، فيشتم ويلعن حالتهم المزرية، فتقوم لتهدئته، وحثه على التحمل، فينظر إلى عينيها يغوص ببحر حزنها مستغرباً، كيف لها مع كل هذه الهموم، وفقد المال والابن، التحمل بثبات وهدوء كالصحراء، وهو الذي يصارع الأفكار والهواجس والمتاعب، ويبدو في الظاهر كجبل يهتز مع الريح.

أشعل سيجارة «الحمراء» ذات الدخان الأصفر ونصف اشتعال لرداءة التبغ الذي فيها، والتي تصلهم تهريباً من دمشق، بعدما كان يدخن «التتن» الملفوف المزروع محليا ببعض القرى، ويغض محتلو المنطقة البصر عن التدخين، وتهريب الناس من المدن، فقد باتت الجيوش تزحف باتجاههم، ولن يتركوهم يقيمون دولتهم، ويريدون كسب الأهالي إلى صفوفهم، لكي يسيطروا على الوضع ولا يعطي أحد الإحداثيات لجيوش الدول التي تضربهم واتفقت عليهم، فحتى اليهود الذين يقودون ويحتلون لم يدخلوا حرباً إلا حروب المدينة في بدايات الإسلام، رموا ثقلهم ضد هذه الدولة التي تحمل لواء الإسلام.

ولم يستغرب ابن بطوطة هذه الأوضاع، فقد شهد على بقايا الصليبيين الذين يحملون الصليب ضد الهلال، ورأى كيف استطاع المماليك استثمار الدين في كسب التأييد ضد المغول غير المتدينين، وكيف كان أئمة الدين يتصارعون على المذاهب، وكيف كان المتزندقون يعبثون بأحوال الدول، وتذكر أنه لا تزال في رقبته بيعة وحلف، وحث العجوز على لملمة جراجه المبعثرة، ليكملا العمل المقدس، خوفا من الموت تحت وطأة القصف، فالحرب على الأبواب، ويعرف العجوز كيف أن الحرب ستقطع أوصال المدن، فقد شهد احتلال العراق، وكيف يتم تدمير أي مقاومة، وأي حياة، وأي مدينة وحضارة، وسكاكين ذكريات تدمير حضارة بلده حادة جدا ومغروسة بقوة في داخله، ولا تصدأ أو تتزحزح.

مروا مرور الكرام على رحلة الحج، لكن ذهب ابن بطوطة يصف مشاعره، والأحداث التي مرت عليه في الأماكن المقدسة، وقد رمى وراءه كل ذكرى، والمال المدفون في دمشق، والزوجة والولد، وبقية عمله، لكنه راح يحكي

عن مشاعره تجاه النساء، وحبه لهن، وحبه للقريض، والأكل، والعجوز يستمتع بالحكايا الطويلة المسلية في الليالي السوداء منها، والبيضاء أيضا.

لم يتبق ورق ليعود الطبيب إلى الكتابة والتدوين، فاتفقا على المغامرة لإنجاز ما تبقى، حتى لو بورق قليل، وأسعفتهم أم الكفيف، ودلتهم على بيت شاب قد اعتقل بتهمة التعامل مع العدو، وقد تتبعوا بريده الإلكتروني، وراقبوا بيته، فرصدوا استخدامه لشبكة الإنترنت العالمية والاتصال عبر الأقمار الصناعية، فتم صلبه على عمود مدخل المدينة، فكل من يدخل ويخرج يرى جثته اليابسة معلقة فوق جملة «بلدية تدمر ترحب بكم»، فدخل الطبيب والمرأة العجوز إلى بيته ولم يجدوا شيئا، فقد تمت مصادرة كل ما فيه، وتفجير غرفته، فلعن الطبيب الوضع مجددا، فوضعت العجوز يدها على فمه، لتوقف سيل الشتائم، قبل أن تسمعه الآذان المزروعة بكل مكان، ولكن الفوضى تعم البلدة، وكل منشغل بحماية نفسه، والبحث عن مأكل ومأوى من القصف، فأثار ملمس يد العجوز على شفتيه الذابلتين مشاعره الجياشة، فقبلها، وسحبت يدها بصمت محير، لم يفهم قبولها من رفضها لما قام به، فجعلته يلف حول نفسه، وهما يركبان سيارة تكح وتئن خلال سيرها البطيء، باتجاه مكان إقامته، ولا يوجد لديه أموال ليدفع للجنود، ولا يوجد أحد يرد عليه أصلا، فضاقت كل السبل به، لكن ابن بطوطة المعتاد على الصبر، وتحمل المصاعب، جعل روحه تتوضأ بالأمل، وحثه على شد الرحال نحو دمشق، كحال الآلاف الهاربين إلى المدينة الوحيدة الباقية، وقد اشتاق ليعانق جدران المنازل القديمة، ويمر على الصالحية وباب توما، وقد يشم شيئا من رائحة الراحلين الغابرين، ويمر بكل قبور المدينة القديمة، ليترحم على كل من عرفهم، وأولهم ابنه الذي لم يحضنه، ولم يشم رائحته، ولم ير وجهه.

بقيا متوقفان ينتظران أن تخف موجات الهروب لأجساد الناس المتلاصقة، من شدة الهلع، واختناق الشوارع بهم، كأنهم يريدون اللحاق بالسراب الذي تغرق فيه.

لحقت بهم العجوز المسكينة، لكنها لا تستطيع الركض، ولا تمتلك مالاً تدفعه للتجار المتحكمين بمصائر الناس، وقف الطبيب ينتظرها فلمح زجاجات الخمر المحلي صنف» البطة» ملقاة على الأرصفة، فتذكر أيام الصبا واللهو، وعرف أن الأمور قد خرجت عن السيطرة، ولم يعد التنظيم الذي يحكم قبضته على المدن موجوداً.

دخلت سيارات حكام الشام، ووصل جنودهم أصحاب البدل خاكية الألوان المهترئة وقد لعبت بها أشعة الشمس، حتى جدرتها من لونها الأصلي، وأعادوا الانتشار في المدينة، وقد هرب أصحاب البدل السوداء إلى الصحراء والمدن القريبة من العراق، فتراجعت الطائرات عن قصف المدينة، ولكنها عاثت وتفننت حتى دكت مدناً أخرى كالموصل ومدن الحدود.

من أجل المرأة تعطل الصاحبان عن استكمال الرحلة، فقبض عليهم رجال الشرطة العائدون والجائعون للتعذيب والتسلية بعدما فقدت المدينة الصغيرة أهلها، ولم يصدقوا رواية مروءتهما، وتم اقتيادهما إلى سجن تدمر المعروف، وتم ركل المرأة ورميها في منتصف الطريق، ومن ثم استفاد منها الجنود في تسخيرها لخدمتهم بصنع الشاي ومشروب «المتة» وهو عبارة عن حشيش أخضر يابس من نبتة غريبة يسكب عليه الماء المغلي، ويدمن عليه أبناء الساحل، وقد جلبه إلى المنطقة أجداهم الذين كانوا يهربون إلى أمريكا والأرجنتين، فانتشر بينهم، فتوارثوا شربه.

أحس الراعي بانقباض في صدره، فقد سمع عن هذا المكان القابع تحت الأرض، وعن أصناف التعذيب، وبكبرياء وبأس شديدين قاوم الطبيب رجال الأمن الأشبه بقطاع الطرق، لكنهم ضربوه بأعقاب البنادق القديمة، ولم يحترموا سنه ولا علمه، عندما استجوبوه، وبعد ضربه وإخضاعه، أجلسوه على كرسي خشبي بدعائم حديدية تمكّن منها الصدأ، ولأول مرة تنهمر دموعه، وكأنها تعلن نهاية المرحلة، وربما حزن على بلده الذي تركه وعاد العسكر للسيطرة، وفرض الحدود الهشة المرسومة من عشرات السنين، والتي سقطت مع أول امتحان، وعادت العشائر المتداخلة وذات أواصر القرابة والنسب إلى بعضها.

خرّ الطبيب باكياً على كرسي الاستجواب، وطاف به شريط ذكريات القمع من الشيوعيين والاشتراكيين، ومن ثم الإيرانيين، الذين سمع رطينهم ابن بطوطة، وعرف أنهم من أهل فارس، مع اختلاف بسيط في طريقة الكلام، وهو يتقن لغتهم، فسمعهم يأمرون السجانين باقتيادهم إلى سجن تدمر الشهير، الذي ظل محافظا على ظلمته، ولم يفتح أبوابه لإخراج من فيه، منذ عشرات السنين، واستغرب كيف كان الجنود مع حراس الدين متفقين على أمور كبرى لا يقرب كل منهما على مجال الآخر، وكيف يتفقون على قهر الناس، واحتلالهم.

واقتنع ابن بطوطة أن البلاد والناس يرزحون وينتقلون من ظلم إلى آخر، ولو تغيرت الأشكال والألوان، فإن الظلم واحد، واقتنع الطبيب عندما حدّق في

وجه ابن بطوطة طويلا، وتحسر على مفارقته، وكأن الموت قد اقترب، وظل ينظر طويلاً في وجهه، ويعلم أن هذا الوجه ليس له، لكنه يحاول أن يتأمل كثيرا كما علمه، وصدّق أخيراً بأن في كل إنسان نراه، إنساناً لا نراه.

قطع صوت ضربة الحذاء العسكري القاسي لآمر الجند حبال التأمل، والخيالات الحالمة، فصرخ بهما:

- **لقد جاءت توصية بكما، أن تخرجا، مقابل معالجة الجنود، وإعادة تشغيل المستوصف.**

عادت الروح إلى قلب الطبيب:

- **على الرحب والسعة، ولكن أريد مكتباً، ودفاتر، ورزماً من الأوراق البيضاء.**

فرد الضابط:

- **ما حاجتك بالأوراق، ولا يوجد مرضى إلا الجنود، ولدينا الكثير من الوقت، لتفتيش البيوت، وتنظيف الشوارع، ومن ثم إعادة الأهالي، وقد أفرجنا عنكما، وأنتما على باب السجن الذي لا يخرج منه حي، فلا تجعلني أقبركما به أحياء، أو أعيدك إلى العراق، وأعدم الراعي الذي معك بتهمة الخيانة العظمى، فأنا لولا التوصيات التي وردتنا على الهاتف قبل قليل، لأنهيت أمركما.**

سكت الضابط وأدار ظهره للجميع، واتجه نحو غرفة مخصصة لمتعته، وأمر له بالأوراق المطلوبة، وكأنه متضامن بالخفية مع مخطوطة ابن بطوطة، ومهمته السرية، وما زال سر التوصية غير معلوم لأحد، واكتفى الطبيب وابن بطوطة بالصمت، وحمدا اللّه على الفكاك قبل الهلاك.

فور وصولهما إلى الأوراق، حتى احتضنها الطبيب، كما يحضن الرجل عشيقته، وبلهفة الجوعى على الطعام بعد أيام عجاف، أمسك بحزمة أقلام، وقام بتخزين الأوراق البيضاء، ودفع يده للكتابة بقوة، لكن هذه المرة، على سطوح البيوت، وفي المكاتب، فلا أحد يصل إليهما، وكأنهما مسجونان، فالخدمات الطبية لم يتم تشغيلها بعد، وكل المباني فارغة، والجنود

يتسابقون على نهبها، وسحب حتى أسلاك النحاس من قلب الجدران، لشحنها وبيعها.

العجوز كان شغوفاً وقد أدمن على تكملة المخطوطة، وزاد ولعه، عندما احتدمت الأحداث، ليعرف ماذا سيحصل في الأماكن المقدسة، وليتعرف على بقية البلدان، واحترم ابن بطوطة شغفه، وأحس أن الهم سيزول من صدره، وتمنى أن يمد اللّه في عمر الطبيب، لأن مخطوطة ثلاثين عام تحتاج إلى ليال طويلة من الكتابة، معتمداً على صبره الطويل ليقصص ما عنده من حكايا، بروح الرحالة وصاحب العهد السري، والبيعة التي ما زال يحتفظ بها، ولم يكشف لمن كانت، ومن يقود هذا التنظيم، وهذه الأعمال، وهل هي مستمرة، أم هو يراوح مكانه، ولا يعرف شيئاً عما يحصل في العالم؟ وهل هذا العمل يقوده بشر أم أن المسلمين من الجن لهم جهاد من نوع آخر، ويساهمون في حفظ الدين والبلاد؟

التساؤلات الملحة كثيرة، سيجيب عنها ابن بطوطة في المخطوطة، ولعل الطبيب عندما يرتاح، ويستقر سيضعه في زاوية، ويمطر عليه الأسئلة.

على سيرة الأمطار، هطل الغيث عليهم رزماً متواترة، بلا توقف، مع غبار كثيف قادم من الصحراء، فقد ارتفعت الزوابع الحمراء حتى وصلت سقف السماء، وهزمها الماء وأطفأ دورانها السريع، فصبغته، لكن الباقين من الأهالي في المنطقة ذكروا أن المطر الأحمر كما يسمونه، أمر معتاد في هذه المناطق، وهنا تذكر ابن بطوطة أن قبر مسعود بن جابر كان يسمى بتل أحمر، حيث دفنوه بمنطقة حمراء، في منخفض أرضي، تلعب به الرياح،وفي وسطه كومة كأنها جبل صغير، وهو عبارة عن مقبرة سرية، ولا أحد يعرف من حفرها بداخله، ولكنه سمع ذلك في رحلاته المتكررة إلى المنطقة خلال السنوات القادمة.

يثرب، ذو القعدة726هـ

وصلت قافلة الحجاج إلى مدينة الرسول الكريم، والمبشر بالخير العظيم، والسالك لدروب تزيح وتنجي من المهالك، فما كان من قاصدي الحج إلا الانتشار في بوعها، والذهاب للصلاة على أشرف الخلق في مسجده البهي الشريف، وزيارة قبره مع أصحابه، والذهاب إلى البقيع، حيث آلاف القبور للصالحين والأولياء، فاستند ابن بطوطة على حجر كبير، وغاب في سفر إلى داخل قلبه، يتصفح ذكرياته وملامح من مروا به، وترحم على صاحبه، ودعا

لوالديه وكل من عرفه، ولم يعرف هل هو في صحوه، أم في حلم، حتى جاءه الشيخ السخاوي، وقال له:

«لا تفتح عينيك، واسمع بقلبك ما أقول، وعليك أن تعي أنك تسمو إلى الخلود، وستناله، وكما قلت لك في مصر، إن حلمي لا يخيب، ورؤياي لا تقصص على أحد، فاحفظ السر، حتى لا تضيع، ولا يخيب مسعاك، واعلم كل العلم، أن صاحبك حي، فإما حياة شهادة في برزخ بالغيب، أو في الحياة الدنيا، فلا تبحث عنه، ولا تكترث لمصيره، وانشغل بذاتك، وابتعد عن لذاتك حيناً من الوقت، فلا زواج غير الدمشقية، فلا تغتر بجمال الحجازيات، ولا تقم في هذه الديار، فإنها بلاد هجرة، ومصانة ومحفوظة من ربها، بل ستمضي إلى العراق، وتتزوج منه بالغات الحسن والأجساد المبرومة واللحم الكثير والغنج الوفير، فإن قدمت إلى تلك الديار، فاخلع عنك حياءك، وارتدي عباءة المغربي الجوّال، وتفنن في السفر بين مقدساتهم، والخانقانات والمارستانات، وتقلب بين المذاهب، فلا خوف عليك ولا هم يحزنون، فأنت مالكي عتيد، وصاحب عقل رشيد، فإن بلغت مقصدك، جاءت إليك المكاشفات وحلت عليك البركات، بسفر جديد إلى خراسان وفارس، وسيزورك من يدلك على طريق الخير والسداد».

لقد كان فعلاً السخاوي، ولكن لم يعرف ابن بطوطة هل جاء إليه في حلم قصير، أم أنه في الواقع كان واقفاً أمامه، فلا يزال صوته يرن في أذنيه، ولم يستطع أن يراه، وذهب سريعاً، دونما قلق أو خوف، بل إنه في قمة ثقته وفي أكثر الأماكن أماناً في الدنيا.

ازدحمت الأفكار والأحلام والناس في عقله، فرماها جانباً، وانشغل يسبح في قلبه، ويبتهل باجتهاد، حتى تصبب العرق من جانب في جسده، فاستحم وتبرّك به، وراح يبحث عن مكان ينام فيه، فاستأجر مكاناً للمبيت، من فراش محشو بليف النخيل، فرمى جثته فوقه، وتخيله إحدى زوجاته، وفي الحلم جاءته امرأة جديدة، وحتى في الحلم لا يسمح أن تسوّل له نفسه، أو تسوّغ الفعل الحرام، فعقد عليها، غير مبال أن على ذمته أكثر من أربع زوجات، واحتلم بدخوله به، فهزته الرعشة، حتى كاد ينضب ماؤه، فأفرغ ما به من شعور ورغبة، واغتسل من همومه، وكبته منذ شهر، واستعاد قواه.

ومن ثم توجه إلى العين الزرقاء بدار مالك بن أنس شرقي باب السلام من المسجد النبوي، وأراد التنقل بين دور عمر وابنه عبدالله وفاطمة وأبي بكر،

وانحدر على درج يصل العين، ومن ثم دار الوضوء التي بناها والد ناصر بن قلاوون للمصلين، ثم دخل يقصد الشيخ محمد بن عبدالله المالكي التونسي، وجمال الدين الأسيوطي، لينعم ببركتهما، ويحظى بتوصياتهما، وهو يحمل إليهما رسائل شفيهة من تونس ومصر، لكنه لم يستطع الوصول بسهولة، فقد منعه الخدام الأحباش الأشداء، والذين يقفون كالجبال يحرسون المسجد وأئمته، خوفا من الفداوية الإسماعلية الذين يجندهم الأمراء، وهم أصلا لديهم لوثة في دينهم، ويصنعون الغرائب، وما إن تدفق عليه سيل أسود من العبيد، حتى وقف يصرخ، خوفاً من اقتياده للسجن، فأعادوه حيث المصلين، وما منعوه من الصلاة.

لم يتمكن من الاجتماع بالشيخين الجليلين، حتى وإن كانت معه توصيتان من الوزير الزبيدي ومن الملك الناصر، فهولاء لا يفهمون اللغة العربية، واستطاع أن يتصرف ويرسل لهما رسالة، تم فحصها لكي لا تكون محملة بالسم، ولم يرد أحد عليه، بل وصل إليه رجل لديه مطلبه، يدعى منصور بن شكل، وهو من العرب الحافظين عن ظهر قلب تضاريس جزيرة العرب والشام وفارس، فاكتفى به، وأكمل طريقه إلى وادي العقيق، ليرتدي إحرام الحج، وسيقضي فرضه، ومن ثم يعود إلى منصور، ويكملان الطريق إلى العراق من جهة الجنوب، وقبلها يزوران النجف، حيث لديه مهمة، في سبك تحالف، وإيصال رسائل من أتباع الناصر، أن الدين واحد، ولو تعددت المذاهب واختلفت الطرائق، وحق الجيرة محفوظ، والعبادات كل حسب مذهبه ما لم يعتد أو يتعرض للغير.

في رحلة الحج، فكّر أن يكون منصوراً هو البديل الجيد لمسعود، فهو عاطل عن العمل، في ربوع الحجاز، ويعرض خدماته، فقد كان مسعود بن جابر عاطلاً، وعندما سأله والده عن اسمه فقال له، نادني العاطل، وعندما اشتدت وتوثقت علاقتهما، بات يناديه» عطيل» تصغيراً للعاطل.

وصل ابن بطوطة إلى قرية بدر، فآثر الجلوس بها، وأقنع القافلة وبقية المسافري، ليطوف بنخيلها، وقبور الشهداء الذين لم يشأ أن يبرح المكان الذي شهد أول موقعة، ونصر للدين على أعدائه، ويزوّد حنينه بالحب والسلام، فذهب إلى الصفراء، وجبل الرحمة وجبل الطبول وتقلب على رماله الممتدة، كأنه يريد أن يعلق شيء من هذه التربة على إحرامه فيتبرك منه، وأسعده صوت الطبول التي تقرع من بعيد، ولا يعلم أحد مصدرها، ولا من يقرعها، سواء كانوا بشرا أو من غير البشر.

في وقفة الحج التقى ابن بطوطة بأمير الركب ونائب السلطان الأمير أرغون الدوادار، الذي شهد قوته، ونفوذه في مصر، ولم يكن يعلم أنه سيكون أمير الوفد، وأن الملك الناصر لن يحج هذا العام بل إنها جاءت مع والد زوجها أبي البكر بن أرغون، ومع الوفد المهيب الخوندة زوجة الملك، ابنة السلطان المعظم محمدأوزبك التي كانت الأميرة عصمة الدين ضمن جواريها، فالتمس طريقاً إلى جناحها، ليسلم عليها، وتعوضه عن المال الذي دفنه بدمشق ولم يخبر به أحدا.

استطاع بدهاء وحيلة، ومن دون أن يشعر به أمراء مكة، ولا عيونهم المنتشرة في كل مكان، أن يحيك العلاقات مع أمير الركب الشامي، ويطلعه على الحقيقة، بعدما دبر له الأمير أرغون الأمر، وحكى له حقيقة ما حصل مع أمير العرب، وقتل مسعود بن جابر، وزار أيضا الركب المغربي، ليسلم أحد المغاربة رسالة إلى أبيه، ويجد من يلقنه أخباراً تصل إلى بلاط السلطان.

وبعد انتهاء الحج، تلقّى الأوامر بالسفر إلى العراق، فقد تزود بالمال الكافي، والصاحب الوافي، ولم يعد ينقصه شيء، وعليه بناء علاقات مع أهل بغداد، واستكمال بناء الشبكة المعقودة من طنجة وحتى الصين.

ولا ضير أن يمر في مدن العراق، ويتزوج هناك، والعودة سراً إلى دمشق، لكي لا يكون من يترصد له، أو يكيد له، من العرب الثائرين، والمتحصنين في جعبر، لكن أيديهم تصل إلى كل مكان، وخونة المماليك، الذين يحقدون على كل من ليس من شاكلتهم.

خرج ابن بطوطة مع الركب العراقي وسيول من الأعاجم تموج بهم الأرض موجاً، فمر بأرض نجد من ثم بأرض القادسية، ومن مكان إلى مكان، حتى وصل إلى النجف، حيث استقبله مريدو روضة الإمام علي، فوجد المدينة متقنة البناء، والأسواق الفسيحة، والطعام الوفير، يوزعه التلامذة على الداخلين إلى الحضرة، وقد كان له ترتيب مسبق مع القائمين عليها، وقد وصلهم خبره، فأحسنوا إليه، وأكرموه، وأذنوا له بدخول العتبة وتقبيل القبة المفروشة بالحرير، والمكسوة بالفضة والذهب محكمة العمل، ليتبرك بها.

سمح الطواشي الذي يقف مع الحجاب عند باب أحد العتبات بأن يغمس يديه بالطيب المقدس ليتبارك ويطرد الشياطين.

ومن ثم رافقه أحد التلامذة يدعى نفيس الحسيني، فرحب بالزائر الصوفي، ونصحه أن يخفض رأسه وصوته وأن يدع قلبه يسمع ما يملي عليه الإمام من الكلام، فاستغرب كيف لقبر أن يتحدث، وأدرك أن الحديث روحي، مثلِ

الاستجداء والاستخارة، وسيدله قلبه على الحق، فبرك على ركبتيه، وأغمض عينيه، وراح يتهجد، كأنه من الملل الكثيرة التي تقصد هذا المزار، وقال بنواح مضطرب:

أيها الإمام، إني ببابك أطلب رضاك، ورضا كل الأولياء الصالحين، وجئت أغسل دمي من الشر، ومن أفعال الناس، وأتخلص من رواسب ابن آدم، فأنا خالص لوجه الله، فهل لي بشفاعة، أو أن تدلني على طريقي، فأنا تائه وهارب من مصيري، وما زالت في بداية طريقي، وأمامي سفر طويل، وأخشى أن يؤول مصيري كالأمم التي سبقتنا.

سكت ولكن قلبه توقف عن النبض، حتى كاد يموت، واختنق بريقه، وجحظت عيناه، واختنق من الطيب الذي خضب يديه به، فعرف أن الشياطين تحيط به، وقد اهتزت ببركان الحضرة، فتكسر جبروتها، وتطهر حتى كاد يطير.

وخاف التلميذ الخادم في الحضرة، فلم يشأ أن يقطع تجليه، واستغرب من هذا الصوفي الغريب، ومن الحالة التي يمر بها، فأراد أن يقوده إلى أستاذه ليكمل مهمته، فرفض ابن بطوطة النهوض، وأكمل الهذيان.

فرد عليه قلبه، أن الطريق واحد ولو إختلفت الجهات، وأن الشمس لا يذبل نورها، ولو غابت، فناجى الإمام مجدداً، بأنه متنقل بين المذاهب والطرائق، ويخشى أن يضيع بين الشرائع، فمن مالكي المغرب إلى حنفية الترك، وشافعية أهل الشام، والحنابلة في العراق، والزيدية في الحجاز والشيعة في العراق، ولا يعلم إن كانت هناك مذاهب جديدة، ومن دويلات تتناثر على خارطة البلاد، وضياع الناس بين عرب ومماليك وبربر وعجم، وهو بين كل هذا فقد تطوع للرحلة الطويلة، بحثاً عن الخلود.

ألهمه قلبه أن يتوحد مع كل هؤلاء، فارتاح قلبه، وعزم على النجاة بنفسه، وتذكر صديقه مخيريق، فأراد أن يزور المكان الذي سبى فيه نبوخذ نصر ببابل قومه، ومنه كتبوا سفر الخروج، وليكن من هذا المكان، سفر الخلود لابن بطوطة، وآثر زيارة بغداد لكي يلتقي ببعض العلماء، ويأخذ بوصايا مسعود بن جابر، بحمل الرسائل إلى علماء خراسان وما حولها.

أطلعوه على خزانة الروضة المليئة بالأموال العظيمة، فحفظ بعينه ما شاهده لينقله إلى الملك الناصر، حيث سينتقل إلى بغداد ويعود إلى واسط والبصرة، ومن ثم ينتظره رسول الملك في دمشق، وهو رسول مؤتمن، من أهل البريد، ينقل الأخبار من الأمصار، وقد أراد الملك وسلطان طنجة أن يحصوا الأموال، في حال غزاهم المغول، أو الصليبين، وليعرفوا أحوال الناس

والبلاد، فوجد ابن بطوطة أن القائمين على هذه البلاد، أهل ود وسماحة، وطيب معشر، وإن كان لديهم غلو في الدين.

بعد انتهاء الجولة في محلات البصرة الثلاث، استقر في محلة العجم، ليضيفه جمال الدين اللوكي، ومعه الحسيني، فأراد أن يجلس ويختلط بعامتها من غير العرب، ليتعلم ما يمكنه تعلمه من لغة أو من عادات، فصار يصلي معهم في مسجد له صوامع كثيرة، ويشهد على حلفهم بالإمام، ويلتزم الصمت الوقور.

تعلق قلب ابن بطوطة بمقبرة الشهداء في موقعة الجمل، وسحرته مناظر القباب التي تعلوها أسماء المدفونين أسفلها، فطاف رها، وأدرك ألم الفتنة، فزاره الإمام علي في المنام، ولم يستطع إدراك شيء منه.

ومال قلبه كميل الساحل الذي وقف عليه، بين الماء الأجاج من البحر، والعذوبة من جهة النهرين، فهما يمتزجان ويدخلان في الملوحة، فإن جاء المد غلبت الملوحة الماء العذب، وفي الجزر يصبح الماء الحلو طاغيا، وكأن الحال في قلبه كمثل دجلة والفرات مع البحر.

وعند قدوم بغداد، استقبلته الطبلخانة، وضربوا له الطبول، كما يضرب أهل الشام ومصرٍ عند أبواب الأمراء، وغاب في أزقتها، وأحيائها، دون أن يعرف أحد عنه شئاً، ولم يكن أحد يعمل أنه ذهب يبحث عن التمتع، وقضاء وقت للراحة، بعد كل هذا العناء والطواف بالبلاد.

ومع انقضاء عدة أيام، قصد الرحالة مدينة واسط ليزور قبل الرفاعي، ويلتقي بالصوفيين، يجدد إيمانه، وتتوضأ روحه بالحنين، فضربت له الدفوف في الرواق، وقام الآلاف من الفقراء إلى الرقص، ومن ثم قدموا له السماط والسمك واللبن والتمر، وثم أججوا له النار، برمي أحمال من الحطب، ودخلوا معه يرقصون حولها، ويتمرغون على الرمال الساخنة بقربها، فتمرغ حتى نزفت روحه، وتنظف قلبه، وأصبحت عيناه نديتان، مغرورقتان بالدمع، وبكى فؤاده حتى انغسل صدره من الهم، وخف وزنه.

استلقى على الأرض، لينام شبه عارٍ بعدما انشق قميصه خلال الرقص، ومؤخرته تغوص في التراب والحصى، ورجلاه ملتفتان على بعضهما، وحضر إليه رسول من ابنة جبرين، ينقل إليه الرسالة:

السلام على من كان قاصدا الهدى والندى..

أما بعد:

فإنه قد وصلنا علمكم، وما فعلتم في تونس ودمشق، وتأدبكم واحتشامكم في مصر، مرغمين مجبورين على احترام الأمر، والتحلي بالطاعة والرشد، ولو أنكم خالفتم ما كان عليكم فعله، بعدم الزواج في أي أرض تمرون بها، فإن كانت نيتكم الاختلاط بأديم الأرض، فإنكم محروقون بالنور والنار، وإن كان المبتغى، بلوغ المنتهى، فإن كل ما دون ذلك مباح، وعلى قلوبكم كالزلال.

فاظفر بذاتك، ولا تكن كالليل أدلج، بل كالصبح ونورنا منبلج، ولا تخن ثقتنا، وثقة الأولين، في جهادنا المقدس، فإن المماليك متقلبون، ويحبون السياسة، والمغول غزاة أنذال وفجرة، يشربون دماء الأبرياء كالخمر، ويهيمون في الصحاري كالوحوش، والعرب كأبناء عمهم اليهود، أهل دنيا، إلا من رحم ربنا، فعد إلى أصلك، تسلم، وإلا ضعت، وأضعت ممن علقوا في رقبتك الأمانة، وكان أجدر بنا إخصاؤك، كما يفعل الملوك العرب للعبيد، حتى لا تنصرف إلى شهواتك، وبترنا نسلك وقطعنا ذكرك، حتى لا تجمع له مالا أو حسباً.

وعليك ألا تغير مذهبك، وتنعطف انعطاف الذئب خلف القطعان، فيخرج من جماعته، فتخرج من ملتك، فقد زرت علياً، وقبلك مسعود قد ضاع، وقتلناه، ولا تسل كيف حدث ذلك، ولا تحزن فإن كان يستحق فقد جاءه ما هو أهل له، وإن لم يستحق فجزاؤه الجنة.

وخزه قلبه، فصحى من سباته، ليجد لفافة صغيرة محشورة بين صدره والأرض، فتأكد أنه ليس بحلم، بل إن الرسالة قد وصلته، ولولا سوء المنقلب، لما جاءته في هذا المكان، وبهذه السرية، ولم يبحث عمن جاء بها، فهو يعرف أنه لن يصل إليه، فهز رجليه، وفرك فروة شعره، وابتلع ما استطاع من اللفافة، لكي لا يبقى منها شيء، وعزم النية على ألا يفكر كثيراً، ويكمل مسيرته، متمرداً وبالغا مجده.

انتهى ابن بطوطة من رحلته في بلاد العرب، وعليه أن يرتحل بعيدا حيث يخرج إلى بلاد العجم، ويمر بقرى الكرد، ويصحب معه من يستطيع من الرجال، أو يكون بصحبة قوافل تجار، ويحل على المدارس المنتشرة،

ويشهد مع الصالحين والعلماء الجلسات، وتنتقل مهمته من نقل المعلومات والترتيب لنقل الأموال، إلى بلاد مترامية الأطراف، يحرص العلماء فيها على سبك الكتب، كالذهب، ويسلكون المقاصد، كما يقصد العرب الرحل الدروب ويجوبون الصحاري.

ما إن ولج إلى بلاد لا يعرف رطين أهلها حتى تغير حاله، وأحس بأن الهواء يدخل من مساماته، والعرق يتلاشى كأنه لم يكن، وراح قرينه يحدثه عن المفازات، والنواميس التي سيحصدها في مسيرته الطويلة، وقد أجازته كل الطرائق والملوك والأمراء، لكي يكون الرحالة بين البلاد والعباد، ينقل العلم، والأخبار، والأسرار، وما انفك يحتفي بما وصل إليه، حتى حلت عليه المصائب والمكائد، فقد قتل الشيخ يحيى الخراساني في المدرسة التي حل بها، ومن هنا بدأت المشاكل، وهرب ابن بطوطة إلى الأتابك يستنجد بهم،حتى لا يضيع مجده، ويذهب مع أدراج الرياح.

حل الرحالة لدى السلطان أتابك أفراسياب بن أحمد، وبعدما هرب في الأراضي، ولعب به قطاع الطرق، والمرتزقة الذين ينتشرون في الأماكن، ويسلبون كل من يمر بهم، ورموه مع الدواب، في أماكن منحوتة في الصخر فعرف أنه قد دخل جحور الأفاعي.

فور وصوله إلى مدينة إيدج استقبله الخدام والعبيد، وذكروا له أن السلطان لا يقابل الناس إلا يوم الجمعة، وقدموا له طيفورا مليئاً بالطعام، ونظفوا رأسه المليء بالتبن والتراب، وأزاحوا عن جسده الجلال والخرق التي ألبسوها له، وقد اكتشف بعد الأسر، أن زميله منصور بن شكل قد تمت إعادته إلى العراق، ولم يأت معه، وقد انتقل من عصابة إلى عصابة، وكأنه محمي لا أحد يمسه، أو يمنعه من الوصول إلى بلاط السلطان الذي يدين بالولاء لملك العراق.

معرفة نفسك بداية كل حكمة

أرسطو

صحراء الشام

ضاقت الدوائر على الطبيب والراعي، فقد وصل الكلام إلى حيث انتهت الرحلة ببلاد العرب، وعليهم الانتقال إلى بلاد العجم، ومن ثم سيعود ابن بطوطة مراراً وتكرارا متنقلا بين الأمصار، والدول، يعمل قاضيا، وأحيانا مرافقا للسلاطين، وما تم إنجازه من مخطوطة، يحتاج إلى حفظ كي لا

يضيع أو يبقى محفوظا، إذا قتل الطبيب أو الجميع في غارة، أو أجهزوا عليهم، والكنز الثمين الذي بحوزتهما بات عتياً، وثقيلا على الحمل، ومثيرا للارتياب.

اتفق الرفيقان على حفظ هذه النسخ في مكان معلوم، كي لا تضيع التدوينات، واتفقا على اسم لها بأن تكون المخطوطة السرية لابن بطوطة، وقد أخبر ابن بطوطة الطبيب أن هناك نسخة لدى ابنة جبرين، قد سرقها تباع لها في الهند، وأوصلوها لها، ولم يكشف للطبيب عمن كتبها، وقد يكون أحد آخر قد تلبسه في زمن من الأزمنة، كما أنه تهرب من الإجابة على حالة ابنة جبرين، وكيف ماتت؟ أم أنها مثل حالته لا تزال حية كل هذه السنين، ولم تمت.

ترنح الطبيب في مكانه، وأصابته نشوة لم يذقها حتى مع أجود أنواع الخمور، ولا في أحضان أجمل نساء الأرض اللاتي مررن عليه من كل الأعراق والدول، فقد أحس أنه قد صنع كنزاً، وعليه أن يحفظ له خلوده، ونسى مهنته، وبلاده، وحتى نفسه، وتحمس كثيراً لكتابة ما تبقى من أجزاء في هذه المخطوطة، وأصبح بارعاً في الاختصار، وتدوين الأحداث، ولم يفلح في كشف الحقائق، فأرغمه رفيقه على احترام تسلسل الزمن، واحترام صمته وإخفائه كثيراً من القضايا، وطلب منه ألا يلح في الأسئلة، المتعلقة بابنة جبرين، ومصير السلطان أبي عنان وابن جزي ومصير القاضي الطنجي الحقيقي محمد بن عبدالله اللواتي، الذين وجدوا مقتولين بعد ثلاثين عاماً، وطمأنه بأن كل شيء محفوظ، وأن التاريخ لا يضيع بسهولة، ما دام هناك ناس من البشر والجن، وإن كانت هناك خفايا ستكشف.

بشكل غير متوقع، طلب حراس السجن من الطبيب أن يكشف على المرضى، ورفضوا إدخاله إلى أقبيته المظلمة، وأخبروه بأنهم سيخرجون له المرضى تباعاً، واندهش عندما فتحوا الباب، وأخرجوا له الكفيف الذي يشبه مسعود بن جابر، وحينها عرف أنه لم يغادر إلى أوروبا، ولم يخبر ابن بطوطة، فقد ساوره الشك بأن هناك من منعه، أو أوشى به، ووقع في قبضة العسكر الذين سيطروا على المنطقة، ومنهم عرف أن الوضع في قلعة جعبر المحصنة، قد خرج من سيطرة من كانوا يسجنونهم، وعندما نقل المعلومة إلى ابن بطوطة، وهو الذي يعرف المكان جيداً، لم يعره اهتماماً، فآثر الصمت، وعدم إبلاغه بحال شبيه صديقه، وبقيت في حلقه غصة، فكيف سيبلغ أمه الخادمة لدى الجند؟! وهل ستغفر له إخفاءه معلومة وجود فلذة كبدها بالقرب منها، وهل سيشفع له وجوده في قلبها، والحب في سن السبعين؟

لم يغب ابن بطوطة كثيراً في الراعي، وحضر ليسلي الطبيب الهائم، والذي يقف على قلقه كالطائر الحزين.

استأنس العجوز بالحكايا، وألم به فضول منقطع النظير، واستدرج الرحالة ليخبره عن فارس، وعن الكثير من الحكايا، التي تروى على هوامش القصص، والحياة، والعمر، والمخطوطة التي ستحفظ في هذا المكان، أو تسلم لمن يقدمها للعالم، وأمطره بالأسئلة:

- **قل لي يا ابن بطوطة، هل توقفت رحلاتك عند فارس، وعدت للعراق ودمشق؟**
- **لقد تجولت في العالم القديم، من الصين، والهند وسرنديب ومدن خراسان، واليمن وبلاد الزنوج، وانتهت رحلتي في الأندلس، ومن ثم تم اغتيالي كما ذكرت لك سابقاً مع ابن جزي والسلطان أبي عنان، رحمة اللّه عليهم جميعاً.**
- **اتفقنا أن نقف عند هذا الحد من التدوين، فمتى ستكمل البقية، ومتى ستكشف الأسرار؟**
- **نحتاج إلى أجزاء من المخطوطة، فإن بقينا مع بعضنا، ولم تفرقنا الأيام والأحوال، سنكمل سرد الحقائق.**
- **هل ستغيرني، وتجد من يكتب غيري؟**
- **لقد وثقت بك وبابن جزي، واعتدت عليكما، فإن كنا سوياً، فلن أنكشف لغيرك، حتى لا يزداد ضعفي، والخطر علي، وعلى من معي.**
- **قل لي بربك، من معك، ومن أنتم؟**
- **لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ.**

غص العجوز في ريقه، وأخذ يكح بقوة، وتناول قنينة ماء ملفوف عليها قماش مبلل بالماء لتبقى باردة، وحرارة الكلام لا تزال عالية، فأكملا الحديث، لكن هذه المرة من طرف ابن بطوطة:

- **خفف من الدخان الذي تشربه إنه سم زعاف، لنبقى سوياً، ولا تكن عدواً لنفسك، لنضمن تدحرج الكلمات على يديك.**

- سنموت معاً كجسد، وتنتقل روحينا إلى أناس آخرين، فقلبي يقول إن ورقة العمر شارفت على السقوط.

انكبا على معاودة التدوين وتشذيب ما تيسر من الصفحات، بعد هذا الحوار الذي قطعه السعال الذي كان مهرباً جيداً للرحالة من الأشياء المريبة والمحرجة.

بسرية تامة، عاد الطبيب إلى السجن الذي يقبع فيه المساجين تحت الأرض، ليراجع مرضاه، واعتاد على الفضول، وحب شم الأخبار، ليعرف أحوال الذين يقبعون به منذ عشرات السنين، فباءت محاولاته بالفشل، واكتفى السجانون بعرض المرضى الذين يضعونهم في الغرف الجانبية لهم، ولم يسمحوا حتى لأنفسهم بفتح الأبواب الموصدة، ربما احتراماً للصدأ المعتق عليها.

صار يلتقي بالكفيف الفيلسوف بين حين وآخر، بعدما أخبرهم بأنه موالٍ لهم، وقد فقد عينيه من تعذيب أفراد التنظيم، ولم يحتاجوا لمعلوماته لأنهم يعرفون كل شيء عن أي شيء، ولهم حاجة به لإعادة فتح المدرسة ومتحف الآثار، لكي يعكسوا للعالم متى اهتمامهم بحقوق الإنسان، والحفاظ على الحضارات، ويريدون التأكد من حضور بصيرته، وقدرته على العودة إلى الحياة الطبيعية، بعد أن ينتهي كل شيء، ووجد فسحة للكلام مع الطبيب، ومع مجموعة من المجندين الإجبارين من أبناء الساحل، وهم من ذوي الشهادات الجامعية، تم سوقهم للدفاع عن الدولة، وجعلهم في مهام إدارية، فيتسلون مع بعضهم في الحوارات والنقاشات في السياسة والتاريخ والأدب وبقية العلوم.

لم يتركوا شيئاً لم يتحدثوا عنه، فحتى الاستمناء وتخيلاتهم بوسط الصحراء على أي شيء، وفيض البطانيات الخاكية بالمني ورائحته التي تمنوا لو أن هناك أجساد نساء بدلاً من هذا الوضع المكبوت، وانسكاب صفوة دمائهم وموت أبنائهم في هذا المكان الموحش القذر.

انشغل الطبيب عن رفيق دربه، وتكدست في قلبه الأماني وراح يقلب المواجع في داخله ويحاكي نفسه:

«آه ما أتعسني وما أثقل الأماني في قلبي الصغير المتعب منذ سبعمائة عام، فأنا أحاول جاهداً أن أخدم بإخلاص، فأختلف عن بني آدم، في خلطهم بين الدين والدنيا، بين الصح والخطأ، وما زالت جراحاتي عصية على الاندمال، فتسيل منها الذكريات والأحلام، كما تسيل الريح فوق الرمال،

فإلى متى سأبقى حياً، وإلى متى هذا العذاب في الارتحال من مدينة إلى مدينة، ومن بلد إلى آخر، بلا وطن، ولا مكان، أقبع وأسكن في نفوس الآخرين كالقرين، وأنا الذي أستطيع أن أجوب السماء والأرض، ولا يعترضني أحد، فقد أسلمت وآمنت وأخلصت ووفيت بعهدي ووعدي وبيعتي لخليفة الأرض، وهذا السر الذي يبحث عنه الكثيرون، من ابن بطوطة نفسه، وابنة جبرين التي لم يعلم أحد اسمها، ولا حقيقتها، ومسعود بن جابر، والسخاوي وغيرهم».

تملكه الهذيان فباتت روحه تدر المعلومات كالثدي الخصيب المليء بالحليب، ولم ينتبه لنفسه إلا عندما قاطعه صوت الطبيب، وقد دخل عليه فجأة، وقال له:

- **هل تكلم نفسك؟**
- **أتعس عادة ممارسة الهذيان.**
- **سمعت كل كلامك.**

ارتعد ابن بطوطة، وهزه الكلام حتى كاد أن ينفجر عقله، فقام وجلس، وفرك يديه بقوة، حتى هدأ العجوز من روعه، وطمأنه بأنه لم يسمع أسراره الخفية، فذكر للعجوز بأنه لو عرف سيقتلونه، ولن يتركوه يعيش، وهو يدرك خطورة الأمر، فهدأت أساريره، وضحك الطبيب بجلجلة، وقهقهة غير مثقفة.

وراح يلعب بأظافر رجله، وجلد ساقه المتقشر، وبداخله كلام يتجهز للخروج، فساعده وضع رفيقه النفسي المتدهور، فبادره بالحديث:

- **في قلبك كلام، قل يا وراق مخطوطتنا وكبيرنا.**
- **كيف عرفت؟ هل يعرف الجن ما يدور في نفس الإنسان؟ أم قريني حكى لقرينك؟**
- **ومن قال إن لي قريناً؟**
- **ربما.. لنترك هذا جانباً، سأهاجر أو بالأحرى أهرب أنا والمرأة العجوز أم الكفيف؟**

فتح ابن بطوطة فاه الراعي على مصراعيه، حتى فاحت رائحة مزعجة، والطبيب يتحسس من هذه الأشياء، ولديه وسواس اسمه النظافة والهندام، فرجع عنه، وابتعد قليلا، وأكمل كلامه.

ولم يقتنع كلاهما بالفكرة، فإلى أين سيهربان، وهل سيتزوجان، أم يعيشان بلا زواج، وقد وسوس شيطان الطبيب له، بأن هناك ابناً لها قابعاً في الحجز، فعزى نفسه أنه سيخرج ويعمل مع العسكر، ولديه رفقاء، وسيكون ذا شأن ووضع اجتماعي، فلا يحتاج لأن تكون أمه عصاه التي يتعكز بها، وتبصر له طريقه، ولا أن تكون له خادمة، فحاججه الرحالة بلسان مثقل، وصوت متعب، كأن الراعي الذي يتحدث، وبعامية قد أتقنها، بعدما كان يتحدث بالفحصى، حتى ثارت الشكوك حوله، فلم يستطع أن يقنع الطبيب بالعدول عن الفكرة، وهو مجبر على تقبلها، والانصياع له، والسفر معهما، حتى وإن استغربت المرأة العجوز المراهقة في سن السبعين، وهي التي تريد أن تختلي بحبيبها، وتمارس معه كل ما تم حرمانها منه في سنين الصبا، بينما الطبيب كان واضحاً مع الرحالة، حتى أنجز الجزء الأول منها، وأراد بطريقة مهذبة، وفيها من حفظ الود والعشرة الكثير، أن يجعله يبحث عن غيره، ويتركه في حاله، وربما لم يكن يحب المرأة، وقد شاخت مشاعره وعروقه وأعضاؤه، ولكن لتكون الذريعة لكي لا يأخذه معه، وقد تنقلا طوال أربعة سنوات في المدن والصحاري والسجون والدول، وحتى إن تركه يواجه مصيره ويبقى مع الراعي فاقد العقل، فمن الممكن أن يعيده إلى أهله، ولن يعيش الرحالة الاغتراب الفعلي، فهو يدرك كل الإدراك أن غربة الإنسان ليست إلا في داخله.

ماهذا المصير الذي ضيق الخناق على ابن بطوطة، فهو في الرحلة قد وصل إلى فارس، وقد احتجزه الأتابك، ولعب بمصيره الوزير البهلول، ولم يخرج منهم إلا بوضع مزر، ويريد سرد هذه التفاصيل المهمة للعالم، عن رحلاته في تلك البلاد، وما جاورها، وعودته إلى بغداد ودمشق بعد سنوات سراً، ومن ثم الانتقال إلى اليمن وتجارة العبيد، والزواج من النساء السمراوات، وكذلك الزواج من غير المسلمات، والتغلغل في الدويلات أقصى الشرق، وبناء التحالفات، مع السحرة والحكام، واتخاذ المحظيات، مما ساعد في بلوغ الغايات.

وتألم ابن بطوطة وهو يتذكر موت أولاده، فلا يعيش له أحد، والآن قد تموت مخطوطته الحقيقة، وقضيته التي كانت سرية، ولا تكتمل، فقد كانت يبحث عن خلوده، فلجأ إلى الإنسان، واستعمل كل الطرق، فمثلما ننجب أطفالاً ليحملوا أسماءنا، كي يبقى ذكرنا، ونخلده، كان طموحه في الحياة هو الانتقال بين البلدان، وزرع بذرة آدمية في أرضها، وحمل قلق خلوده في كل البلدان التي طاف بها، طواف الشمس على البحار واليابسة، وكذلك الكاتب والشاعر والرحالة، فهو يبحث عن خلوده عبر الكتابة والمؤلفات، فإنجاب

المخطوطات والمؤلفات والكتب أيضا كلها محاولات للبقاء على قيد الحياة والخلود، بينما الطبيب باحث عن الموت والخلاص، وهناك الفرق والاختلاف.

تألم كمن يمر بالمخاض، مخاض التحول من آدميته مع أديم الأرض، إلى جنونه مع الجن، ونوره وناره المحترق بهما منذ مئات السنين، وفي قلبه غصة، كمن يخنق البحر في قارورة، أو يلف السماء كسجادة فوق ظهر روحه، وارتمى إلى داخل الراعي، يرقص مع حزنه، بدوران صوفيّ لا يتوقف، حتى يخر صريعاً مرمياً على نفسه، فيجدها، وما آن الأوان لتنتهي هذه الرحلة الطويلة بين سفر الخلود والشرائع والضياع، وكلما مر به العمر، ثبت له أن كل ماهو حقيقي مزيف، وكل ما هو ثابت متغير، وأن الزمن يعيد نفسه، كعقارب الساعة، مثل حال هذه البلدان، من بيزنطيين إلى فرس وعرب ومماليك وترك، وعسكر، كأن الأرض بلاد هجرة مستمرة، ولو تغير شكل الإنسان ونوعه ولغته، ومن هوان إلى هوان، ولو اختلفت الأشكال، فاقتنع بهروب الطبيب، وبعمى بصر السجين، وأن ترزح هذه البلاد تحت الظلم، والتفتت، وتبقى مقتولة ولكن نست أو عجزت عن أن تموت.

يتبع....

الفهرس

الإهداء9
الطفولة وبلوغ المأرب27
طنجة عام 718هـ، 1319 م27
سجن أبو غريب 201596
طنجة 723 هـ100
سجن صحراء العراق 2016124
بلاد فارس وخراسان 724 هـ129
صحراء الفرات 2017139
طنجة 725هـ143
الرحلة المقدسة 175
الخميس 2 رجب 725هـ175
طنجة 726هـ225
جنة الدنيا237
دمشق 726 هـ237
صحراء تدمر 2017257
القاهرة263
التيه والخلود275
بلاد الشام275
دمشق 282
التاسع من رمضان 726هـ282
نهاية البداية347
صحراء تدمر347
يثرب، ذو القعدة726هـ365
صحراء الشام376